

دعوة الحق



مجلة شهرية تعنى بالمراسات الإسلامية وبشؤون الشفاعة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالملكة المغربية



عدد خاص بذكرى المولد النبوي الشريف

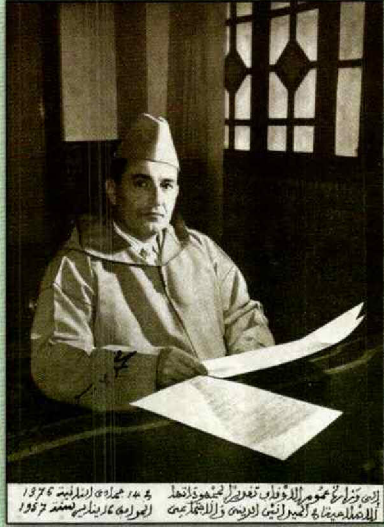
السنة السابعة والخمسون - صفر 1436 هـ / دجنبر 2014 م

410

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة السابعة والخمسون - العدد 410 صفر 1436 هـ / دجنبر 2014 م



أسسها

جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376 هـ / 1957 م

”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصحة خاصة بناحية الإصلاح الديني، كما تُعالج
مختلف الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وكسيد الأمل في
أن يلتفت مولها دُعاة العكر والثقافة والإصلاح في هذه
البلاد وغيرها لتؤدي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تسلك مجلة «دعوة الحق» سبل النجاة والتوفيق“.

من الكلمة التي وجهها الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى «مجلة دعوة الحق» بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

إلى وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والشؤون الدينية
الملك محمد الخامس طيب الله ثراه

في 10 جمادى الأولى 1376 هـ / 1957 م
الملك محمد الخامس طيب الله ثراه

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني : www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني : daawatalhak@mbai.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 32 10 - هاتف مدير المجلة : 05 37 66 06 74

فاكس : 05 37 76 17 21

التوزيع : هاتف وفاكس : 05 37 76 32 10

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط :

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة : الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 دھ

الخارج : 300 درهم ضمن العدد : 15 دھ

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الإخراج الفني والطباعة : مطبعة الأمانة - الرباط

مدير المجلة :

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير :

الأستاذ عبد الحميد العلمي



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد حفظه الله



افتتاحية

من المعلوم أن الاشتغال بالسيرة النبوية، واستحضار الشرائع العممية، من أجل الأمور شأننا وأرفعها فكرياً، لذا كتب الله لها الذيوع والانتشار، وفيض لها من ينحسرها من الجهابذة الأخيار. إنا بعضلهم فاضت سوابغ النعم، وتوالت توابعهم في السنن.

وكان من نتائج تلك النعم تضاعف فرائع المصغين على تتبع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتفتت من تلك الفرائع عزائم رجال من خيرة العباد الذين جابوا الأفصار لجمع الأخبار، ولم ينسهم بعد البلد عن تفصي أحوال السنن، لذا حرروا الموافق، وبينوا الشرائع، وسكوا الكرائع، حكمة لسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم. والقول بتلك الحكمة يصدق كذلك على مسمى مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم.

فالمنفول عن أئمة المخاهب وعلمائنا، جواز إحياء هذه الذكرى، لتكون مناسبة لاستحضار كريم خصاله وجميل شمانله، وربح ذلك الاستحضار بضرورة الافتقار إلى التأسي بشخصه، والتسبيح على سنن سيرته صلى الله عليه وسلم.

ويسعد مجلة الدعوة الحق أن يتضمن ملف هذا العدد مقالات علمية، شارك بها ثلة من السادة العلماء والأساتذة الأجلاء، داخل الوطن وخارجه. عسى أن تكون نافعة في بابها، وأن تجد صداً عند قارئها، آمين، والحمد لله رب العالمين.

رئيس التحرير.

المولد النبوي الشريف بالمغرب

الاحتفال بالمولد النبوي الشريف: إضاءة حول فرح المغاربة بالمصطفى صلى الله عليه وسلم

د. محمد التهامي الحراق
أستاذ باحث في الفكر الإسلامي،
الرباط

الحمد لله العزيز الغفار، والصلاة على سيدنا محمد مشكاة الأنوار، وعلى آله الأطهار، وصحابته الأبرار، وجميع من اغترف من معينهم من الصالحين والأولياء والأخيار.

نسعى من خلال هذا الحديث المختصر أن نقرب من موضوع يحتاج إلى أعمال علمية كبيرة وموسعة، ويقتضي دراسات تتقاطعها تخصصات التاريخ والفقه والتصوف والأدب والموسيقى والأنثروبولوجيا وغيرها، كما تستعجل قبل هذا وذاك إخراج جم من المخطوطات والوثائق المنسية أو المهملة، والعمل على تحقيقها تحقيقاً علمياً ثم نشرها وإذاعتها بين الناس.

يتعلق الأمر بموضوع الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ودوره في التعبير عن فرح المغاربة بالمصطفى صلى الله عليه وسلم. فالاقتراب من تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في المغرب، على أهمية ما أنجز فيه وحوله من دراسات، ما يزال في مسيس الحاجة إلى بحث في المظان التاريخية للوقوف على تفاصيل هذا الاحتفال في مختلف اللحظات التاريخية منذ انطلاقه في القرن السابع الهجري على عهد العزفيين إلى راهتنا المعاصر؛ وذلك من أجل الوقوف على مختلف مظاهر هذا الاحتفال الرسمية والشعبية وآثارها الأدبية والعلمية والاجتماعية والدينية وأبعادها الحضارية ومدى إسهامها في تشكيل وجه من أوجه الهوية الدينية للمغرب الأقصى؛ وكذا من أجل رصد الوظائف المتعددة التي صارت تضطلع بها كل تلك المظاهر؛ حيث صار هذا الاحتفال، بطقوسه وعاداته في اللباس والطبخ والتزيين والإنشاد والاجتماع والعمران وسك العملات وإحياء ليالي الذكر والتذكير في المساجد والزوايا والمشاهد والبيوتات الخاصة...؛ صار هذا الاحتفال بفضل ذلك وغيره علامة مميزة للشخصية الإسلامية المغربية.

هذه آفاق ينبغي على البحث والباحثين أن يمحروا عباها، فثمة أصداف تنتظر في شغف من سيطفر بها ليجليها لنا، كما نتعرف على الأبعاد الاجتماعية والنفسية والسياسية والفلسفية والجمالية والحضارية لاحتفال المغاربة بالمولد النبوي الشريف؛ وهو الاحتفال الذي تظل كل نظرة تعتبر مظهره من مخلفات الأعراف والعادات الثانوية أو التقاليد التي تعللها الوراثة والحنين للماضي، تظل نظرة قاصرة وكليّة عن إدراك خفايا امتداد هذا الاحتفال وإصرار المغاربة، رسميا وشعبيا، على التمسك به وإحياء وتجديد مظهره وتجلياته.

وقبل التذكير ببعض بواعث فرح المسلمين برسولهم الأكرم ونماذج من تأصيلاتهم لذلك، والوقوف عند بعض المظاهر المغربية لهذا الفرع ومدى عناية المغاربة بالمديح النبوي، نظما وإنشادا وتداولاً، بما هو أحد عناوين فرحهم بالمصطفى صلى الله عليه وسلم؛ سيلزمنا أن نقرب قليلا من تاريخ انطلاق الاحتفال بالمولد النبوي وتطوره في المغرب، هي مجرد إضاءات ليس إلا.

1- الاحتفال بالمولد النبوي: اقتراب تاريخي

من المعلوم أن الاحتفال بالمولد النبوي الكريم قد ظهر وانتعش رسميا منذ عهد الفاطميين بمصر وتونس حيث كانوا يحتفلون به ضمن احتفالهم بستة مواليد، وهي مولد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم؛ ومواليد آل البيت عليهم السلام علي ابن أبي طالب والحسن والحسين وفاطمة الزهراء؛ ومولد الخليفة الحاضر. كما أن مكة المكرمة كانت تحتفي بهذا العيد، حيث ينقل لنا الرحالة الأندلسي ابن جبير في "رحلته" عام 579هـ-1183م أن مشهد مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة يفتح في شهر ربيع الأول يوم الاثنين تحديدا فيدخله الناس كافة، ويضيف أبو العباس العزفي في كتابه "الدر المنظم في مولد النبي المعظم"¹ أن يوم المولد يتخذ عطلة عامة بمكة المكرمة وتفتح فيه الكعبة المشرفة ليؤمها الزوار.

وإذا كان بعض الباحثين يعين القرنين السادس والسابع الهجريين باعتبارهما تاريخ ظهور الاحتفال بعيد المولد النبوي الشريف²، فإن غيرهم يؤكد "أن العباسيين احتفلوا به طوال مختلف عهودهم وأن العلويين والشيعة عامة قد احتفلوا به حتى قبل قيام الدولة العباسية"³، ومن احتفل بالمولد النبوي الشريف خلال القرن السابع الهجري الملك مظفر الدين بن زيد الدين صهر صلاح الدين أمير أربل (وهي مدينة تقع جنوبي شرقي الموصل بالعراق) (ت. 630هـ/1232م). وقد زار هذه

1 - حققته بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط فاطمة اليازدي (رسالة مرقونة بخزانة الكلية).

2 - "المولد النبوي الشريف في المغرب المربني"، محمد المنوني، دعوة الحق، ع 1468/1، ص. 119.

3 - "الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه"، عباس الجارري، مكتبة القارئ، الرباط 1979، الجزء الأول، ص: 144.

المدينة ابن دحية السبتي - وهو من كبار علماء المغرب في عصر الموحدين - عام 604هـ/1207م، وحين رأى احتفال الملك مظفر الدين وولعه بعمل المولد النبوي الشريف ألف له كتاب "التنوير في مولد السراج المنير".

أما في المغرب فقد كان أول من دعا إلى الاحتفال بعيد المولد النبوي الكريم أبو العباس العزفي السبتي المتوفى سنة 633هـ/1236م، ويذكر في مقدمة الكتاب الذي بدأ تأليفه "الدر المنظم في مولد النبي المعظم" الحافز الذي حذا به إلى الدعوة لهذا الاحتفال؛ ذلك أن أبا العباس العزفي لاحظ متابعة المسلمين ومجاراتهم للنصارى في احتفالهم بأعياد "النيروز" (أول يناير ويوافق ميلاد السيد المسيح عليه السلام) والمهرجان (العنصرة حيث ذكرى ميلاد النبي يحيى عليه السلام يوم 24 يونيو)، و"ميلاد السيد المسيح عليه السلام" هو 25 ديسمبر حسب التقويم الغربي)، فدفعته غيرته على الإسلام والمسلمين في الأندلس وخوفه على هويتهم ودينهم إلى أن يفكر في ما يدفع هذه المناكر ولو بأمر مباح. فكان أن انتبه إلى ضرورة العناية بمولد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم فبدأ يطوف على الكتائب القرآنية بسبته ويشرح لصغارها المغزى والغايات الفاضلة من هذا الاحتفال، كما حض على تعطيل قراءة الصبيان في هذا اليوم العظيم. وهكذا انطلق هذا الاحتفال كشكل من أشكال مقاومة التقليد الديني للمسيحيين.

ولما تولى ابنه أبو قاسم العزفي إمارة سبتة، كان من إنجازاته أن حقق رغبة والده فاحتفل في سبتة بالمولد النبوي في أول ربيع من إمارته عام 648هـ/1250م، ويصف ابن عذارى المراكشي احتفال أبي قاسم العزفي في أول ربيع له بالمولد الكريم، فيكتب: «ومن مآثره العظام، قيامه بمولد النبي - عليه السلام - من هذا العام، فيطعم فيه أهل بلده ألوان الطعام، ويؤثر أولادهم ليلة يوم المولد السعيد بالصرف الجديد من جملة الإحسان إليهم والإنعام، وذلك لأجل ما يطلقون المحاضر والصنائع والخوانيت يمشون في الأزقة يصلون على النبي عليه السلام، وفي طول اليوم المذكور يسمعون المسمعون لجميع أهل البلد مدح النبي عليه السلام، بالفرح والسرور والإطعام للخاص والعام، جار ذلك على الدوام في كل عام من الأعوام»⁴.

ومن أجل إشاعة هذا الاحتفال، وبعد أن أكمل أبو القاسم كتاب والده "الدر المنظم في مولد النبي المعظم"، وبعث بنسخة منه إلى الخليفة ما قبل الأخير في سلالة الموحدين عمر المرتضى مشيراً عليه بإحياء هذه "البدعة الحسنة" كما وصفها كتاب "الدر المنظم"، صار هذا الخليفة الموحد يحيى

4 - "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين -"، ابن عذارى المراكشي، تحقيق الأساتذة: محمد إبراهيم الكتاني، محمد زنيبر، محمد بن تاويت، عبد القادر زمامة، دار الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء 1985، ص. 398.

ليلة المولد بمراكش ويحتفل بها احتفالاً، ويبدو أن الإنشاد والسماع كانا حاضرين أيضاً كمحورين رئيسيين في هذا الاحتفال، كما يوحي بذلك "كتاب المسموعات" الذي ألفه مؤرخ المرتضى أبو علي الحسن بن علي بن محمد بن عبد الملك الكتامي الرهوني المعروف بابن القطان نزيل مراكش 661هـ/1263م. وهو كتاب ضمنه قصائد مختارات فيما يخص المولد الكريم، وشهور رجب وشعبان ورمضان، وغير ذلك. وهو كتاب مفقود.

وقد امتد الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب على عهد المرينيين إلى أن أصبح عيداً رسمياً معمماً في جميع جهات المغرب مع يوسف بن يعقوب بن عبد الحق المريني أواخر صفر عام 691هـ/1292م. وفي أيام أبي سعيد الأول بن يوسف أضيف إلى ليلة المولد الاحتفال بسابعه، وفي أيام هذا السلطان تبنت الدولة القيام بنفقات الاحتفال بليلة المولد في سائر جهات المملكة. وقد اتخذت هذه الاحتفالات طابعها الاحتفائي الباذخ والبههي مع أبي الحسن وأبنائه، حيث دأب أبو الحسن المريني على إحياء ليلة المولد سفراً وحضراً، إذ يقتني لها ألوان المطاعم والحلويات والبخور والطيب؛ مع إظهار مظاهر الزينة والتأنق في إعداد المجالس كل حسب مرتبته وطبقته، ويأخذ الجميع من لباسه أبهاء ومن ريحه أطيبه، ويقدم في هذه الليلة ما طاب ولد من الفواكه الطرية واليابسة والحلويات وغيرها، وقد يقع الإطعام بعد العشاء الآخرة. وكانت إذا «استوت المجالس وساد الصمت قام قارئ العشر فرتل حصة من القرآن الكريم، ويتلوه عميدُ المنشدين ويؤدي بعض نوبته ثم يأتي دور قصائد المديح والتهاني بليلة المولد الكريم»⁵.

وكانت تواكب هذه الاحتفالات الرسمية احتفالات أخرى شعبية، حيث تُقام الأفراح وتستنير المدن بالأضواء، ويتجمل الناس وتزين المدن. وصار يوم الثاني عشر من ربيع الأول يوم دخول الصبيان بفاس للكتاتيب القرآنية، ومناسبة لختان الأطفال⁶. كما دأب الصوفية على الاحتفال بهذا العيد بزواياهم أو بالبيوتات الخاصة؛ فهذا أبو مروان عبد الملك الريفي أحد تلامذة أبي محمد صالح الماجري دفين آسفي، يقيم المولد النبوي في منزله بسبته بحضور المريدين ومن إليهم ويستعمل في الليلة السماع، كما أن شعراء الملحنون في هذا العهد كانوا يتبارون لإظهار براعتهم الشعرية بمناسبة المولد النبوي "حيث يجتمعون صباح يوم العيد في الميدان الرئيسي ويعتلون المنصة

5 - "المولد النبوي الشريف في المغرب المريني"، م.س. ص: 120.

6 - "الرسائل الكبرى"، ابن عباد الرندي، حققها وقدم لها كثر ل-هونركمب، منشورات دار المشرق، بيروت 2005، ص: 221. ومنذ العصر المريني، صار من التقاليد المغربية السائدة والسائرة في المدن العريقة والأسر الأصيلة اغتنام مناسبة الاحتفال بالمولد النبوي للقيام بختان الأطفال، حتي أصبحت اليوم هذه المناسبة موسماً لإقامة حفلات إغذار جماعي بالعديد من الزوايا والمزارات، كما تبنت هذا التقليد جملة من المجالس العلمية المحلية وجمعيات المجتمع المدني ذات الطابع الاجتماعي والإحساني.

واحدا تلو الآخر لإلقاء أشعارهم وقد تجمهر عليهم الناس، ثم يُنصبُ أميراً للشعراء من أحرز منهم قصب السبق⁷. ويُذكر كذلك أن السلطان المريني كان يقيم حفلا بهذه المناسبة يستدعي له رجال العلم والأدب، وأن الشعراء كانوا يلقون القصائد أمامه فيُنعم على الفائز الأول بمائة دينار وفرس ووصيف وحُلته التي يكون لابسا في هذا اليوم ويمنح سائر القراء خمسين دينارا لكل واحد⁸.

وقد ازدهت وازدهرت هذه الاحتفالات مع السعديين، وتعيينا في عهد المنصور كما أرخ لذلك عبد العزيز الفشتالي في "مناهل الصفا"⁹ حيث نقرأ فيه وصفا دقيقا لأحد مجالس هذه الحفلات. يقول: «إذا استوت الورود، واصطفت الصفوف وتقاربت الأجناس وتآلفت الأشكال، ورضيت مقاعدها السراة (...) تقدم أهل الذكر والإنشاد يقدمهم مشائخهم من بعد أن يفرغ الواعظ من قراءة ما يناسب المقام من الاستفتاح بفضائل النبي صلى الله عليه وسلم وسرد معجزاته والثناء على شريف مقامه وعظيم جلاله، واندفع القول لترجيع الأصوات بمنظومات على أساليب مخصوصة في أماديح النبي الكريم صلى الله عليه وسلم يخصها العرف باسم "المولديات" نسبة إلى المولد النبوي الكريم، قد لحنوها بألحان تحلب النفوس والأرواح، وترق لها الطباع وتبعث الانشراح في الصدور والأشباح، وتتشعر لها جلود الذين يخشون ربهم، يتفننون في ألحانها على مذهب تفننها في النظم، فإذا أخذت النفوس حظها من الاستمتاع بألحان المولديات الكريمة، تقدمت أهل الذكر المزمعون بالرقيق من كلام الشيخ أبي الحسن الششتري رضي الله عنه وكلام غيره من المتصوفة أهل الرقائق. كل ذلك تتخلله نوبات المنشدين للبيتين من نفيس الشعر يتحينون به المناسبة بينها وبين ما يتلى من الكلام عند الإنشاد»⁹.

إن هذا النص النفيس يكشف لنا عن قمة ما وصل إليه السعديون في العناية والاحتفاء بالمولد النبوي الشريف، وهو ما تطور وازدهر في عهد الدولة العلوية، حيث عرفت تقاليد واحتفالات واحتفالات باذخة، فصل في بعضها مؤرخو المملكة الشريفة، كما نقف على نماذج من ذلك مع المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان في كتابه "العز والصولة"، احتفالات مازلنا نعيش فصولا رائعة منها في زماننا الحاضر، وفي مقدمتها ذاك المشهد الفريد في العالم الإسلامي حيث يجلس أمير المؤمنين على البساط في رفعة المتواضعين وعليه سمة المحيين، معه كبار رجال الدولة والعلم والشرف وسفراء مختلف البلاد الإسلامية، محاطا بالذاكرين والمادحين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم يرددون بحضرته، في جو

7 - "الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها"، م.س.، ص: 146.

8 - نفسه.

9 - "مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفاء"، عبد العزيز الفشتالي، تحقيق عبد الله كنون، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، مطبعة المهدية، 1964م: 224/2.

رباني وأفق ذكري ملائكي كله خشوع وهيبة وألق ومحبة؛ يرددون مدائح جده المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويتغنون بشمائله وخصائصه ومكارمه وسيرته؛ محفل ديني يُنقل عبر مختلف وسائل الاتصال ليشع بمعانيه وإشارات على العالم، واشجاء ببهاء بين الجلال والجمال، بين الروحانية والاعتباط، بين الفرح والنسك، بين الحسن والإحسان ... وقد تعطر المقام والحضور برفيع العود والبخور، وازين الفضاء ببديع الفرش ووحدة الملبوس ونفيس الإهاب ورائق الأنفاس .. أما الأصوات فكأنها مزامير داود، انتُخب من مختلف جهات المملكة أعذبها وأرفعها، وانتقي لها من بهي الأنظام وشجي الأنغام، ما به ترحل الأرواح عن أشباحها، وتنسكب عبرات الهنا من محاجرها، وتنتشي الأفئدة طربا وحبورا بمحبوبها... فإذا انتهى المديح والإنشاد ثلّيت آي من الذكر الحكيم، وختم المجلس أمير المؤمنين بالصلاة على جده الصادق الأمين، ليتم تكريم وإكرام العلماء والشرفاء والشعراء والمداح، وينصرف الجمع مغتبطا مسرورا، وقد أسهم الحاضرون باعتزاز وانسراح في استدامة الأفراح، بهذا العيد النبوي الفاخر الأثير.

أما على المستوى الشعبي، ففي هذه المناسبة يكثر تدارس وتدرّيس السيرة النبوية في المساجد والمزارات والزوايا والبيوتات الخاصة، يصحبها ترتيل المدائح النبوية بأحلى التلاحين وأزهى الترانيم، وتقام حفلات ختان الأطفال في القرى والمدن، كما تعرف هذه المناسبة انتعاش الخياطة التقليدية من خلال إقبال الناس على إعداد أجمل الثياب التقليدية لصبيحة المولد الشريف، أما الطبخ المغربي فيشهد تجهيز أرفع الحلويات والعجائن، فضلا عن عنايته بمأكولات مخصوصة بفطور يوم العيد، والتي تعبر رمزيا عن صدى الفرح بمولد الرسول في المتخيل الثقافي المغربي. وتمتد الاحتفالات وما يواكبها من تدارس وإكرام وإطعام وإطراب في مختلف الزوايا والمشاهد والبيوتات على امتداد شهر الربيع النبوي، مع تمييز سابع العيد باحتفاء متفرد. وما تزال طقوس هذه الاحتفالات ومؤثاتها ورموزها في ميسر الحاجة إلى التوثيق والتدوين والوصف والتحليل كما أشرنا آنفا¹⁰.

وإجمالا، فإن من مرامي امتداد وازدهار وتوهج الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب، رسميا وشعبيا، على مدى قرون استدامة الفرح بالمصطفى صلى الله عليه وسلم لما فيه من عظيم المكارم وسمي الآثار ورفيع المقاصد، وهو ما جعل المغاربة يتمسكون بهذه السنة الحسنة ويتفننون في الاحتفاء بها وإحيائها. لكننا اليوم، وبسبب رياح دخيلة "غير لواقح" هبت على المشهد الثقافي الديني بالمغرب ظهرت معها نزعة تشكيكية جذرية في شرعية هذا الاحتفال وسمو مقاصده، أصبحنا نحتاج معها إلى

10 - فيما يحتاج بعض ما طال هذه الاحتفالات من التباسات وانحرافات إلى ترشيد وتسديد باللين والتوجيه الرفيق. وهي على العموم عوارض ينكرها الحريصون على جوهر الاحتفال وسمو مقاصده قبل غيرهم.

التذكير ببعض أصول ومقاصد أجدادنا في هذا الاختيار الرشيد والسديد؛ والذي لم يكن رشده ولا سداده بل ولا نبوغه، وإلى وقت قريب، في حاجة إلى شرح أو بيان. إنه مجرد تذكير لعل الذكرى تنفع المؤمنين.

2- في الفرح برسول الله صلى الله عليه وسلم: تأصيل وبيان

بالانطلاق من "حديقة الفرقان" ونخزن الأسرار، كتاب الله عز وجل، بحثا عما يضيء لنا أوجه ومناحي فرح المؤمن، يمكن إجمال ذلك - دون وقوف على تفاصيل ذات نفاسة لا تنكر - في وجهين بارزين:

أ- فرح مذموم منهي عنه؛

ب- فرح محمود مرغّب فيه.

أ- فمن الفرح المذموم المنهي عنه والمتعددة صوره في الذكر الحكيم الفرح بالمعاصي، ذاك ما تصرح وتلمح إليه جملة من الآيات منها قوله تعالى: ﴿فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله﴾ (التوبة، الآية 81)؛ وقال أيضا: ﴿ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفرحون﴾ (غافر، الآية 75).

ومن صوره كذلك، ما يدل على الاغترار، يقول سبحانه: ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾ (الشورى، الآية 48)؛ ويقول أيضا: ﴿ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني، إنه لفرح فخور﴾ (هود، الآية 10)، وقوله أيضا: ﴿كل حزب لما لديهم فرحون﴾ (المومنون، الآية 53 / الروم، الآية 32).

ومنه أيضا الفرح بما يشغل عن الله، نستفيد ذلك من قوله سبحانه: ﴿لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين﴾ (القصص، الآية 76)، وقوله أيضا: ﴿فرحوا بما عندهم من العلم﴾ (غافر، الآية 83)، وقوله كذلك: ﴿فرحوا بالحياة الدنيا﴾ (الرعد، الآية 26)، وقوله أيضا: ﴿ولا تفرحوا بما آتاكم﴾ (الحديد، الآية 23)، وقال: ﴿إنه كان في أهله مسرورا﴾ (الانشقاق: الآية 13).

بل إن من أصناف هذا الفرح المذموم صوراً ظاهرها محمود، كالفرح بنعمة الطاعة والانشغال بها عن المنعم. قال ابن عطاء الله في حكمه: "لا تفرحك الطاعة لأنها برزت منك وافرح بها لأنها برزت من الله إليك..." ﴿قل بفضل الله وبرحمته، فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾ (يونس، الآية 58). وهذا الملحظ في غاية النفاسة لأن الفرح بالمعصية وبالشواغل الظاهرة أمر جلي وباد، فيما حظ النفس في الفرح بالطاعة والوقوف عندها دون شكر المنعم والمتفضل بها، أمر خفي منه يتسرب العُجب والكبر المذمومان في صورة الفرح المحمود. وهو أمر يصعب علاجه، لقول صاحب "الحكم": "حظ النفس في المعصية ظاهر جلي، وحظها في الطاعات باطن خفي، ومداواة ما يخفى صعب علاجه".

الصورة الرابعة من نماذج الفرح المذموم ذاك "الفرح بمساءة المسلمين والاعتقاد بسرورهم"، قال تعالى: ﴿إِنْ تَمْسِكُمْ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ (آل عمران، الآية 120).

هذه بعض صور الفرح التي نهى عنها الشرع وحذر منها؛ لأنها صور لفرح النفس بنزواتها وبالأعمال التي زين لها الشيطان اقترافها. لكن ثمة صوراً أخرى لفرح مطلوب ومرغوب، نقف ها هنا عند بعضها.

ب- من الصور الشتى للفرح المحمود المرغَّب فيه الفرح بما أنزل الله تعالى، لقوله سبحانه: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون﴾ (التوبة، الآية 124)، وقوله أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ (الرعد، الآية 36). ومنها الفرح بنصر الله، قال سبحانه: ﴿... وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ (الروم، ص. 4-5). إلا أن الصورة الأجل والأشمل في هذا الفرح والمرغَّب فيها بصريح البيان، فهي الفرح بفضل الله ورحمته لقوله سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ (يونس، الآية 58). وهو من "أفضل رتب الفرح"¹¹ كما يذهب إلى ذلك سلطان العلماء العز بن عبد السلام. وعند هذا الوجه من الفرح المحمود سننزل ضيوفاً متأملين.

فقد جاء في "الدر المنثور" للإمام السيوطي وفي غيره منقولا عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قوله: "فضل الله العلم ورحمته محمد صلى الله عليه وسلم"¹². بل إن بعض العارفين يذهب إلى أنه عليه السلام الرحمة عينها، إذ لما كان سائر الرسل قد بُعثوا رحمة إلى أقوامهم؛ وكان صلى الله عليه وسلم قد فاقهم خلقاً وخلقاً وعِلماً وكرماً؛ حتى استمدوا من روحانيته غرماً من البحر أو رشفاً من الديم، كان عليه السلام هو "عين الرحمة" لقوله سبحانه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء، الآية 107)¹³. من هنا وجب علينا الفرح والابتهاج والحبور بهذه الرحمة التي أهداها لنا وَمَنَّ بها علينا الحق سبحانه. فقد قال أبو العباس المرسى في لطيفة نفيسة: «الأنبياء إلى أمهم عطية، ونبينا صلى الله عليه وسلم لنا هدية، وفرق بين العطية والهدية؛ لأن العطية للمحتاجين والهدية للمحبوبين، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أنا رحمة مهداة»¹⁴.

11 - "شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال"، العز بن عبد السلام السلمي، تحقيق إياد خالد الطباع، دار الفكر، بيروت - دمشق، 1989م: ص. 128.

12 - راجع مثلاً: "زاد المسير في علم التفسير"، لأبي فرج جمال الدين الجوزي، خرج آياته وأحاديثه ووضع حواشيه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت 2009: 31/4؛ و"تفسير المنار"، لمحمد رشيد رضا، خرج آياته وأحاديثه وشرح غريبه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط. 2005: 344/1.

13 - "لطائف المنن"، ابن عطاء الله السكندري، تعليق عبد الحليم محمود، دار المعارف، القاهرة (د.ت.): ص. 32.

14 - "لطائف المنن"، ابن عطاء الله السكندري، م.س: ص. 148-149.

ومن ثم فإن من أسطع الدلالات الساطعة للآية الكريمة الترغيب في الفرح بالمصطفى صلى الله عليه وسلم، من حيث كون الفرح شكراً للرحمن الرحيم على هذه الرحمة المهداة، وامتناناً وشكراً له سبحانه على هذه النعمة المسداة، فضلاً عن كونه مجلياً من مجالي محبة المصطفى بما هي فرض على الأعيان وشرط في الإيمان، لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»¹⁵، بل حتى يكون المحبوب الأكرم عليه الصلاة والسلام أحب للمؤمن من نفسه، لقوله صلى الله عليه وسلم لسيدنا عمر لما أخبره: «أنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي»، قال صلى الله عليه وسلم: والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك، فقال عمر: فإنه الآن لأنت أحب إلى من نفسي، فقال صلى الله عليه وسلم: الآن يا عمر»¹⁶.

فالفرح، إذن، بالرسول الأكرم بما هو شكر لله على نعمة البعثة المحمدية وبما هو تعبير عن محبة الجنب النبوي، هو من أرقى رتب الفرح المرغَّب فيه، لأنه يفضي إلى مختلف صور الفرح المحمود المشار إليه آنفاً، فالفرح برسول الله صلى الله عليه وسلم يتضمن وجوباً فرحاً بالآيات المنزلة عليه، وفرحاً بما من الله عليه وعلى رسالته وعلى المؤمنين من تأييد ونصر؛ ثم إن الفرح به صلى الله عليه وسلم يصرف وجوباً عن كل صور الفرح المذموم، لأنه يصرف عن المعاصي بلبه الفرح بها، ويصرف عن كل ما يشغل عن الله بلبه الفرح بهذه الشواغل، ويجعل من شروط صدق هذا الفرح، الاقتداء والاتساء بالمفروح به الذي علم أهل الإيمان أن يحب المؤمن لأخيه ما يحبه لنفسه، فكيف أن يفرح بمساءته ويغتم بسروره.

هكذا يصبح الفرح برسول الله صلى الله عليه وسلم سيد الأفراح المحمودة، فهو يستجلب فرح المصطفى لقوله عليه السلام للشيخ أبي موسى الزرهوني لما رآه في المنام - ورؤيته في المنام حق بصحيح وصريح الحديث الشريف - وذكر له ما ينكره البعض من أمر الاحتفال بمولده؛ قال له تلك الكلمة النبوية الذهبية التي سرت في أوصال العاشقين وتحللت دماءهم الممزوجة بالحب المحمدي: "من فرح بنا فرحنا به"¹⁷. والفرح يشرف بشرف المفروح به كما قال العز بن عبد السلام رحمه الله¹⁸، وأي فرح أشرف من الفرح بسيد الخلق، لذا كان هذا الفرح قربة من القربات يثاب عليها المؤمن المحب أجزل الثواب ويرفع بفضلها إلى أعلى الدرجات؛ وكيف لا وقد خُفف العذاب عن كافر بسبب فرحه بولادة المصطفى

15 - أخرجه مسلم في "صحيحه".

16 - أخرجه البخاري في "صحيحه".

17 - "تاريخ الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه وسلم وظاهره في العالم"، محمد خالد ثابت، المقطم للنشر والتوزيع، القاهرة، 2010م، ص: 18.

18 - "شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال": ص. 127.

صلى الله عليه وسلم، فما بالك بالموحد المحب. فقد روي عن أبي لهب أن العباس بن عبد المطلب رآه في المنام بعد مماته فسأله عن حاله، فقال له: "لم ألق خيرا بعدكم غير أني سقيت في هذه بعثاتي ثوية [الأسلمية جاريته]، وإنه ليخفف عني في كل ليلة اثنين"¹⁹ ذلك أنها بشرته بولادة النبي صلى الله عليه وسلم. فإذا كان هذا حال الكافر الذي لا تنفعه طاعة أو خير مع كفره حيث يخفف عنه إكراما له لفرحه بولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما بال المسلم المؤمن الموحد المحب لجناب خير خلق الله²⁰. وإلى هذا المعنى اللطيف والنفيس أشار الحافظ شمس الدين محمد بن ناصر الدين الدمشقي في هذه الآيات البديعة لما قال:

إذا كان هذا كافرا جاء ذمُّه ❀ يثبت يده في الجحيم مخلدا
أتى أنه في يوم الاثنين دائما ❀ يُخَفَّف عنه للسرور بأحدا
فما الظن بالعبد الذي كان عمره ❀ بأحمد سرورا وبات مؤحدا

هذا المعنى ذاته في تمجيد عيد المولد وتعظيم شأنه وشأوه تشير إليه وتزكيه حكاية دالة جرت بين العالم والصوفي الكبير ابن عباد الرندي والعارف الصالح سيدي أحمد بن عاشر دفين سلا؛ «فقد ذكر ابن عباد رحمه الله ونفع به أنه خرج في يوم ميلاده عليه السلام إلى خارج البلاد، فوجد الولي الصالح الحاج ابن عاشر رحمه الله مع جماعة من أصحابه، فاستدعوه لأكل الطعام، قال فاعتذرت بأني صائم فنظر إلي الشيخ نظرة منكرة، وقال لي: إن هذا اليوم يوم فرح وسرور، فلا يستقيم فيه الصيام لأنه يوم عيد»²¹.

بل إن الابتهاج بمولده جعل الكثير من العلماء والعارفين يفضلون ليلة ميلاده على ليلة القدر حتى إن أبا عبد الله محمد بن أحمد بن مرزوق ألف رسالة في إثبات ذلك سماها: "جنا الجنتين في فضل الليلتين" أثر فيها ليلة المولد على ليلة القدر من إحدى وعشرين وجها²².

هكذا إذن تتجلى المنزلة الرفيعة التي يتبوأها الفرح برسول الله صلى الله عليه وسلم لدلالته على الشكر وعلى المحبة وعلى الاقتداء؛ دلالة يقترن فيها التعلق بسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم والإقبال على سيرته والتمسك بشريعته، ببهجة التعلق والإقبال والتمسك، وفي ذلك دليل على صدق الإيمان

19 - رواه البخاري في "صحيحه" (باب النكاح).

20 - الرسائل الكبرى، م.س: ص. 222.

21 - راجعها في: "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين -"، م.س: ص. 179.

22 - راجعها في: "البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين -"، م.س: ص. 280-283.

لاقتران الاتباع بالمحبة. إذ الاتباع من لوازم المحبة، وليس كل اتباع عنوانا عليها. ذاك معنى دقيق انحجب عن بصيرة بعض من قرأ ولم يفقه أحد أسرار قوله تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم﴾ (آل عمران: 31).

في ضوء هذا الإدراك لدلالة الفرح برسول الله صلى الله عليه وسلم -وهي دلالة سامية تمثل واحدة من دلالات مقام الفرح بالله سبحانه²³، سنقارب صورة من صور فرح المغاربة برسول الله صلى الله عليه وسلم. وهي صورة ذات أبعاد أدبية وفنية واجتماعية. ويتصل الأمر بمظهر عنايتهم بالمدائح النبوية من حيث هي باب من أبواب الأدب وفن من فنون القول والإنشاد ترسخ في الذاكرة والوجدان المغربيين حتى أضحي عنصرا رئيسا وعلامة لامعة ضمن عناصر وعلامات الهوية الثقافية الإسلامية المغربية، والتي ساهمت عبر التاريخ -وما تزال- في تحقيق التلحيم الروحي للمجتمع المغربي. فكيف عبر المغاربة عن فرحهم برسولهم عليه السلام من خلال تعاملهم مع المدائح النبوية؟

3- المدائح النبوية لدى المغاربة: وهج أفراس وبلاغة إفصاح

نعني بداية بالمدائح النبوية ذاك الباب من النظم الذي افتتحه بعض الصحابة وخصوصا الشعراء منهم مثل كعب بن مالك وكعب بن زهير وحسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة، والذين تولوا إبراز قيم الدعوة الإسلامية وعظمة رسالتها ومكارم المبعوث بها والذود عنها ضد أهل الشرك والكفر والضلال. وقد تطور هذا الباب عبر مراحل الدعوة ثم في العهود اللاحقة وتوسعت أغراضه واغتنى ديوانه وازداد شعراؤه إلى أن استوى على ساقه واكتملت ملامحه، وتميزت معالمه واستقرت عناصره ومكوناته خلال القرن السابع الهجري، خصوصا مع إمام المادحين لرسول الله صلى الله عليه وسلم الشاعر المصري مثنوى ومولدا، الصنهاجي أصلا ومحتدا، شرف الدين محمد البوصيري (ت. 631هـ/1233م). ومع أن متونا مديحية أساسية كانت قد وجدت لها موطن قدم في المغرب تمثل "بردة" كعب بن زهير المعروفة بـ"الكعبية" والتي مطلعها:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ❁ متيم إثرها لم يفد مكبول

وكذا لامية عبد الله بن يحيى الشقراطيسي التزري (ت. 466هـ/1073م) المعروفة بالشقراطيسية²⁴،

ومطلعها:

23 - لمزيد تفصيل حول هذا المقام راجع: "فتح الأنوار في بيان ما يعين على مدح النبي المختار"، محمد بن العربي الدلائي الرباطي، دراسة وتحقيق محمد التهامي الحراق، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط 2011م؛ ج 1 / ص. 242.

24 - نسبة إلى شقراطس وهي قلعة قديمة كانت بالقرب من قفصة في تونس.

الحمد لله منا باعث الرسل * هدى بأحمد منا أحمد السبل

مع شيوع هذين المتنين المديحين الأساسيين في المغرب، فإن "بردة" الإمام البوصيري و"همزته" قد حظيتا بأبرز حضور وأشهر تداول وأوسع عناية. وذلك لما امتازتا بهما من مزايا روحية جمالية شعرية ولا اتصال سند صاحبهما بالمشرب الشاذلي المتدفقة أصوله وأسراره من جبل العلم بالمغرب، ثم لتزامن دخول القصيدتين للمغرب مع سن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف مع العزفيين في سبته ثم عمر المرتضي الموحدي ليصبح عيداً رسمياً للدولة المغربية مع المرينيين كما مر معنا. ومعه زاد امتداد حضور القصيدتين وشاع إنشادهما وتداولهما لدى الخاص والعام، ليصبحا من لوازم المنشدات الرسمية في الحفلات السلطانية خلال عيد المولد مع المرينيين والسعديين ثم العلويين، ومازال شأنهما، رفيعاً وحضورهما لامعاً سواء في المجالس السلطانية أو في مختلف الاحتفالات الدينية التي تقيمها الزوايا أو تحيي في البيوتات الخاصة في مختلف المناسبات.

هذا الحضور العام للقصيدتين ضمن ديوان الإنشاد بمناسبة المولد النبوي الشريف وإزاه وواكبه اهتمام علمي وأدبي بهما، فقد حظيتا بعدة شروح ووضعت عليهما جملة من التقايد، بل كانتا تدرسان وتشرعان لعموم الناس في مساجد شتى من المملكة؛ وخصوصاً في الأيام الأحد عشر من ربيع الأول من كل سنة، أما الأدباء فقد خمسوهما وشطروهما وسبعوهما وسمطوهما وعارضوهما مما أثمر لنا خزانة ثمرة في المحاورة الأدبية المغربية لقصيدي البردة والهمزية.

بل إن عناية المغاربة بهما اتخذت أبعاداً حضارية أرحب، حيث زينت بأبيات منهما كثير من القباب والمحاريب والأبواب والأقواس بالبيوتات والمساجد والزوايا والمزارات، كما ضربت وسكت بأبيات من البردة العملة النقدية المغربية في بعض الفترات، كما هلل بهما المهللون فوق المآذن، وحلينا ببديع الأنغام ورفيع الألحان لتنشدا في جلسات المديح وحلق الأذكار بالمساجد والزوايا والبيوتات الخاصة، حتى ظهرت لنا مدارس في إنشادهما اختص بها المغرب وتنافست فيها مدنه وزواياه عناية بهما وترسيخاً لمعانيهما النبوية النفيسة في النفوس والأفئدة. فظهرت مثلاً مدرسة خاصة في تلاوة البردة بفاس سميت على غرار ما جرى به العمل في الفقه بـ"العمل الفاسي"؛ ويعنون به الطريقة الفاسية في تلاوة البردة وتنظيمها، لتبرز بعد ذلك نماذج تحاكي هذا العمل، منها، تمثيلاً، "العمل الوزاني"، و"العمل التطواني"، و"العمل السلوي" و"العمل الرباطي" و"العمل السوسي"،.. والأمر نفسه شمل متن الهمزية، فظهرت "الهمزية الريسونية" و"الهمزية الحراقية"... وغيرهما، وتشير هذه الاصطلاحات الفنية إلى الأسلوب الترنيمي الخاص بهذه الزوايا في تلاوة وإنشاد متن الهمزية.

هكذا نلاحظ أن المغاربة وتعلقا منهم بالجانب النبوي الشريف، اعتنوا بهذين المتنين باعتبارهما سيرة نبوية منظومة، وهذه العناية هي فقط النموذج الأبرز لاحتفائهما بالمدائح النبوية²⁵.

النموذج الشعري الثاني الذي نستحضره في هذا السياق بعد قصيدتي البردة والهمزية البوصيريتين، هو متن شعري مديحي غاية في التميز ويعرف بـ "الوتريات البغدادية". وهي قصائد من بحر الطويل أنشأها أبو عبد الله محمد بن أبي بكر رشيد الوتري البغدادي (ت. 663هـ/1264م)؛ وهو فقيه شافعي يذكر أن أصله من كتامة بالمغرب. يبلغ عدد هذه القصائد تسعة وعشرين قصيدة نظمها على حروف المعجم، كما جعلها وترية بحيث تضم كل قصيدة واحدا وعشرين بيتا، التزم فيها بافتتاح الأبيات بحرف مطابق للروي، مثال ذلك مطلع القصيدة الأولى وهي على حرف الألف:

أصلي صلاة تملأ الأرض والسما ❀ على من له أعلى العلا متبوا
وهذا مطلع القصيدة الأخيرة على حرف الياء:

يسود الورى من كلم الله في السما ❀ وقام بساق العرش يستمع الوحيا

وعلى غرار عناية أهل المغرب المتميزة بالبردة والهمزية، محضوا هذه الوتريات عناية مثيلة تضارعها في النوع وتقل عنها في الدرجة، حيث عارضوا هذه الوتريات وخسوها وشرحوها ولحنوها واعتنوا بإنشادها خصوصا في المدرستين الإنشاديتين الريسونية والدلائية الحراقية الرباطية. وتحضر هذه القصائد بشكل ألمع وأبرز في الاحتفال بالمولد النبوي إذ يزوج إنشادها بإنشاد البردة والهمزية البوصيريتين، مع توريق كتاب "الشفاء" للقاضي عياض، وذلك ابتهاجا بولادة المصطفى صلى الله عليه وسلم²⁶.

وإلى جانب عناية المغاربة بهذه المتون لفرحها بالرسول صلى الله عليه وسلم وتعبيرها عن حبه والتعلق بجنابه مع استحضار شمائله ومعجزاته ومكارمه ومحطات سيرته والتشويق إلى زيارته ثم الاستشفاع به، وذلك في حلة شعرية حازت من البهاء ما يأسر النفوس ويتلف النهى، وزادها بهاء جمالية الترانيم وعذوبة الأصوات وإهاب مجالس الإنشاد وروحانيتها؛ إلى جانب هذه المتون ظهرت هناك نصوص نثرية تروم ذات المنحى مثل "الموالد النثرية"²⁷ ومتون خاصة بالصلوات النبوية مثل كتاب "دلائل الخيرات" لسيد محمد بن سليمان الجزولي أو "ذخيرة المحتاج" لسيد محمد بن المعطى الشرقي، ونصوص شعرية مفردة سواء أكانت من الفصيح الموزون أم الموشح أم الزجل أم الملاحون،

25 - لمزيد توسع بصدد العناية المغربية بمتني البردة والهمزية البوصيريتين راجع: المبحث الثالث ضمن كتاب "موسيقى المواجيد، مقاربات في فن السماع المغربي"، محمد التهامي الحراق، منشورات الزمن 2010م.

26 - نفس الإحالة السالفة.

27 - انظر الإشارة إلى نماذج منها في: التأليف المولدية، عبد الحى الكتاني، مجلة السنة النبوية، ع. 3/2003: ص. 129-161. وقد وقفت على ستة وثلاثين تأليفا مولديا مغربيا، وذلك في دراسة منشورة بعنوان: "جرد أولي لمدينة المدائح النبوية بالمغرب".

وسواء بالعربية أو الأمازيغية أو الحسانية. ولم يكتف المغاربة بالنظم والقرض بل اعتنوا بكل النصوص مشرقية كانت أو مغربية توافرت فيها شروط التعبير، وكذا استثارة الفرح بالرسول صلى الله عليه وسلم²⁸، مما أغنى ذخيرة أهل المغرب في ديوان المديح النبوي الشريف متونا وألحانا وألوانا²⁹؛ وهي جميعها تنغى زرع محبة المصطفى في الأفئدة والقلوب وترسيخ مكانة الرسول كقدوة وأسوة باعتباره "الإنسان الكامل" والنموذج الأمثل "للرحمة الإلهية"؛ لأنه بالمؤمنين رؤوف رحيم. وبهذا الاعتبار ساهمت المدائح النبوية في التعبير عن فرح المغاربة بنبيهم، فرحا دائما أبديا، إذ هو عنوان محبتهم له ولآل بيته، والمحبة مفتاح الاقتداء الفرح بالمحسوب، والتمسك الصادق بسيرته وسنته وشريعته.

لذا علينا إحياء هذه المعاني لأنصاف أجدادنا، والاعتراف بما قاموا به في سبيل صياغة وصيانة الهوية الإسلامية للشخصية المغربية، والعناية بما توسلوا به في ذلك من وسائل ثقافية وجمالية واجتماعية غاية في النبل والأصالة ساهمت في تلحيم المجتمع وتمتين وحدته المذهبية و حماية أمنه الروحي، وأسهمت بقوة في تشكيل الوجدان الجماعي المغربي، وبناء وصون وحدة الأمة. ثم إن إحياء تلك المعاني يقتضيه اليوم، وأكثر من أي وقت مضى، واجب المحبة النبوية؛ وذلك من أجل إبراز عالمية الرحمة المحمدية، وتعريف العالمين بمكارم وكمالات النبي صلى الله عليه وسلم وكونية القيم التي جاء بها هديّه مما يجهله أو يتجاهله "المستهزؤون"، فضلا عما تقتضيه تلك المحبة وتستلزمه أيضا من ترشيد في سلوك مدعيها حتى يتوافق مع سلوك المحبوب وهديه، وتصح بذلك دعوى المحبة فتترك أحسن الأثر وأبلغه في من لا يقرؤون تعاليم نبي الإسلام إلا في ممارسات وأخلاق أتباعه.

تلك بعض الإضاءات التي من شأنها أن تحفزنا على مزيد فرح برسول الله صلى الله عليه وسلم، متخذين من سيرة وهدي ومنهاج المفروح به نبراسا يبدد قلقنا، ويؤنس وحشتنا، ويضيء عتماتنا، وينير سبلنا، ويجدد ثقتنا بأنفسنا للسير على هدى في زمان تحاصر المسلمين فيه أسئلة محيرة، ويكاد يطوقهم الضلال من صوب.

28 - بتكليف من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية وتنسيق مع الشركة الوطنية للتلفزة المغربية وإنتاج قناة السادسة، قمنا ما بين 2012/04/18م و2012/06/18م بالإشراف الفني على جولة وطنية في ربوع المملكة لتسجيل أبرز وأشهر "ألوان المديح النبوي بالمغرب" بمختلف أشكاله ولغاته وأنماطه، وقد تحصل لدينا تسجيل 43 لونا مديحيا دونما دعوى إحاطة أو استقصاء، فضلا عن توثيق جملة من العادات والتقاليد والطقوس الاجتماعية التي تبرز تعلق المغاربة بمحبة النبي الكريم وبالصلاة عليه في مختلف مظاهر حياتهم اليومية من المهد إلى اللحد. وقد حظي السيد وزير الأوقاف والشؤون الإسلامية الأستاذ أحمد التوفيق بشرف تقديم هذا العمل إلى أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس ليلة المولد النبوي الشريف لعام 1435هـ. وهو العمل الذي ضمّن في أقراص مدح مدتها 38 ساعة وأرفق بشريط وثائقي إجمالي في الموضوع مدته 72 دقيقة بعنوان: "أنفاس المغاربة في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم"؛ وقد بُثت جل تلك الألوان المديحية على قنوات الشركة الوطنية للتلفزة المغربية خلال شهر رمضان لعام 1435هـ، وذلك ضمن برنامج تلفزيوني حمل نفس العنوان: "أنفاس المغاربة في الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم"، قدمه الإعلامي هشام فتوح، وتشرفت خلاله بسط إضاءات معرفية وفنية عن مختلف الألوان المديحية المعروضة.

29 - نستحضر هنا على سبيل المثال نصوص عمر بن الفارض وأبي الحسن الششتري وعلي وفا الشاذلي وعبد الرحيم البرعي وشمس الدين النواجي وأحمد الرفاعي وعبد الحي الحلبي ومحمد الحراق والعربي بن السايح.. إلخ.

من نوادر المخطوطات في المولد النبوي في العصر العلوي «ذكرى ليلة المولد الشريف، وعادة أسلاف أمير المؤمنين فيها، وأول من فعلها» لمؤرخ الدولة العلوية أحمد ابن الحاج

د. أحمد إيشرخان
أستاذ باحث،
جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس

– تمهيد في أهمية الاحتفال بالمولد النبوي في العصر العلوي:

مما لا شك فيه أن العصر العلوي شهد طفرة نوعية من حيث الاحتفال بالمولد النبوي الشريف لأسباب متعددة، أولها: ارتباط هذه الأسرة العلوية بالنسب المحمدي الشريف، ثانيا: تنويع ما جرى به العمل لدى المغاربة في الحقب التاريخية السابقة خصوصا مع الدولتين المرينية والسعدية، ثالثا: كثرة التأليف التي حققت التراكم المعرفي في المولديات وما يرتبط بها، أضف إلى تلك العوامل طول مدة حكم الدولة العلوية وازدهار أيامها، وتشجيع سلاطينها للعلم والعلماء، للتأليف في مختلف الميادين، وضمنها التأليف في المولد النبوي وكل ما يرتبط بمدح الجناح المحمدي، وقد سائر علماء كل فترة رغبة ملوك الدولة في التأليف والتصنيف في هذا المجال، بل وتصدوا لكل منكر لهذه السنة الحميدة ضمن مؤلفاتهم أو بتأليف مفردة¹.

ومن باب التذكير والتذكر نشير إلى أن مجموعة من الخزانات العامة والخاصة مازالت تحتفظ بتراث نفيس في المولديات: كتب مخطوطة وكناشات ودفاتر وتقاييد ودواوين، وهي في انتظار من يبعثها من مرقدتها، ويخرجها من مخبئها، وفي هذا الإطار نسعد اليوم بتقديم نظرة موجزة مختصرة،

1 – نذكر على سبيل المثال لا الحصر كتاب: «إعلام الحاضر والباد بقطع أوداج من زعم الأدب في ترك مدح خير العباد»، للمؤرخ النقيب عبد الرحمان ابن زيدان العلوي. نسخة مخطوطة بالخزانة الحسنية بالرباط، تحت رقم. 11773.

تكون بقدر المستطاع شاملة مستوعبة، لكتاب مخطوط في المولد النبوي في العصر العلوي، اختار له مؤلفه أحمد ابن الحاج عنوان: «ذكر ليلة المولد الشريف، وعادة أسلاف أمير المؤمنين فيها، وأول من فعلها». وذكره بعض المفهرسين بعناوين أخرى مثل عنوان: «عادة العلويين في المولد النبوي»، وعنوان: «ذكر ليلة المولد النبوي وعادة أسلاف أمير المؤمنين مولاي الحسن فيها وأول من فعلها»². ونظرا لأهمية الاحتفال بعيد المولد النبوي في العصر الحسني، فقد أدرج المؤلف ملخصا لمحتويات هذا التأليف في كتابه اللاحق المعنون ب: "الدرر الإبريزية في المناقب العزيزية"³.

وقبل التطرق إلى مضامين المخطوط لا بأس من ذكر نبذة مختصرة عن المؤلف الذي سبق أن خصصنا لسيرته دراسة وافية في مقدمة تحقيق كتاب الدر المنتخب⁴.

- التعريف بالمؤلف:

يعتبر أحمد بن محمد بن حمدون ابن الحاج السلمي المرداسي من أشهر العلماء في القرن التاسع عشر، فهو يشكل نموذجا للعالم المشارك في مختلف العلوم، ومن لهم اليد الطولى في الفروع والأصول، مارس التدريس في فاس وبمدرسة زيمة بقبيلة أحمر، حيث أخذ عنه أمراء من الأسرة السلطانية، وضمنهم السلطان مولاي الحسن الذي أجازه ابن الحاج إجازة عامة في علوم الرواية والدراية، ولقد شارك هذا العالم الكبير في أحداث عصره وألف مؤلفات في علوم مختلفة، مثل: التاريخ والطب والتصوف والأدب والنحو، فهو مؤلف أكثر، حيث بلغ مجموع عناوين كتبه سبعة عشرة عنوانا، بعضها في مجلدات متعددة.

عاصر ابن الحاج مجموعة من سلاطين الدولة العلوية الشريفة، وكان من المقربين لدى السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام والسلطان سيدي محمد، وقد أصبح مؤرخا رسميا للدولة العلوية في عهد السلطان مولاي الحسن وفي عصر خليفته السلطان مولاي عبد العزيز، ومن أشهر مؤلفاته نذكر: الدر المنتخب المستحسن، وهو أجمع تأليف في تاريخ الدولة العلوية، والدرر الإبريزية في المناقب العزيزية، والدرر الطبية المهداة للحضرة الحسنية، وحاشيته الشهيرة على المكودي في

2 - عبد السلام ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ج.2، ص. 456.

3 - أحمد إيشرخان: الدرر الإبريزية في المناقب العزيزية، عرض وتقديم، منشورات مركز الدراسات والبحوث العلوية - الريصاني، دجنبر. 2003.

4 - أحمد ابن الحاج: الدر المنتخب المستحسن، دراسة وتحقيق، أحمد إيشرخان، رسالة جامعية لنيل شهادة الدكتوراة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، 2003.

النحو، وشرح ظهير حسني صادر برسمه، وغيرها من المؤلفات التي تدل على طول نفسه في الكتابة والتدوين، وتشير إلى ارتباطه الوثيق بالنخبة العلمية ذات الصلة بالحضرة السلطانية، وله مجموعة من الفتاوي في مجموعة من القضايا والنوازل الفقهية.

توفي أحمد ابن الحاج عام 1316هـ/1899م، ودفن بالزاوية الوزانية بحي الشرشور من عدوة فاس القرويين⁵.

- وصف الكتاب المخطوط:

بداية نذكر أن هذا الكتاب المخطوط كان في حكم المفقود قبل أن نعثر عليه في خزانة مؤسسة علال الفاسي بالرباط تحت رقم 258ع، وهي النسخة الوحيدة التي عرفناها لحد كتابة هذه السطور، وتقع في ثاني مجموع يتضمن أوله كتاب «شرح الظهير الحسني»، الصادر برسم المؤلف أحمد ابن الحاج. عدد صفحاته 206 صفحة، وتبتدئ صفحاته في الترقيم من الصفحة 200 إلى الصفحة 406، مقاسه 15x9,5، مسطرتة 16، وعدد الكلمات ما بين ثمانية وعشر كلمات، وبالنسخة بعض التصحيحات بخط المؤلف، وفيها أيضا كثير من التوقيفات التي يمكن اعتبارها عناوين فرعية، ومن خلال الأختام التي ختم بها الكتاب يظهر أن هذا المجموع كان في ملكية شيخنا العلامة الفقيه سيدي محمد بن عبد الهادي المنوني⁶، وقد كتبت هذه النسخة بخط مجوهر مريح، ملون مذهب، وهو نفس الخط الذي كتبت به نسخ الدر المنتخب، ونفس الورق والخبر والتفسير والمقاس، وهو خال من اسم الناسخ، ومن تاريخ كتابة النسخة، ولعله أحد الموظفين المخزنين الذين يمتنون خطة النسخة في حنطة النسخة التي أحدثها السلطان مولاي الحسن بداخل دار المخزن.

أما عن تاريخ تأليف هذا الكتاب فيخبرنا ابن الحاج في الدر الإبريزية أنه شرع في تأليفه حول عادة العلويين في المولد النبوي سنة 1297هـ/1880م. كما أن المؤلف عمل على إدماج تأليف صغير ضمن هذا الكتاب عنوانه: تفضيل ليلة المولد النبوي على ليلة القدر⁷.

5 - ابن الخياط، الفهرسة، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 1182، ص. 23. إدريس الفضيلي، الدر البهية والجواهر النبوية، ج. 2، ص. 309.

6 - ذكر ذلك أيضا ابن سودة في دليل مؤرخ المغرب ج. 2، ص. 256. وقال: «تقع في عشر كراريس توجد عند الأخ محمد بن عبد الهادي المنوني بمكناس ضمن مجموع».

7 - ذكره عبد الرحمان ابن زيدان في كتابه: معجم طبقات المؤلفين على عهد دولة العلويين، دراسة بيبليومترية وتحقيق د. حسن الوزاني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، مطبعة دار أبي رقراق، الرباط، 1430هـ، 2009، ج. 2، ص. 96.

- المولد النبوي: أصول الاحتفال وبدايته في المشرق

في الصفحات الأولى من الكتاب المخطوط يوطئ ابن الحاج لحديثه عن المولد النبوي بالمغرب من خلال البحث عن جذور هذا الاحتفال وبدايته وأوليته وعوامل تطوره ومشروعيته محاولاً جهد الإمكان النقل عن مشاهير العلماء والفقهاء والرواة الثقات، وكأنه يحاول التأصيل لهذا الموضوع باعتباره من السنن الحميدة المحدثّة في تاريخ الإسلام.

يذكر المؤلف نقلاً عن الإمام الحافظ أبي الخير السخاوي في فتاويه أن عمل المولد لم يكن في القرون الثلاثة الأولى، وإنما حدثت بعدها، وهنا يؤكد المؤلف على أن أول من أحدثه من ملوك الإسلام هو الملك مظفر الدين أبو سعيد كوكبوري صاحب إربيل من أعمال الموصل بأرض العراق والذي حكم ما بين 563هـ-630هـ/1167م-1232م، حيث: «كان يحتفل به احتفالاً هائلاً، ويصرف عليه كل سنة ثلاثمائة ألف دينار»⁸، بعد ذلك ينقل المؤلف مجموعة من الأخبار والأحداث من مؤرخين فصلوا في المولد ومنهم المؤرخ الحافظ أبو شامة شيخ النووي، والمؤرخ السيوطي، الذي نقل عنه ابن الحاج كتاباً مؤلفاً في المولد تحت عنوان: «التنوير في مولد البشير النذير» الذي ألفه الشيخ أبو الخطاب ابن دحية برسم الملك المظفر كوكبوري الذي أجاز مؤلفه بألف دينار، ولعله أول كتاب في تاريخ الاحتفال بالمولد النبوي، ويعزز المؤلف حديثه عن بداية الاحتفال بالمولد النبوي بالوصف الدقيق الذي وصف به ابن كثير في كتابه البداية والنهاية طقوس الاحتفالات التي يقيمها هذا الملك المظفر مع أنواع الطعام التي تقدم أثناء الاحتفال، ويشفع ذلك بما ذكره القاضي ابن خلكان في وفيات الأعيان، من أوصاف لأنواع الاحتفالات وبما رواه سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان.

- بداية الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب:

حول بداية الاحتفال بالمولد النبوي في المغرب، يؤكد ابن الحاج على أن صاحب سبته أبو القاسم بن القاضي أحمد العزفي هو الذي سن ذلك في بلاد المغرب في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، وقد اقتفى أثره ملوك الأندلس والمغرب، وأجمع العلماء على أن ذلك سنة حسنة⁹، ومن بالغ في الاعتناء بهذا المولد من الملوك حسب المؤلف السلطان أبو حمو موسى بن موسى بن يوسف الذي كان يحتفل غاية الاحتفال بهذه المناسبة، حسب ما نقله المؤلف من المقرئ في نفع الطيب نقلاً عما ذكره في كتاب «راح الأرواح»، فيما قاله السلطان أبو حمو وما قيل فيه من الأمداح،¹⁰ للحافظ أبي عبد الله التنسي التلمساني، ويورد ابن الحاج بتفصيل وصف مظاهر الاحتفال بالمولد في عهد هذا

8 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، ص. 202.

9 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، ص. 207.

السلطان مخصصا صفحات للحديث عن المنجاة العجيبة التي كانت تؤثت هذه الاحتفالات بين يدي المحتفلين وما فيها من العجائب حسب تعبيره، لإظهار مزيد من الاحتفال والاهتبال معززا ذلك بذكر أبيات ومقطعات لشعراء المرحلة.

وهنا يعرج المؤلف على أن الشعراء والأدباء قد أكثروا من القصائد في مدح هذه الليلة الشريفة، وفي مدح المصطفى عليه السلام، وعادة ما يستطرد الشعراء بمدح ملك الوقت، الذي أقام تلك المناسبة، وينشدون ذلك بين يديه في تلك الليلة المباركة¹⁰، ومن نماذج القصائد التي أنشدت في العصر المريني يستحضر ابن الحاج قصيدة للسان الدين ابن الخطيب أنشأها لأبي سالم المريني عام 763هـ، ثم قصيدة أنشدها أبو زكرياء يحيى ابن خلدون عام 778هـ. غير أن ابن الحاج يذكرنا هنا اعتمادا على ما ورد عند ابن السكاك أن أول من احتفل بالمولد النبوي من ملوك بني مرين هو أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق المريني، وكان ذلك بالضبط سنة 691هـ حسب ما حققه ابن الحاج اعتمادا على رواية وردت في روض القرطاس.

وفي صفحات متوالية يفصل ابن الحاج في وصف مظاهر الاحتفال وما كانت فيه من زيادات احتفالات أحمد المنصور الذهبي نقلا عن كتب المرحلة، مثل: النفحة المسكية للتمكروتي ونزهة الحادي للوفرائي. وهنا يستطرد ابن الحاج بأن إقامة المولد أمان في ذلك العام معتمدا على ما ذكره شمس الدين ابن الجوزي في كتابه «عرف التعريف بما للمولد الشريف»، ويجعل ذلك مدخلا للحديث عن مزايا التعلق بالجناب النبوي حيث جزم اعتمادا على مجموعة من النصوص بشرعية الفرح بمولد النبي صلى الله عليه وسلم وإقامة الولائم بهذه المناسبة¹¹، ثم يعرض إلى بيان مزايا من تعلق بجانبه عليه السلام، ويعرج على ذكر مجموعة من القضايا والكرامات التي وقعت للمحبين للنبي وذريته ومنها قضية سيدي مجبر المدفون خارج باب السبع من فاس العليا، ووقائع قضية بعث أمير تونس مع الإمام ابن مخلوف هدية للروضة الشريفة، وغيرها من القضايا الدالة على حسن الإحسان إلى ذرية النبي صلى الله عليه وسلم.

وفي صفحات مواتية لهذا الفصل يقرر ابن الحاج أن عيد المولد عيد ثالث بعد عيد الفطر وعيد الأضحى، بل يذهب إلى أنه أشرف الأعياد¹²، مستدلا بما قاله العلماء والمتصوفة وأهل الكشف من

10 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، ص. 212.

11 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، ص. 222.

12 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، ص. 251.

أمثال الولي الصالح سيدي عبد العزيز الدباغ، الذي سجل مقولاته العلامة أحمد بن مبارك في كتاب الذهب الإبريز، والشيخ الصوفي ابن عباد في الرسائل الكبرى، والشيخ المفتي أبو العباس أحمد الونشريسي في المعيار المعرب.

وتحت عنوان كبير يسجل ابن الحاج بعض الحجج الدالة على أن إقامة المولد علامة على محبته صلى الله عليه وسلم مستدلاً بأشعار لجدّه شاعر المديح النبوي في العصر السلیماني الشيخ حمدون ابن الحاج، وقصائد لأبي مدين الغوث، وختم ذلك ببعض ما قيل في شمائله صلى الله عليه وسلم بالقرآن والحديث¹³.

ومن ثمة يعرج المؤلف على ذكر بعض الكلام على الشعر وما قيل فيه، واستحسان النبي صلى الله عليه وسلم لما مدح النبي به وأنشد بين يديه وإكرامه عليه، مستهلاً بحديث: « إن في البيان لسحراً، وأن في الشعر لحكمة»، فيستعرض ابن الحاج حسن عارضته في الأدب والشعر، ويورد نواذر ما قيل فيه وفي الأدب، فالشعر يرفع أقواماً، ويضع أقواماً، لذلك اهتم الملوك بقاءه، ويستدل بمجموعة من القضايا التاريخية في ذلك كقضية الإمام ابن الفارض مع السلطان الكامل¹⁴.

- احتفال السلطان مولاي الحسن الأول بالمولد النبوي الشريف:

في فصل يعتبر من أهم فصول هذا الكتاب تحت عنوان: احتفال أمير المؤمنين بهذه الليلة الشريفة¹⁵ يعرض المؤلف إلى تفاصيل دقيقة للاحتفالات التي كان يقيمها السلطان مولاي الحسن بن محمد بن عبد الرحمان، معتمداً على المشاهدة والسمع والمكاتبات التي كان يتلقاها من السلطان، حيث يصف المؤلف كيف يتم الاستعداد قبل حلول هذه الليلة بأيام حيث يتوافد المنشدون وأصحاب الأصوات الحسان من مختلف قواعد المدن المغربية على الحضرة السلطانية، فينزلون حسب طوائفهم في المنازل الخاصة بهم.

وفي ليلة المولد يصدر الأمر المولوي بجمع المشاركين لإحياء هذا الحفل وهم: الشرفاء والعلماء وأهل الخير والصلاح وأصحاب البلاغة والفصاحة ثم الوزراء والكتاب وأهل الديوان وبعض رؤساء الجند وغيرهم من رؤساء المصالح المخزنية، أما مكان الجمع فيكون بالمسجد في القصر الملكي، والوقت المحدد لبداية الحفل هو بعد صلاة العشاء.

13 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، ص. 255.

14 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، ص. 263.

15 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، ص. 299.

ومن مظاهر الاحتفال والطقوس المصاحبة للاحتفال إيقاد المصابيح والشموع، وإسجار المباخر بأنواع عود الطيب والمسك والعنبر. وأما هيئة الجلوس للاحتفال فتكون منظمة من طرف موكل بذلك حيث يجلس المدعون حسب مراتبهم وكل جنس مع جنسه، ويكون مكان جلوس السلطان بالمسجد عن يمين المحراب، فيما يجلس المنشدون في هيئة حسنة أمامه، وتكون البداية في الإنشاد بالبردة والهمزية مخللة بالمقطعات والموشحات وكل ذلك يتم إنشاده بالألحان الجميلة والأصوات العالية، ويستمر ذلك والمنشدون يخرجون من فن إلى فن في السماع عبر ألحان ومقامات معينة إلى منتصف الليل وقرب ختم البردة والهمزية، حيث يقوم السلطان من مقامه ويدخل إلى القصر الملكي، فيتم تقديم أنواع الطعام والشراب والحلوى، فإذا بقيت نحو ساعة لطلوع الفجر رجع المنشدون والحاضرون إلى مواضعهم، ثم يدخل السلطان فيعودون إلى الإنشاد «عند رؤية طلعه السنية مفتحين بأبيات: الأمان الأمان من آخر الهمزية»، وغير ذلك من الأمداح النبوية¹⁶.

وبعد الفراغ مما ذكر يقرر ابن الحاج أن العادة جرت عند ختم هذه الاحتفالات لدى ملوك الإسلام، وضمنهم ملوك الدولة العلوية الشريفة، الذين احتفلوا بهذه الليلة المباركة، بأن يفسحوا المجال لشعراء دولتهم لإنشاد قصائدهم في مدح مولد المصطفى، والإمام ببعض صفاته صلى الله عليه وسلم، ويختمون ذلك بمدح أميرهم: «بما تلبس به من الأوصاف المحمودة السنية، والطريقة الشرعية، والسياسة المرعية»¹⁷، فيتم وصل كل شاعر بأنواع الصلوات، وبضروب الأعطيات. وهذا النهج هو الذي صار عليه السلطان مولاي الحسن، بل زاد في الإنعام والإكرام في هذه الليلة المباركة، لذلك أكثر الشعراء من القصائد في أدب المولد، بل يذكر ابن الحاج أنهم بالغوا في ذلك، لهذا سيكتفي المؤلف بذلك نماذج رائعة من القصائد التي قيلت في حضرة السلطان مولاي الحسن، وأول قصيدة يأتي بنصها كاملاً أنشدت بحضرة السلطان في ليلة المولد النبوي عام أربعة وتسعين ومائتين وألف [1294هـ/1877م]، وهي من إنشاء الفقيه الأديب إدريس بن محمد بن إدريس ابن الحاج العمراوي، وقد أثنى عليه المؤلف ومما قال فيه: «الفقيه الذي أعجزت مفاخره كل ناقل، وعجز عن بلاغته سبحان وائل، من حاز في بحر البديع بحراً، وفي علم البيان والمعاني والقريض بدراً»¹⁸، وقد بلغ عدد أبيات قصيدته 69 بيتاً¹⁹، مطلعها:

16 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، ص. 303

17 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، ص. 303.

18 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، ص. 304.

19 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، من ص. 305 إلى ص. 313.

علامات إضممار المحبة لا تخفى ❀ ونار هوى المحبوب في القلب لا تطفى
وجيش الصبايات المروع للحشا ❀ يكر على صبري فيهزمه زحفا
ثم يثبت المؤلف نص قصيدته التي أنشدت بين يدي السلطان في المناسبة نفسها، وهي ميمية
مخللة بأبيات من البردة، بلغ عدد أبياتها 36 بيتاً²⁰، مطلعها:

نور الهدى قد بدا في العرب والعجم ❀ سعد السعود علا في الحل والحرم
نور السعادة أشرقت مطالعها ❀ من قبل فتق الثرى ورتق مرتكم
وبعد القصيدتين يثبت المؤلف قصائد العام الموالي، وهو عام خمسة وتسعين ومائتين وألف
[1295هـ/1878م]، وقد احتفل به السلطان في مدينة مراكش، وأولها توشيح الكاتب الفقيه ابن إدريس
السابق الذكر: وهو في 107 من الأبيات²¹، مطلعها:

يا حاديا يقطع السباب ❀ ينشد طبعاً من النسب
استدم السير في الغياهب ❀ لا تخش من حادث مهيب
سق المطايا تلق المزايا ❀ واطو فيافي البعاد طي
حتى ترى النوق كالحنايا ❀ وارب بها نحو أرض طي
نعم وحاذر وقع المنايا ❀ إن جزت نحو الحمى بحي
والقصيدة الثانية همزية للمؤلف بالمناسبة نفسها عدد أبياتها 39 بيتاً²²، ومطلعها:

معشر المسلمين حق الهناء ❀ وتوالى السرور والعلواء
طلع المصطفى هلال سماء ❀ وعليه من الإله الرضاء

وبعد ذلك يكتفي المؤلف بإثبات قصيدة واحدة مما أنشد من القصائد عام ستة وتسعين
ومائتين وألف [1296هـ/1879م] بين يدي السلطان مولاي الحسن وهو مقيم بمراكش، وهي قصيدة
نونية عدد أبياتها 76 بيتاً²³، من إنشاء الفقيه الكاتب ابن إدريس السابق الذكر مطلعها:

أكاتم أنت أم هواك إعلان ❀ وهل يفيد الهوى العذري كتمان
وكيف يكتم من باحت مدامعه ❀ وفي العيون على الأحشاء عنوان

20 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، من ص. 314 إلى ص. 318.

21 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، من ص. 318 إلى ص. 325.

22 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، من ص. 325 إلى ص. 328.

23 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، من ص. 328 إلى ص. 336.

ويفيدنا المؤلف بأن السلطان مولاي الحسن أقام حفلة المولد النبوي بمدينة فاس في عام سبعة وتسعين ومائة وألف [1297هـ/1880م]، وأنشدت بين يديه قصائد بالمناسبة، وضمنها قصيدة ميمية للمؤلف²⁴، عدد أبياتها 34 بيتا، ومطلعها:

بشرى بمولد خير العرب والعجم ❁ بشرى بأحمد طه المفرد العلم
بشرى لنا نشر الرحمن رحمته ❁ بمولد المصطفى ماحي دجى الغشم

وفي السنة الموالية وهي عام ثمانية وتسعين ومائتين وألف [1298هـ/1881م]، حل السلطان مولاي الحسن بمدينة مكناسة الزيتون، وتم الاحتفال بليلة المولد النبوي في العاصمة الإسماعيلية، وقد أنشأت كثير من القصائد، وأنشد بعضها عند تمام البردة والهمزية قرب طلوع الفجر. وأولها كانت قصيدة دالية عدد أبياتها 92 بيتا²⁵، للفقير العلامة عبد الواحد بن محمد ابن المواز التي مطلعها:

شدت سحرا ورقاء شدو تغرد ❁ فأحيت شجا وجدي وأفنت تجلدي
فبالله يا ورقاء مالك رعتني ❁ وأكمدتني من شجوك المتردد

أما القصيدة الثانية فهي للعلامة الفقيه الكاتب سيدي محمد بن أحمد الصنهاجي، وقد أثنى عليه ابن الحاج باعتباره أدبيا ماهرا، وأثبت نص قصيدته الميمية التي بلغ عدد أبياتها 55 بيتا²⁶، ومطلعها:

شوقي إلى نجد ومن بتهام ❁ وإلى العقيق أحن شعب خيام
وإلى ربا تلك المعالي ألوذ من ❁ شوق تزايد باشتعال غرام

أما القصيدة الثالثة فكانت من إنشاء الفقيه الكاتب الشريف مولاي أحمد بن العربي العلوي البلغيثي، أثنى عليه ابن الحاج وذكر محاسنه باعتباره كاتباً للحضرة السلطانية، وأثبت نص قصيدته التائية في 67 بيتا²⁷، مطلعها:

طاب السرور بأسعد الأوقات ❁ فاشرب كؤوس السكر باللذات
وأصنع سماعك للمديح وسرده ❁ بترنم الألحان والنغمات

24 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، من ص. 336 إلى ص. 340.

25 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، من ص. 341 إلى ص. 353.

26 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، من ص. 353 إلى ص. 360.

27 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، من ص. 360 إلى ص. 368.

أما القصيدة الرابعة فكانت للكاتب المخزني سيدي محمد بن المعطي المسطاري، وهي رائية في
27 بيتاً²⁸، مطلعها:

بدا طالع الإقبال في أفق البشرى ❁ فعمت وجوه الخلق أنواره بشرا
ووافى سفير السعد ينبي عن العلا ❁ حديثا رواه الفرقدان عن الشعرا
أما الخامسة فمن إنشاء المؤلف أحمد ابن الحاج، تائية من 56 بيتاً²⁹، مطلعها:
هنيئا لك البشرى بنجم الهداية ❁ وبالعزيز والإقبال في كل لحظة
هنيئا فقطب السعد قد لاح طالعا ❁ بنصر وتمكين ويمن وبغية

وكانت القصيدة السادسة من إنشاء الفقيه الشريف العلامة الأديب سيدي الفاطمي بن
الحسين الصقلي، برائية طويلة مكونة من 89 بيتاً، تدل على طول نفس هذا الشاعر³⁰، مطلعها:

ضحك الربيع بمبسم النوار ❁ إذهنأته بوارق الأنوار
وأتى النسيم مجرراً أذياه ❁ تيهها يدوس عمائم الأشجار

أما القصيدة السابعة التي أثبت أبياتها ابن الحاج في مؤلفه هذا في المولد النبوي وما قيل فيه في
سنة 1298هـ، والسلطان مقيم بمدينة مكناس فكانت من إنشاء الفقيه العدل سيدي التهامي المزوار
المكناسي، قال عنه ابن الحاج في تصدير قصيدته: «الفقيه الأديب الماهر، الحائز قصبة السبق في
الفصاحة والبلاغة الناظم الناثر»، وهي قصيدة دالية من 30 بيتاً³¹، مطلعها:

أهذه السعادة قد مدت إليك يدا ❁ والوصل أنجز عزم ما به قد وعدا
أم هذه نفحت الأحاب قد وفدت ❁ من نحو ليلي، وهذا عطفها وفدا

وكانت القصيدة الثامنة عبارة عن موشحة من إنشاء الفقيه الأديب الهاشمي بن عبد الله طوبي
السللاوي، عدد أبياتها التي أوردتها بنصها المؤلف في 47 بيتاً³²، ومطلعها:

28 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، من ص. 369 إلى ص. 372.

29 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، من ص. 372 إلى ص. 378.

30 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، من ص. 378 إلى ص. 389.

31 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، من ص. 390 إلى ص. 393.

32 - ابن الحاج، ذكر ليلة المولد، من ص. 394 إلى ص. 397.

هل طالع اليمن في المعال ❁ أم هالة البدر في الكمال
قد أسفرت غرة الليالي ❁ تفترعن باسم اللثالي

أما القصيدة التاسعة فهي من إنشاء الفقيه الأديب الأريب السيد علال بن أحمد بن شقرون،
وقد حلاه ابن الحاج بقوله: «من بنى في الفصاحة حللا، وأبدى درر ذلك مفصلا ومجملا» وأورد
نص قصيدته النونية في 51 بيتا، مطلعها:

شمس الربيع بدت من حي عدنان ❁ في مولد حسن يسمو بتبيان
من مشرق يمت غربا تذكرني ❁ نجدا وهب نسيم النجد والبان

وكانت خاتمة ما وقفنا عليه في هذا الكتاب المخطوط هي القصيدة العاشرة التي أنشأت بهذه
المناسبة، من قبل الفقيه الأديب سيدي محمد بناني وهي رائية في 40 بيتا أما مطلعها:

طلعت شمس المعالي في الحمل ❁ بتباشير ربيع قد قفل
وأتى العرف لروض بالهنا ❁ بورود الورد في برد الحجل

خاتمة:

نستنتج من خلال مؤلف أحمد ابن الحاج أهمية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف عبر الدول
المتعاقبة على المغرب ويركز على عصر الدولة العلوية الشريفة، لكن مشاهداته ومعاصرته للسلطان
مولاي الحسن كانت أكثر أهمية لأنه سجل تفاصيل مهمة من طقوس الاحتفالات بالمولد النبوي
والمشاركين فيه والشعراء الذين عاصروا هذا السلطان العظيم وساهموا في تنشيط الحركة الأدبية،
وأبانوا عن نفس كبير في أدب المولديات، وإن قصائدهم لتعبر عن طول باعهم في هذا المجال، فهم
فرسان القوافي، خصوصا عندما يتعلق الأمر بمحبة النبي صلى الله عليه وسلم والتعلق بجنابه
والاحتفال بمولده، ولعل الوقت يسعفنا فيما هو آت لنشر هذا الكتاب المخطوط للكشف عن
جوانب من احتفال ملوك الدولة العلوية الشريفة بليلة المولد الشريف.

ملحق نماذج من صفحات المخطوط

الصفحة الأولى والثانية من الكتاب المخطوط
«ذكر ليلة المولد النبوي الشريف وعادة أسلاف أمير المؤمنين فيها وأول من فعلها»
لأحمد بن محمد ابن الحاج السلمي



من صفحات المخطوط وفيها بداية الحديث عن احتفال السلطان مولاي الحسن بليلة المولد النبوي الشريف



محبة النبي صلى الله عليه وسلم والاحتفال بمولده عند الموريسكيين

د. عبد الرزاق وورقية
جامعة سيدي محمد بن عبد الله،
فاس

مقدمة:

يعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم الأحداث الفاصلة في التاريخ البشري، بوصفه السراج المنير الذي أنار ظلمات الجهل، ومهد المحجة البيضاء الناصعة، إذ عند ولادته عليه الصلاة والسلام، سطع نور الحق، وأشرقت الأرض، فكان مولده بشارة عهد جديد في مسار البشرية، فمن ثم لم ينس المسلمون، أينما كانوا في العالم، ذلك الحدث العظيم، فاتخذوا تاريخه ذكرى لاستحضار ما رافقه من أنوار الوحي، وقيم سامية، ومقاصد جليلة، وشمائل حميدة تعلق بها الناس للخروج من جاهلية جهلاء تسودها الوثنية، والظلم والشرك... إلى رحابة الإسلام الحنيف السمح، ويعد المغاربة والأندلسيون من أشد المسلمين تعلقاً بالنبي صلى الله عليه وسلم عبر التاريخ، وتجلي ذلك في اعتنائهم بسيرته صلى الله عليه وسلم وشمائله، وقد امتد هذا التجلي إلى ضروب الفنون الأخرى كالآدب والشعر، واتخذت ليلة مولده صلى الله عليه وسلم موعداً للتعبير عن حب النبي صلى الله عليه وسلم واستحضار شمائله، وخصاله، حتى ترسخت عند المغاربة والأندلسيين ذكرى المولد النبوي، بوصفها المناسبة السعيدة التي تذكروهم ببزوغ فجر النبوة، والهداية.

وما زال الأندلسيون متمسكين بإحياء هذه المناسبة المولدية ولا سيما في المرحلة الأخيرة من دولة المسلمين بالأندلس، ولما سقطت غرناطة، وذهب مجدها، تمسك من تبقى منهم في تلك الديار بالذكرى السعيدة، حيث تم إدراج المولد النبوي ضمن الأعياد الخاصة بالموريسكيين، يتذكرون بها هويتهم الحضارية ودينهم الأصلي.

ونظراً لقلّة ما نشر عن عناية الموريسكيين بذكرى المولد النبوي، ارتأيت أن أسهم بهذا المقال محاولاً الكشف عن بعض جوانب اعتناء هؤلاء المسلمين بنبيهم صلى الله عليه وسلم رغم ما واجهوه

من الاضطهاد والمتابعة من قبل محاكم التفتيش، وسأبسط بعض ما تحصل لي في ذلك - بعد البحث - عبر الفقرات الآتية:

1. مبدأ احتفال الأندلسيين والمغاربة بالمولد النبوي عموماً:

لم يكن الاعتناء بشمائل النبي صلى الله عليه وسلم، مقصوراً على يوم مولده عليه الصلاة والسلام، وإنما كانت جميع المناسبات الدينية والاجتماعية - عبر القرون الماضية - مجالاً لتذكر واستحضار أخلاقه صلى الله عليه وسلم والتعبير عنها عبر المديح، أو قراءة كتب في السيرة والشمائل، وقد استمر الأمر على هذا النهج عند أهل المغرب والأندلس إلى غاية القرن السابع الهجري، حيث ضعفت الدولة الأندلسية، واحتك سكانها بالنصارى ونقلوا عنهم الاحتفال بمناسبات مسيحية، كاحتفال بميلاد عيسى عليه السلام، وميلاد نبي الله يحيى عليه السلام (العنصرة)، وتبادل الهدايا، وإطعام الطعام، والتوقف عن العمل في تلك الأيام... على شاكلة النصارى¹، ولما لاحظ ذلك قاضي سبتة أبو العباس العزفي (ت 633هـ)، خشي ضياع هوية المسلمين، ففكر في ترسيخ مناسبات احتفالية بديلة تليق بأهل الإسلام، وأصدر قراراً يرسم الاحتفال بميلاد النبي صلى الله عليه وسلم، كما ألف كتاباً في الموضوع، سماه كما هو معلوم، " الدر المنظم في مولد النبي المعظم " ووافته المنية قبل إتمامه، وأتمه ابنه الأمير الفقيه أبو القاسم العزفي (ت 677هـ)، وترسخ منذ ذلك الوقت الاحتفال بالمولد النبوي، في الثاني عشر من ربيع الأول من كل عام، في إمارة سبتة وانتقل منها إلى الأندلس والمغرب، بدعم من الأمير الموحد أبي حفص المرتضى كما أورد ذلك ابن عذارى في كتابه: " البيان المغرب " حيث ذكر أن هذا الأمير " كان يقوم بليلة المولد خير قيام، ويفيض فيه الخير والإنعام، وكان أشار له بذلك الفقيه أبو القاسم العزفي، لأنه لما ألف كتابه: " الدر المنظم في مولد النبي المعظم " بعث به إليه وأشار بذلك الرأي عليه"².

ومنذئذ انطلقت حركة التأليف في المولديات، حيث كان المغاربة والأندلسيون قبل ذلك يؤلفون في السيرة والشمائل عموماً، ولكن لما تقرر ذكرى المولد النبوي وانتشر الاحتفال بها، سارع المؤلفون إلى التأليف فيما له صلة مباشرة بمولده ومدحه صلى الله عليه وسلم، وفي هذا السياق

1 - ينظر المقال النفيس للباحثة الإسبانية: Bárbara BOLOIX GALLARDO:

Las primeras celebraciones del Mawlid en al-Andalus y Ceuta, Anaquel de Estudios Árabes 2011, vol. 22 79-96.

2 - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، ابن عذارى المراكشي، تحقيق مجموعة من الأساتذة، ط 1، 1985، دار الثقافة، البيضاء، المغرب: 446.

ألف الفقيه أبو محمد ابن القطان كتابه: "المسموعات" للأمير الموحي المرتضى، وضمنه قصائد متخيرات فيما يخص المولد الكريم.³

وفي الأندلس كان أهل التصوف يحيون ليلة المولد بذكر الشمائل المحمدية والسماع، وقيمون مآدب الاحتفال ويزينونها بجميع أنواع الطعام والحلوى فرحا بذكرى مولده صلى الله عليه وسلم، ولعل من أبرز شيوخ التصوف الذين سنوا هذا الصنيع، الشيخ أبا مروان عبد الملك الجوهانسي⁴ الألميري⁵ حيث ذكر صاحب المقصد الشريف أنه كان "يصنع ليلة المولد طعاما للفقراء يأكلونه، وكان طعامه الكعك والعسل، ويحضر تلك الليلة الفقراء والمحبون يعمل فيها السماع"⁶.

أما في المغرب فقد أورد المقرئ في نفح الطيب أن الشيخ ابن عباد الرندي (ت792هـ) خطيب القرويين في زمانه - وهو تلميذ الشيخ أبي مروان - كان يحضر حفل المولد مع السلطان⁷، وأنه ترك مدونة متضمنة لبعض ما يتعلق بالمولد النبوي الشريف كانت تقرأ "بين يدي السلطان تبركا بها، وكانوا يقرأونها في المجتمعات في المواسم، كأول رجب، وشعبان ونصفهما، والسابع والعشرين منها، كرمضان"⁸.

هكذا رسخ الفقهاء وأهل التصوف الاحتفال بالمولد الشريف، حتى أصبح ذكرى مقررة، تحتفل بها جميع فئات المجتمع، في الأندلس والمغرب، والظاهر أنهم تجاوزوا إشكال المشروعية، وذلك لأنهم - في أغلبهم - لم يروا في ذلك خروجاً عن السنة أو الشرع، بل رأوا فيه مناسبة سعيدة مشروعة إذا كان القصد منها هو التذكير بسنن المصطفى صلى الله عليه وسلم، وشمائله.

2. الاحتفال بالمولد النبوي في مملكة غرناطة النصرية:

قبل الحديث عن المولد النبوي عند الموريسكيين، لا بد من التطرق لهذه الذكرى في غرناطة على عهد الدولة النصرية أي قبل السقوط بقليل، فبعد أن تقرر الاحتفال بالمولد في الأندلس، وأصبح

3 - البيان المغرب، قسم الموحدين: 446.

4 - نسبة إلى جوهانس، Ohanes، قرية بنواحي مدينة ألميريا تبعد عنها بحوالي 52 كلم، بالأندلس، الجنوب الشرقي لإسبانيا الحالية.

5 - ويعد الشيخ أبو مروان من شيوخ ابن عباد الرندي الأندلسي الفاسي (ت792هـ). ينظر نفح الطيب للمقرئ: 341/5-342. وتنظر ترجمته الكاملة في "المقصد الشريف في التعريف بصلحاء الريف"، عبد الحق بن إسماعيل البادسي، تحقيق سعيد أعراب، ط2، 1993، المطبعة الملكية الرباط: 100-101، وأيضا في "تحفة المغرب ببلاد المغرب لكرامات الشيخ أبي مروان" للقسطالي الأندلسي، تحقيق المستعرب الإسباني: فيرناندو دي لا كرانخا، ط 1974، المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد.

6 - المقصد الشريف: 100.

7 - نفح الطيب: 344/5.

8 - نفح الطيب: 350/5.

ذكرى دينية واجتماعية عامة، تطور الاعتناء بها لتصبح مناسبة رسمية يرعى السلطان الاحتفال بها ويدعمه، بل ويجعل من ليلة المولد الشريف ليلة مشهودة، يدعو إليها الأعيان والفقهاء والقضاة والأدباء، ويقيم مأدبة متنوعة من المأكول والمشرب، يتخللها السماع، وسرد الشمائل المحمدية، والشعر المولدي... وقد ترسم هذا الاحتفال في الأندلس، بأمر من السلطان أبي الحجاج يوسف الأول (733-755هـ)، وبهذه المناسبة أهدى له لسان الدين بن الخطيب قصيدة شعرية من نظمه، وبعد ذلك تطور الاحتفال بيوم المولد وليلته، وأخذ بعدا أوسع على يد السلطان النصري محمد الخامس الغني بالله (755-760هـ) مقتديا في ذلك بسلاطين المغرب، ومستجيبا لرغبة المجتمع الأندلسي في إحياء ذكرى مولد النبي الكريم عليه الصلاة والسلام.

وقد استمرت العناية بذكرى المولد النبوي عند الغرناطيين حتى تحولت إلى "عيد ثالث" بعد العيدين المنصوص عليهما: الأضحى والفطر، تقام فيه الاحتفالات على شكل مهرجانات شعبية، تتوسطها الليلة المولدية المشهودة عندهم، فبعد الاستعداد لباسا وزينة، تفتتح مراسيم الاحتفال في المساجد بقراءة القرآن الكريم، وأحاديث الشمائل المحمدية، ثم يتلوها المديح والسماع، يتخللها تناول بعض أنواع الحلويات الخاصة، وتختتم بالصلاة على النبي الكريم، والدعاء بطلب شفاعته. هذا المشهد كان يقام أيضا في الزوايا والربط، وبعض دور الأعيان⁹...

وكانت تستثمر أيضا ذكرى المولد النبوي في غرناطة لأجل إطعام الفقراء والمساكين، وجمع التبرعات والصدقات، وتوزيعها على المحتاجين¹⁰.

3. المولد النبوي عند الموريسكيين بعد سقوط غرناطة:

يطلق لفظ "الموريسكيين" Los Moriscos على المسلمين الباقين في مدن الأندلس تحت حكم النصارى بعد استيلاء المسيحيين عليها، ويدخل تحت هذا المسمى فئتان من المسلمين، بغض النظر عن أعراقهم:

الفئة الأولى: وتضم الذين كانوا يعيشون في مدن الأندلس التي آلت إلى حكم النصارى قبل سقوط مملكة غرناطة بأمد طويل، كبلنسية وسرقسطة وطليطلة وغيرها، وهم الذين أطلق عليهم الفقهاء: "المدجنون" Les Mudejares أو أهل الدجن.

9 - كما سبق مع الشيخ الصوفي أبي مروان عبد الملك الجوهانسي الذي كان يحتفل بليلة المولد في داره.

10 - Bárbara BOLOIX GALLARDO, Las primeras celebraciones del Mawlid en al-Andalus y Ceuta, Anaquel de Estudios Árabes 2011, vol. 22, p89.

الفئة الثانية: وتضم المسلمين الذين فضلوا البقاء في مملكة غرناطة بعد سقوطها في يد النصارى سنة 1492م، معتمدين على معاهدة الاستسلام التي تضمن لهم - على الأقل كتابيا - حقوقهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية...¹¹، والتي سرعان ما تم نقضها من قبل الملوك الكاثوليك، حيث أصدروا قرارات تصادر حقوقهم وتكرههم على التنصر، وفي الأخير تقضي بطردهم من إسبانيا.

هؤلاء المسلمون حاولوا بشتى الطرق والوسائل التمسك بدينهم وبهويتهم الحضارية، ومن تجليات ذلك احتفالهم بالأعياد والذكرى الإسلامية، ومنها مولد النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد أدرج الموريسكيون ليلة ويوم المولد النبوي ضمن الأيام الفاضلة، وهذا ما تؤكد الوثائق والمخطوطات الراجعة إلى القرن السادس عشر الميلادي قبل صدور قرار الطرد، حيث جاء في كتاب "إلمانشيو ذي أريبالو"¹² El Mancebo de Arévalo: "يسمى الشهر القمري الثالث ربيع الأول، والثاني عشر من هذا الشهر هو يوم مشهود جدا، لأنه في هذا اليوم ولد نبينا وهو يوم السرور الأعظم، وفيه يصلي المسلمون على النبي محمد"¹³ عليه الصلاة والسلام.

4. تمسك الموريسكيين بحب النبي صلى الله عليه وسلم وتعظيمه:

تبعا لما درج عليه الأندلسيون من تتبع الشرائع الحمديّة بالتأليف والمديح والقراءة والاعتداء، سار الموريسكيون على النهج نفسه، بالرغم من الاضطهاد المسيحي فإنهم أبدعوا أدبا مولديا خاصا يستحق الدراسة، ومن ذلك الشعر المولدي الموريسكي، المكتوب باللغة الألفامية Aljamia، وقد تطرق مجموعة من الدارسين المختصين لهذه الظاهرة بالوصف والتحليل، وكشفوا عن مجموعة من الروائع الشعرية في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك قصائد موريسكية كتبت في المرحلة الممتدة بين 1500م و1614م¹⁴ نورد مقاطع منها، والملاحظ أنها ليست على وزن الشعر العربي لأنها مترجمة عن القشتالية.

11 - هذه الحقوق منصوص عليها في بنود معاهدة الاستسلام، ومنها حقهم في أداء شعائهم الدينية، وحقهم في ممارسة عاداتهم، ومنها حق التقاضي أمام قضائهم... ينظر:

- Garrida Atienza, Miguel, Las capitulaciones para la entrega de Granada, Granada 1910:p273.

- Isabelle Poutrin, Los derechos de los vencidos: las capitulaciones de Granada, Sharq al-Andalus, 19, Teruel - Alicante, (2008-2010), pp. 11-34.

12 - الكتاب عبارة عن مخطوط موريسكي يرجع إلى القرن السادس عشر، عثر عليه في مدينة أريبالو القريبة من قشتالية وليون وسط إسبانيا، والكتاب مكتوب باللغة الألفامية ويتضمن مجموعة مبوبة من الأحكام الفقهية، وتعاليم الدين الإسلامي. ومن ضمنها الأيام والأعياد الفاضلة.

13 - Luis F. Bernabe, El calendario musulman del Mancebo de Arévalo, Revista: Sharq Al-Andalus, 16-17 (1999-2002), p 257.

14 - Anwar Chejne, Islam and the West: The Moriscos, a Cultural and Social History [Albany: State University of New York Press, 1983], pp. 150-166)

القصيدة الأولى جاء في مطلعها:

يا حبيبي يا محمد ❁ والصلاة على محمد
بعد شكر ربي تعالى ❁ أقدم سلامي وصلاتي للنبي الشريف
صلاتي وسلامي الدائمين على نبينا محمد
والقصيدة الثانية، جاء في لازمتها الأولى:

يا الله يا ربي ❁ يا محمد يا هادي
يا النبي حقا ❁ العربي من العرب

والقصيدتان في أغلب أبياتهما مليئتان بذكر النبي صلى الله عليه وسلم، والتعبير عن الشوق إليه، والاستغاثة به، والتوسل إليه، وهذا لربما يعكس أمرين: أولهما إحساسهما بالغربة الدينية والحضارية في ديارهم الخاضعة لمحاكم التفتيش، التي تحقق في مدى تخليهم عن دينهم، فأصبح ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عندهم يأخذ أبعادا مرتبطة بالهوية، ومغايرة النصراني الغالب.

الأمر الثاني: محاولة مضاهاة النصارى في صنيعهم بالنبي عيسى عليه السلام وزعمهم محبته واتباعه، فالموريسكي في ذكره للرسول صلى الله عليه وسلم تأكيد على تمسكه بهويته وبنبيه، وإصراره على ذلك، مهما واجه من الأهوال، كالقتل والحرق والتعذيب.

وهذه الأشعار كثيرة في المخطوطات الأخرامية، وتدل كتابتها في كتب وحفظها في مخطوطات على قصدهم في نقل مضامينها الروحية إلى الأجيال اللاحقة، حيث كانت تقرأ وتُنشد في المناسبات الدينية ومنها المولد النبوي الشريف.

وهنا لا بد من الإشارة إلى الشاعر الموريسكي الكبير محمد ربضان Mohammed Rabadan صاحب كتاب: خطاب النور Discurso de la luz، في السيرة النبوية، ومؤلف أكبر ديوان شعري في عقائد الإسلام وشرائعه¹⁵.

5. ترجمة كتب الشرائع النبوية إلى الأخرامية:

من مظاهر محبته صلى الله عليه وسلم عند الموريسكيين اعتناؤهم بترجمة كتب الشرائع والسيرة المحمدية، ولعل من الكتب الشهيرة التي لقيت عناية بالغة من قبلهم: "كتاب الأنوار ومفتاح

15 - Miguel Angel Vazquez, Memoria de los moriscos : 217-218.

السُرور والأفكار" لأبي الحسن البكري¹⁶، الشهير بـ Libro de las luces، حيث تُرجم إلى اللغة الألفانية¹⁷ لتسهيل قراءته، وتوجد نسخة منه في المكتبة الوطنية بمدريد، (149 ورقة، المسطرة: 14/17)، تحت رقم MSS/4955 بخط مغربي¹⁸، ولكن باللغة القشتالية. ويشكل هذا الكتاب مصدر الموريسكيين الرئيس في نظرتهم إلى السيرة النبوية، وعلاقة النبي صلى الله عليه وسلم بمن سبقه من الأنبياء من لدن آدم عليه السلام، باعتبار أن الأنبياء السابقين قد تلقوا النور الإلهي، ونقلوه نبياً بعد نبي إلى خاتمهم صلى الله عليه وسلم، ومعلوم أن أبا الحسن البكري كان قد ألف كتاب الأنوار هذا، في القرن السابع الهجري بغرض إحياء روح الإيمان بين المسلمين في ذكر المولد النبوي، ولكن الموريسكيين لم يتوقفوا عند هذا الغرض، وإنما جعلوا من الكتاب وسيلة للحفاظ على الانتساب الروحي والحضاري باعتبارهم ورثة لنور الأنبياء وفي خاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام، كما أنهم اتخذوه سلاحاً يقاومون به حملات التطهير والإبادة الدينية التي كانوا يتعرضون لها من قبل محاكم التفتيش¹⁹.

6. أوقاف المولد النبوي

لشدة اعتناء الأندلسيين بالاحتفال بالمولد النبوي، خصصوا له أوقافاً تسمى: حُجُس المولد "Habus Mulud"، كما أورد ذلك الباحث الإسباني مانويل مورينو عند دراسته لسجلات أحباس منطقة "البشرات" Alpujarras²⁰، ويظهر أن مداخيلها كانت تصرف وفق إرادة الواقف أي على تمويل احتفالات ليلة المولد من مأكّل ومشرب وحلويات وسماع...

7. الاحتفال بالمولد النبوي من العلن إلى السرية:

نصت معاهدة الاستسلام كما سبق الذكر على حفظ حقوق المسلمين الدينية والثقافية والاقتصادية، ولكن لما أحكم الملوك الكاثوليك قبضتهم على جميع مدن الأندلس تم التراجع عن تلك العهود، وهذا لربما ما يفسر انتقال الموريسكيين في ممارسة عباداتهم وعاداتهم من العلن إلى

16 - Libro de las luces y llave de las alegrías y de los pensamientos.

17 - أو ألخامبادوس Aljamiados، وتعني القشتالية المكتوبة بالحروف العربية، والتي كانت مستعملة من قبل الموريسكيين، في التأليف، والتعليم...

18 - تنظر الصورة من الورقة الأولى منه في آخر المقال.

19 - ينظر:

MARÍA LUISA LUGO ACEVEDO, Libro de las luces, Memoria de los moriscos: 206-208.

20 - Espinar Moreno, Manuel, Estructura económica de la Alpujarras, Los libros de habices, tesis doctoral, Universidad de Granada, 1980: Tom1, p403.

السرية، ففي بداية الأمر كانت لدى الأندلسيين الحرية في ممارسة الشعائر الإسلامية بشكل علني، كالآذان وصلاة العيدين، والاحتفالات بالأعياد والذكريات، ففي هذا السياق كان الاحتفال بالمولد النبوي يأخذ شكل مهرجان شعبي علني يشارك فيه الرجال والنساء والأطفال، لابسين أبهى ما عندهم من اللباس، ويتم إحياء ليلة المولد في المساجد والبيوت بالأمداح والسماع، وقراءة كتاب الأنوار، إضافة إلى ما يحف هذه المناسبة من مأكّل ومشرب وتوزيع للحلوى كل ذلك فرحا بالنبي صلى الله عليه وسلم.

ولكن لما بدأت محاكم التفتيش عملها، تم إكراه المسلمين على التنصر، وقامت هذه المحاكم بمتابعة كل من أظهر ما يوحي ببقائه على الإسلام، أصبح الاحتفال بالأعياد والذكريات الإسلامية ممنوعا تحت طائلة المحاكمة، حيث قال أحد الدارسين للمرحلة: "إن احتفال الموريسكيين بأعيادهم غالبا ما كانت تنتهي بمحاكمة من قبل محاكم التفتيش"²¹.

بالرغم من المنع الذي طال احتفالات الموريسكيين بأعيادهم فلم يؤثر ذلك على تمسكهم بالاحتفال بالمولد النبوي ولكن على طريقتهم الخاصة، حيث كانوا يجتمعون في بيوت خاصة، بعيدا عن أعين مفتشي المحاكم، ويقرأون كتب الشائيل المحمدية، ويدرسون سيرته صلى الله عليه وسلم، ويعلمونها أبناءهم ولو بلغة غير اللغة العربية، وفي سياق يغمره الخوف، ويطنبه الكتمان، وانعدام الحرية في التعبير عن عقائدهم.

خاتمة:

وختاما أقول: إنني حاولت كشف اللثام عن جزء من مظاهر ممارسة الموريسكيين لعباداتهم وعاداتهم، في ظل اضطهاد محاكم التفتيش، وذلك عبر التطرق لاحتفالهم بالمولد النبوي الشريف، ولتمسكهم بمحبة النبي صلى الله عليه وسلم، وتبين أن الموضوع على قدر كبير من الأهمية، حيث إن كثيرا من مظاهر تدينهم ما زالت مجهولة عندنا، وإن كانت مروية في أغلبها في الكتب الموريسكية المكتوبة باللغة الألفامية، إلا أن جل هذه الكتب لم ينشر ولم يترجم ولم يكشف عن مضامينه بعد، فالمعول على الباحثين المتخصصين الجادين للاشتغال على هذا التراث النفيس الذي يشكل مشتركا ثقافيا بين المغرب وإسبانيا، ويمكن أن يساهم في تتين العلاقات الثقافية والحضرية بين البلدين الجارين، بل بين صفتي المتوسط.

21 - Jacqueline Fournel Guérin, Fiestas profanas y diversiones de la comunidad morisca aragonesa, Nueva Revista de Filología Hispánica, Published by: El Colegio De Mexico, T. 30, No. 2 (1981), pp. 630-637.

ملحق: صورة للورقة الأولى والثانية من كتاب الأنوار المكتوب باللغة الألفابية، محفوظ
بالمكتبة الوطنية بمدريد، تحت رقم: MSS/4955.



المولد النبوي فرصة لتجديد التعلق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم

د. عبد الله شريف وزاني
أستاذ باحث في الفكر الإسلامي،
الدار البيضاء

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي الأمين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد، فإن من نعم الله علينا أن هدانا للإسلام، ومن كمال فضله سبحانه أن جعلنا من أتباع وأحباب نبي السلام سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ فقد بُني الإسلام على أركان عظيمة ومبادئ منيفة، ومنها ركن الولاء والبراء والمحبة في الله والبغض فيه، ألا وإن من أسمى مظاهر الحب بل من أشده وجوبا حب الله وحب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، أما حب الله تعالى فلما يغدو به الخلق من النعم وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها، وأما حب رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فلحب الله له، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم مشروطا حبه لكمال الإيمان: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه وماله وولده ووالده والناس أجمعين".

وقد تعددت مظاهر حب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتكاثرت أشكالها وأهمها تعظيمه عليه الصلاة والسلام وتوقيره، ثم اتباع طريقته وانتهاج نهجه؛ ومن المظاهر التي ورثها خلف الأمة وسلفها لبيان تعلق قلوبهم بنبيهم الكريم الاحتفال والاستبشار بيوم مولده الشريف خاصة في زمان تكالب أعداء الإسلام على نبي الإسلام وتفاقت خطورة إهمال أجيال الإسلام لمقام نبي الإسلام، فكان الحكم قديما يتردد بين الجواز والاستحباب، فصار اليوم يتردد بين الاستحباب والوجوب لما أن الأمور في الشريعة بمقاصدها.

- وجوب التعلق بالجناب الأحدي

إن التعلق بالجناب المحمدي وإيثار حبه صلى الله عليه وآله وسلم على حب النفس والأهل والمال من دلائل الإيمان وبراهين صدق الإذعان، بل إن محبة كافة الأنبياء فرض ومحبة النبي سيدنا

محمد عليه الصلاة والسلام فريضة، أكد من الله تعالى علينا كباقي الفرائض لا فرق بينها وبين الفرائض الأخرى، ودليلنا على ذلك: قول الله عز وجل ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ¹، وأما حديث النبي الذي يرويه البخاري ومسلم وسواهما فهو دليل أيضاً على أن محبة النبي فريضة يجب أن نتذكرها وأن نعي فيها إذا كنا نقوم بها، هذا الحديث يقول فيه صلى الله عليه وآله وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده ومن الناس أجمعين" هذا مستند الفريضة.

ويروى أن ثوبان رضي الله عنه وأرضاه، جاء مرة إلى النبي عليه وآله الصلاة والسلام فقال: "يا رسول الله! والله إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من ولدي، وإني لأذكرك في بيتي فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك، وإني لأتذكر موتي وموتك فأقول: إنك في الجنة مع النبيين، وأني في مكان آخر، فأبكي خشية أن لا أراك بعد الممات" فلم يرد عليه النبي عليه وآله الصلاة والسلام بل نزل جبريل عليه السلام بقوله تعالى على قلب النبي محمد عليه وآله الصلاة والسلام ﴿وَمَنْ يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشَّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا² فتبسم ثوبان واطمأن إلى أنه سيلقى النبي حتى بعد الممات لأن المرء مع من أحب.

إن محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكافأة يمنحها الله عز وجل كل من أثر الله ورسوله على هواه. فيحس أن للإيمان حلاوة تتضاءل معه كل اللذات الأرضية، ولأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره فكلما ازداد العبد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حباً كلما ازداد له ذكراً ولأحاديثه ترديداً ولسنته اتباعاً ومع كل هذا يذوق حلاوة الإيمان.

والله ما طلعت شمس ولا غربت ❀ إلا وأنت مني قلبي ووسواسي
ولا جلست إلى قوم أحدثهم إلا ❀ وأنت حديثي بين جلاسي
ولا هممت بشرب الماء من عطش ❀ إلا رأيت خيلاً منك في الكاس

يقول نافع: نظرت إلى ابن عمر إذا اتبع سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في كل مكان صلى فيه، حتى أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم نزل تحت شجرة فكان ابن عمر يتعاهد تلك الشجرة فيصب في أصلها الماء كي لا تيبس³.

1 - سورة التوبة، الآية: 24.

2 - سورة النساء، الآية: 69.

3 - أخرجه ابن حبان في صحيحه، رقم الحديث 7231.

أما عمرو بن العاص فيقول: ما كان أحد أحب إلي من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ولا أجل في عيني منه وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، حتى لو قيل لي: صفه ما استطعت أن أصفه !! أما علي بن أبي طالب حين سئل: كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا وأحب إلينا من الماء البارد على الظمأ.

وهذا زيد بن الدثنة وقد كان من أهل مكة قد أخرجوه من الحرم ليقتلوه فقال له أبو سفيان (وهو يومئذ مشرك): أنشدك بالله يا زيد، أحب أن محمداً الآن عندنا مكانك نضرب عنقك وأنت في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمداً في مكانه الذي هو فيه مقيم تصيبه الشوكة وأنا جالس في أهلي... فقال أبو سفيان: ما رأيت أحداً من الناس يحب أحداً كحب أصحاب محمد محمداً.

وكذا ربيعة بن كعب الأسلمي الذي اشتاق إلى رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وعدم إطاقته فراقه، ففي الوقت الذي كان الناس يسألون النبي صلى الله عليه وآله وسلم الشاء والبعر قال ربيعة: أسألك مرافقتك في الجنة فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "فأعني على نفسك بكثرة السجود" صحيح، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا حبه وحب رسوله وحب ما يقربنا إلى حبهما.

فهذه نماذج من تعلق الأصحاب بمولانا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبذلك نالوا الدرجات العلى وقويت دولتهم وكانوا أسيادا إذ عظموا في أنفسهم ما عظمه الله ووقروا في قلوبهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وكلما ضعف تعلق المسلمين بنبيهم ضعفت همهمهم وكلت عزائمهم وقصرت حاجاتهم وذلت لأهل الكفر رقابهم.

فكان من اوجب الواجبات وأكد المؤكدات أن يستعيد المسلمون شبابا وشيوخا رجالا ونساء حبهم للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وتعظيمهم لمقامه، وذلك بالتعرف عليه وعلى سيرته ثم اتباع سنته عليه السلام.

- "المولد النبوي فرصة لتجديد التعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم"

إذا كان من اللازم شرعا مضاعفة الجهود والعمل الجاد لإحياء تعظيم شعائر الله في قلوب المسلمين، وأول ذلك تعظيمهم لمن بعث رحمة للعالمين، والتعرف عليه.

فلزم استغلال كل وسيلة ومناسبة وفرصة لتوجيه الناس وتعليق قلوبهم بهذا النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فمن أهم تلك المناسبات يوم مولده الشريف صلى الله عليه وآله وسلم الذي كان يوم خير على الخلائق أجمعين، كيف لا وهو يوم الرحمة الكبرى ويوم الهدية العظمى.

فقد كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم ثمرة زواج موفق ميمون، اتحد فيه عنصر طيب بعنصر طيب، وانضم به أصل كريم إلى أصل كريم، وأصهر بيت عريق في شرف الآباء وطهر الأمهات، إلى بيت يكافئه في الشرف والطهارة، فكان بذلك نسلا طاهرا كريما.

أشرقت الدنيا بمولده، وخرج معه نور أضاء ما بين المشرق والمغرب، وكان من المبشرات بمولده صلى الله عليه وآله وسلم حادثة أصحاب الفيل، وهي إيذان بإهلاك الظلم والطغيان وميلاد عهد جديد للحق والعدل والأمان.

وازدادت الحياة برسالته ضياء وابتهاجا، ودخل الناس في دين الله أفواجا من مشارق الأرض إلى مغاربها، فكانت سيرته صلى الله عليه وآله وسلم عظيمة مبدجة، نظرا لجهوده صلى الله عليه وآله وسلم في نشر هذا الدين، وما تبعه من صبر على أذى المشركين وتكذيب المفتريين، فتعجبت الدنيا لقيادته للجيوش العظيمة عجبها من عبادته وخشوعه، فكان بذلك صلى الله عليه وآله وسلم الرجل الأول في تاريخ الإنسانية.

فما أحوجنا في هذه الذكرى المجيدة، أن نستحضر الرسول القدوة، لتتحرك العزائم، وتوقظ الهمم للعمل والجد والاجتهاد، ولا يتسنى ذلك إلا بمراجعة واعية للذات، والوقوف على مكان القوة والضعف بهدف بناء جيل واع يعرف ما له وما عليه، جيل يتابع المسير على الطريق الذي سلكه صلى الله عليه وآله وسلم، ويلتزم بنهجه القويم، ويهتدي بهديه السليم.

فالوفاء لهذه الذكرى، يعني أن نتحسس في أنفسنا حقيقة الحب الذي نكنه لهذا الرسول العظيم، ذلك أن محبته صلى الله عليه وآله وسلم ليست مجرد ادعاء، وإنما طاعة واتباع، لأن الله عز وجل يعلم أن النفس البشرية مطبوعة على ما تحب، ومن يحب يعشق كل ما يتعلق بالمحبوب، إذ لا يكمل إيمان المرء حتى يكون صلى الله عليه وآله وسلم أحب إليه من نفسه وماله وولده والناس أجمعين، وأنه لا يذوق المؤمن حلاوة الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فتتحقق بذلك بشرى: المرء يحشر مع من أحب، والله عز وجل يقول: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا، وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

فكيف لا يحب هذا الرجل الكريم وهو الذي قال عنه الله عز وجل: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين"، وكيف لا يقدر هذا النبي العظيم وهو الذي امتدحه ربه عز وجل قائلا: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى

المؤمنين، إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين⁴، فبعثته صلى الله عليه وآله وسلم أعظم منة، لأنها غيرت حالة أقوام وأجيال تغييرا كاملا نحو الأفضل.

فالاحتفال بالمولد النبوي الشريف، يجدد الإيمان، ويملاّ قلوب الناس حبا بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، ويزيد من معرفته ومدحه والذي يعتبر من أعظم العبادات: «لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا»⁵، والتوقير يكون بحفظ الهيبة، ذلك أن الأوائل إذا ذكروه صلى الله عليه وآله وسلم تغيرت ألوانهم وارتعشت جوارحهم، فهذا الإمام مالك رحمه الله، يدرس الفقه، وكان عندما يدخل درس الحديث يغتسل ويتطيب، ويروي الحديث بكل أدب وخشوع، وما ذلك إلا إجلالا وتعظيما له صلى الله عليه وسلم.

ومن عظيم الاهتمام به صلى الله عليه وآله وسلم أن العلماء وصفوه بأدق الأوصاف: ذكروا عدد الشعرات البيضاء في لحيته، ووصفوا مشيته ووقفته وسواكه، وتحدثوا عن مرضعاته وإخوانه، وكل شيء يتعلق به صلى الله عليه وآله وسلم.

وإحياء ذكرى مولد الشاهد والمبشر والناذير والشفيع صلى الله عليه وسلم، يحيلنا إلى فهم فحوى هذا الدين الحنيف، والذي يدعو إلى المحبة والإخاء والعدل والمساواة بين كل المسلمين. والاحتفال أيضا يجب أن يكون رائده وموجهه هو الدعوة إلى السلم والسلام، لأن الإسلام جاء رحمة للناس كافة، وما سيرة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم إلا تجسيدا طاهرا لخير البشرية، وتكميلا لدعوة الأنبياء، وما تقدم الحضارة الإسلامية إلا لأنها اعتمدت مبادئ سامية وأخلاق عالية تجعل الإنسان يسعد في الدارين.

فلله ما أعظم هذا القائد وما أصدق، فتح القلوب قبل أن يفتح البلدان، وسيرته صلى الله عليه وآله وسلم يستقي منها الدعاة أساليب الدعوة، والمربون طرق التربية ووسائلها، والقادة نظم القيادة ومنهجها، والزهاد معنى الزهد ومقاصده، والتجار مقاصد التجارة وأنظمتها وطرقها، والعلماء ما يعينهم وينير بصيرتهم على فهم كتاب الله عز وجل.

وخلاصة، تستقي منه الأمة الآداب الحميدة والأخلاق الرفيعة، والشائلا العالية، ما يعينها في دينها ودنياها.

4 - سورة آل عمران، الآية 164.

5 - سورة الفتح، الآية 9.

والسيرة النبوية العطرة، حافلة بالأحداث والمعاني التي تعتبر المفتاح للتغيير والإصلاح، ذلك أن حياته صلى الله عليه وآله وسلم مليئة بالمعاني الجميلة، سواء في حياته باعتباره نبيا، أو قاضيا وحاكما أو باعتباره إنسانا عاديا يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

ومن الناس من ينكر على الاحتفال بالمولد النبوي، ويراه بدعة ونرد عليه بالأدلة التالية المستقاة من أقوال العلماء الأجلاء:

- أدلة استحباب الاحتفال بالمولد النبوي

وهذه بعض الأدلة المختصرة من كتب أهل العلم محررة في بيان الأدلة الصحيحة والأجوبة الفصيحة التي بها برهان مشروعية الاحتفال بالمولد النبوي الشريف تطمينا للقلوب وإراحة للنفوس:

الأول: أنه تعبير عن الفرح والسرور بالمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم وقد انتفع به الكافر ولقد استدلل الحافظ ابن حجر بما جاء في البخاري وذكر السهيلي أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: لما مات أبو لهب رأيته في منامي بعد حول في شر حال فقال ما لقيت بعدكم راحة إلا أن العذاب يخفف عني كل يوم اثنين قال وذلك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولد يوم الاثنين وكانت ثوبية بشرت أبا لهب بمولده فاعتقها يقول في ذلك الحافظ شمس الدين محمد الدمشقي:

إذا كان هذا الكافر جاء ❁ ذمه بثبت يده في الجحيم مخلدا

أتى أنه في يوم الاثنين ❁ دائما يخفف عنه للسرور بأحمدا

فما الظن بالعبد الذي كان عمر ❁ هب أحمد سرورا ومات موحدا

الثاني: أنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يعظم يوم مولده، ويشكر الله تعالى فيه على نعمته الكبرى عليه، وتفضله عليه بالوجود لهذا الوجود، إذ سعد به كل موجود، وكان يعبر عن ذلك التعظيم بالصيام كما جاء في حديث أبي قتادة: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سئل عن صوم يوم الاثنين؟ فقال: (فيه ولدت، وفيه أنزل علي). رواه الإمام مسلم في الصحيح في كتاب الصيام.

الثالث: أن الفرح به صلى الله عليه وآله وسلم مطلوب بأمر من القرآن من قوله تعالى: ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون﴾⁶ فالله تعالى أمرنا أن نفرح بالرحمة والنبي صلى الله عليه وآله وسلم أعظم رحمة قال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

6 - سورة يونس، الآية: 58.

الرابع: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يلاحظ ارتباط الزمان بالحوادث الدينية العظمى التي مضت وانقضت، فإذا جاء الزمان الذي وقعت فيه كان فرصة لتذكرها، وتعظيم يومها، لأجلها ولأنه ظرف لها.

وقد أصل صلى الله عليه وآله وسلم هذه القاعدة بنفسه كما صرح البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم في الحديث أنه صلى الله عليه وآله وسلم: "لما وصل إلى المدينة ورأى اليهود يصومون يوم عاشوراء سأل عن ذلك ف قيل له : أنهم يصومون لأن الله نجى نبيهم وأغرق عدوهم فهم يصومونه شكراً لله على هذه النعمة فقال صلى الله عليه وآله وسلم: نحن أولى بموسى منكم فصامه وأمر بصيامه " وقد كان الحافظ ابن حجر أول من استدل على هذا الحديث في جواز المولد النبوي ولا يمكن لأي مسلم كائناً من كان أن يقدر في عقيدة الحافظ ابن حجر.

الخامس: أن الاحتفال بالمولد لم يكن في عهده صلى الله عليه وآله وسلم فهو بدعة ولكنها حسنة لا ندرجها تحت الأدلة الشرعية والقواعد الكلية، فهي بدعة باعتبار هيئتها الاجتماعية، لا باعتبار أفرادها لوجود أفرادها في العهد النبوي.

السادس: أن المولد الشريف يبعث على الصلاة والسلام بقوله تعالى : ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾⁷ وما كان يبعث على المطلوب شرعاً فهو مطلوب شرعاً، فكم للصلاة عليه من فوائد نبوية.

السابع: أن المولد الشريف، يشمل على ذكر مولده الشريف ومعجزاته وسيرته والتعريف به، أولسنا مأمورين بمعرفته ومطالبين بالافتداء به، والتأسي بأعماله والإيمان بمعجزاته والتصديق بآياته وكتب المولد تؤدي هذا المعنى تمامًا.

والحمد لله رب العالمين.

7 - سورة الأحزاب، الآية: 56.

ملاح من الأدبية الموحدية شعر النبويات نموذجاً

د. الحسن الطاهري
أستاذ باحث

مقدمة:

اعتنى هذا المقال بمقاربة شعر النبويات في عصر الموحدين في المغرب الأقصى على عهد الموحدين. وإذا كان بحثنا لم يوصلنا إلا إلى الوقوف على مطولة ميمون الخطابي التي يشهد لها العديد من الباحثين بأنها تمثل أرقى نموذج شعري في هذا الغرض الذي يرتبط بهذه الفترة التي هي مدار الدرس والتحليل؛ فإننا، وانطلاقاً من هذا الاعتبار - لا نقدمها نموذجاً للتحليل، وإنما نستطيع القول - ولومؤقتاً - إنها يتيمة عصرها. مع أن الشك يراودنا في أن الخطابي والشعراء الموحدين لم ينظموا في هذا الغرض الفني سوى هذه الياثية، ولعل السبب في ذلك ضياع جزء كبير من هذا المتن الشعري الموحدي - كما هو الشأن بالنسبة لشعر هذه المنطقة المتعلق بالعصر الإدريسي أو المرابطي وكذا المريني - خاصة عندما نعلم أنهم المغاربة الذين تحدثنا المصادر والمراجع على أنهم كانوا ومازالوا متمسكين بالإسلام ومتشبثين به، مثلما أحبوا الرسول عليه الصلاة والسلام وتفانوا في غرامه وغرام آل بيته.

سينصب التحليل بالأساس على الجانب المضموني للقصيدة؛ وذلك بتقديمها، ثم تحديد ومناقشة وحداتها الدلالية، فالكشف عن أبعادها ومراميها نفسية كانت أو اجتماعية أو سياسية أو تاريخية أو عقدية.... و لأن القصيدة تتضمن جوانب وأحداثاً مهمة من السيرة النبوية الشريفة، سيهتم التحليل بعنصرين رئيسين آخرين: الأول، تناول الوقوف على المعجزات الواردة في القصيدة، سواء المتعلقة منها بإرهاصات النبوة أو مع الوضع أو بعده، مع ما ترمز إليه هذه الآيات من دلالات ومقاصد. وأما الثاني فيرتبط بضبط أثر الشئائل المحمدية في القصيدة نفسها من خلال الوقوف على صفات محمد صلى الله عليه وسلم، والحكمة من إدراجها ضمن القصيدة. ثم نختم بخلاصة مركزة تتضمن أهم ما توصلت إليه المقاربة.

الظاهرة التي ندرسها تتعلق بشعر النبويات ؛ ذلك أن لهذا الغرض من الخصوصيات - إن شكلاً أو مضموناً - ما يميزه عن باقي الأغراض الشعرية الأخرى التي عرفها الشعر العربي على الدوام، في المشرق كما في المغرب الإسلاميين.

إن أول خصوصية مهيمنة تميز هذا الموروث الشعري هي ارتباطه بالدين الإسلامي منذ نشأته، ثم ما اتسم به عند المغاربة من واقعية ومن صدق في التعبير، وكذا ما يكشف عنه من رباط روحي عميق ووثيق بين الإبداع الفني والضمير الديني في انصهاره بين الذاتية الفردية لأدبائنا، والذات الجماعية للجماهير شعبنا في كل زمان ومكان¹.

وغالب الظن أن ثمة تلاهما عبر التاريخ المغربي بين الفكر الديني والوعي الاجتماعي عند المغاربة، كما تكشف عن ذلك مضامين هذا الإبداع الذي يعكس بصدق المشاعر الذاتية والجماعية لهذه الأمة. ذلك لما لهذه الظاهرة، أيضاً، من علاقة مباشرة بالواقع المعيش، ولما لها من تفاعل مع الفكر ومقوماته وخصوصياته.

وقد أحاط العديد من الدارسين هذه الظاهرة بكثير من العناية، سواء منهم المشاركة أو المغاربة، فسألوها مراحل نشأتها وتطورها، على مستوى الشكل والمضمون، فألفت في ذلك أعمال كثيرة².

لقد كان المغاربة في نبوياتهم متفانين في محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم "تقديراً لمكانته في نفوسهم وتسليّة عن بعد المزار، وحنيناً لأرض الحجاز. وتفانيا في الغرام بمحبته والشوق إليه"³. وتلك نتيجة طبيعية توصل إليها مثل هذه العلاقة الفريدة التي تربطهم بخير البرية فمكنتهم من إحراز قصب السبق في طرّق هذا الغرض، فعملوا على إشاعته في الغرب الإسلامي منذ القرن الخامس الهجري، وكثيراً ما يستشهد الدارسون على ذلك بعملين مهمين في هذا المجال:

أ- قصيدة عبد الله بن يحيى الشقراطيسي التوزري (ت 466هـ) المسماة: "الشقراطيسية في مدح خير البرية" وأولها:

1 - را: الأدب المغربي.. عباس الجراري. (ص: 141).

2 - را: في الموضوع: البيان المغرب.. (صص: 445-446) / أزهار الرياض.. ج 1، (ص: 91) / را: المدائح النبوية في الأدب العربي "زكي مبارك، دار الكتاب العربي القاهرة، س 1967 / قصيدة المديح النبوي. عبد الله بنصر العلوي، مجلة كلية الآداب، ع 10، (ص: 73) / الأدب المغربي للجراري / شعر النبويات في عهد بني مرين. عز الدين سلاوي، ج 1، (ص: 183 إلى ص: 254) رسالة مرقونة بكلية الآداب مكناس / الوافي بالأدب العربي. لابنتاويت ج 1 (ص: 321).

3 - مقارنة اصطلاحية لأنماط قصيدة المديح النبوي، عبد الله بنصر العلوي مجلة كلية الآداب فاس، ع 4، س 1988. (ص: 231).

الحمد لله مِنَّا باعث الرسل ❀ هدى بأحمد مِنَّا أحمد السبل⁴

ب- وقصيدة أبي عبد الله بن أبي الخصال⁵ (ت540هـ) المسماة: "معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب" ومطلعها:

إليك همي والفؤاد يثرب ❀ وإن عاقني عن مطلع الوحي مغرب⁶

ويزيد أحد الباحثين المهتمين بالموضوع، أن قصيدة المديح النبوي في أحد أنماطها، وهوالتوسلات، قد عرف قبل ذلك التاريخ بنحوقنيين من الزمان عند عبد الملك بن حبيب (ت230هـ)⁷.

لقد كان هذا الفن الشعري يرتبط بحياة المجتمع المغربي، يتفاعل معه ويعكس واقعه الديني الاجتماعي والسياسي والفكري...، إذ لم يكن لفن المديح النبوي - النبي الذي شرفه الله بعلمه وأهمه هداه ليُهتدى به - لما فيه من نفحات إسلامية عبقة، أن يمتنع على عصر إدريسي⁸، أو مرابطي على الخصوص حيث كان مذهبهم مذهباً سنيا مالِكياً ممزوجاً بنفحات صوفية؛ ونحسب أن الوقوف على يائية ميمون الخطابي قادر على توضيح هذه العلاقة المزدوجة التي تربط:

أولاً: بين الذات الشاعرة - التي هي لسان حال الذات والجماعة - وبين الحبيب المصطفى خير البرية، حيث كان المغاربة، عشاق مكة، على الدوام منذ دخول الإسلام إلى هذا البلد، يتعلقون بالرسول صلى الله عليه وسلم، وبالبيت النبوي وآله، ويعشقون عشق المقيم الوهّان كل البقاع

4 - را: نص القصيدة برحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية لأبي عبد الله محمد بن محمد العبدري الحياحي حققها وقدم لها وعلق عليها محمد الفاسي جامعة محمد الخامس سلسلة الرحلات4، حجازية الرباط 1968. (صص: 45-49). والقصيدة من 133 بيتاً شعرياً/راجع: مجلة المناهل، ع18، س7، 1980 (من ص: 22 إلى 31)، أخرجها عبد الله كنون بعد أن قابلها بست نسخ أخرى ذكرها في، م ن، (صص: 19-21).

5 - را: ترجمته في أزهار الرياض...، ج5، (صص: 156-173) ثم راجع: تخميس ابن حبيش لقصيدة ابن أبي الخصال: "معراج المناقب" م نفسه، ج5، (صص: 174-249).

6 - الرحلة المغربية. (ص: 31).

7 - راجع: أبو سالم العياشي المتصوف الأديب. لعبد الله بنصر العلوي، المملكة المغربية وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية 1419هـ- 1998. ص: 183-184.

8 - لقد كان هناك تعاطف بين المولى إدريس والإمام مالك: راجع: أسباب انتشار المذهب المالكي واستمراره بالمغرب. عباس الجراري، دعوة الحق، ع224، س1982. (صص: 25-91). وفي هذا المقال ذهب الجراري إلى: "إن المغرب تعرف في عهده الإسلامية الأولى إلى جميع التيارات السياسية والفكرية التي وفدت على الشمال الإفريقي، وتصارعت فوق أرضه بحدة وعنف في أحيان غير قليلة، ومع ذلك فإنه اختار الاتجاه السني، واختار داخل هذا الاتجاه مذهب الإمام مالك الذي عايش كل تلك التيارات، واحتك بها واصطدم معها قبل أن يحرز انتصاره عليها ويصبح المذهب الذي أجمع المغاربة عليه،..." م ن، (صص: 28-29)/ را: أيضاً في الموضوع وحدة المغرب المذهبية... الجراري، م س، (صص: 15-16).

المقدسة، حتى تجاوز حبهم وغرامهم، في كثير من الأحيان، حب وغرام من هم بجوار هذه البقاع الطاهرة، كما تكشف عن ذلك نبوياتهم.

ثانياً: وترتبط بين الذات والواقع المعيش بكل تفاعلاته، ومكوناته الثقافية والفكرية والسياسية والعقدية وسواها.

لذا، لن نذهب بعيداً لنستقصي، ونحدد أنماط وأشكال وبناء شعر النبويات خلال هذا العصر الموحدي وقبله، لكون قصيدة الخطابي - كما يبدو - ترجع ولادتها إلى بدايات هذا الفن في المغرب الأقصى؛ ولأنها أيضاً تعتبر من أعلى نماذج القصائد: "الشديدة الإخلاص في مدح أشرف الخلق"⁹.

هذا، وقد ساعد على تطوير هذا الموروث الشعري في هذه البقاع، سن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، حيث نجد المقرئ يذهب إلى أن العزفين هم أول من سنَّ مسألة الاحتفال بالمولد النبوي¹⁰. وفي السياق نفسه نجد ابن عذاري يقول في حق الخليفة الموحدي المرتضى (ت 656هـ)¹¹: "وكان يقوم بليلة المولد خير قيام، ويفيض فيه الخير والإنعام، وكان قد أشار له بذلك الفقيه أبو القاسم العزفي لأنه لما ألف كتابه "الدر المنظم في مولد النبي المعظم" بعث به إليه"¹².

ومما لاشك فيه، أن لهذا الاحتفال وقعه المؤثر والمميز في نفوس المغاربة ووجدانهم خاصة، فترجموا ذلك الإحساس والانفعال شعراً، يتغنون فيه بعبقريّة محمد صلى الله عليه وسلم وبإعجابهم ببطولته، بطولة الحق والاستقامة والصدق ويقظة الضمير والكياسة والإخلاص لله تعالى، فراحوا يتبارون في حصر كراماته ومعجزاته وشماله وصفاته وفصائله الخلقية والخلقية والعقلية والنفسية، معبرين عن آمالهم وآلامهم في أن. لتتحول بذلك هذه القصيدة النبوية إلى إبداع شعري ديني ذي خصوصية مغربية يغلب عليها طابع المحلية، كونها قد استرقدت أصالتها من طبيعة الفكر المغربي ومن نزوع إبداعه إلى الانصهار بين الذات والجماعة، ولعل ذلك من أقوى عوامل الإبداع في التراث الإنساني¹³.

9 - شعر النبويات... سلاوي، 220/1.

10 - أنظر "أزهار الرياض" 39/1. هنا نجد المقرئ يذهب إلى أن أول من سن هذا الاحتفال بالمغرب الأقصى هو أبو العباس العزفي، وذلك إثر حديثه، عن حفاوة أبي عنان، بالشريف أبي العباس ومنزلته في سبته، قال: "وكان يستدعيه كل سنة إلى حضرته فاس، لحضور المولد السعيد، الذي سنه ببلاد المغرب الشيخ أبو العباس العزفي..."، ونعتقد أن بداية هذا الاحتفال والقول في ذكره يكون قبل هذه الفترة إذاً أننا بأن لكل فن مراحل تكوينه الأولى، التي تمثل شكله أو أشكاله البسيطة، قبل أن يصبح نوعياً يؤسس قواعده وخصوصيته.

11 - المرتضى هو الخليفة ما قبل الأخير في سلسلة الخلفاء الموحدين.

12 - راجع: البيان المغرب.. (صص: 445-446)/ راجع: م ن: ذكر الرسالة النبوية التي أنشأها الأمير أبو زكرياء إلى الحضرة الشريفة خير البرية صلى الله عليه وسلم، (صص: 392 وما بعدها).

13 - راجع: مقارنة اصطلاحية... عبد الله بنصر العلوي، (ص: 237)/ را: شعر النبويات... سلاوي، ج 1، (ص: 221)/ را: المولدات في الأدب العربي، محمد المنوني، مجلة دعوة الحق س: 12، ع 7، (صص: 62 إلى 65).

وهكذا، سيكون لاختلال أوضاع الموحدين، في الداخل والخارج، ومآل نجمهم إلى الأفول، أثره البارز في اضطراب النفوس¹⁴، فيأتي إبداعهم الشعري في موضوع النبويات معبرا تعبيرا صادقا عن روح العصر وبإحساس واقعي تطبعه الخصوصية، ولعل ذلك ما سنستجليه من خلال مساءلة يائية الخطابي¹⁵:

فالقصيدة من المطولات الشعرية التي اهتمت بنظم السيرة النبوية فراحت تقص لنا أخبارا عن مغازي الرسول صلى الله عليه وسلم ثم عن كراماته ومعجزاته وصفاته التي تفرد بها وفاق بها كل المخلوقات من الإنس والجن...

والياية تلتقي مع قصائد أخرى في الغرض نفسه في كثير من العناصر كما سيتضح ذلك. وما يميزها هو أنها تعتبر من أعلى نماذج القصائد التي قالها الشاعر الموحدي في مدح أشرف البرية على عهد الموحدين. وقد قدم لها المقري بقوله: "ومن شعره رحمه الله تعالى هذه القصيدة الفريدة، التي مدح بها المصطفى صلى الله عليه وسلم، وأشار إلى جملة من مناقبه الربانية، ومآثره العرفانية، وآياته الباهرة، ومعجزاته الظاهرة، صلى الله عليه وسلم"¹⁶. والحق أن المقري كان دقيقا وصائبا في ما أشار إليه وسيكشف هذا المقال عن ذلك عند وقوفنا على المعجزات ودلالاتها في الياية.

وأما عبد الله كنون فقد قدم لهذه المطولة بقوله: "وهي آية من آيات البلاغة وسحر البيان، يقرأها الإنسان فيحس أنه يقرأ لأحد كبار الشعراء المتمكنين من نواصي الكلام، والمتصرفين في ضروب القول؛ كالتنبي وأبي تمام ونظائرها. وعلى طولها فإن نفسه لم يتخلق في بيت واحد من أبياتها، وأسلوبه فيها من البدء إلى الختام متساق متناسق، لا يضعف ولا يتفكك مما يدل على وفور مادته وقوة ملكته"¹⁷. قد يبدو في هذا الرأي نوع من التحمس، نعتقد أن ذلك سينكشف عندما نعلم أن شعرية هذا النوع من الإبداع بل كل الإبداع، وهذا رأينا الخاص، لا تتولد من لغة هذا الشعر، أو تراكيبه أو صوره أو إيقاعه فحسب، وإنما ترجع أيضا إلى طبيعة ثقافة المتلقي وما يخترنه من أفكار تربطه بهذا الموروث الشعري أو ذاك. فيتأثر به، ويتفاعل معه مثل ما حصل لعبد الله كنون المتشبع بثقافته السلفية

14 - ملاحم ودواوين في السيرة والمديح النبوي، م س، دعوة الحق، (ص: 97 وما بعدها) / را: أيضا رسالة أبو زكرياء.. في البيان المغرب (ص: 392).

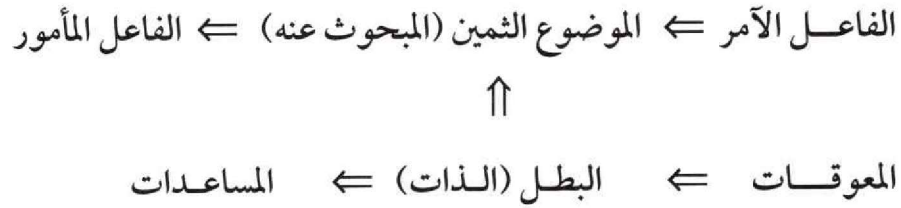
15 - انظر: القصيدة فهي مثبتة بكاملها في: "الذيل والتكملة" (من ص: 395 إلى 400) من 150 بيتا، راجع: أزهار الرياض، ج3، (من ص: 384 إلى 392) وهي من 150 بيتا شعريا. مع نوع من الاختلاف بين المصدرين لحق بعض الألفاظ دون أن يطرأ كبير تغيير على المعنى أما الوزن فسلم من ذلك / را: الذكريات كنون ع7، (من ص: 14 إلى 22) وهي من 149 بيتا.

16 - أزهار الرياض.. ج1، (صص: 383-384).

17 - ذكريات مشاهير رجال المغرب.. كنون ع7، (ص: 12).

ليصدر هذا الحكم في حق هذه القصيدة، بيد أنه لا ينبغي أن يفهم من كلامنا هذا معنى النيل من مكانة كنون الذي يشهد له بموسوعيته وتكوينه العميق في هذا المجال، ذلك أن لا أحد يعرف شاعرية الخطابي يستطيع أن يتجاهل مكانته الشعرية العالية المعروفة بين معاصريه من الشعراء.

وللكشف عن هذه الأبعاد تستفيد الدراسة من استعمال مكونات النموذج العاملي¹⁸ ولو أن في ذلك نوعاً من المجازفة، وعناصره على الشكل التالي:



هذه الأزواج الثلاثة نرصدها كما يلي:

(أ) محور الرغبة: وهو المحور الذي يربط بين الذات والموضوع.

(ب) محور الإبلاغ: وهو عنصر الربط بين المرسل والمرسل إليه.

(ج) محور الصراع: وهو ما يجمع بين المعيق والمساعد.

ولما جاءت القصيدة، كما يبدو، مكونة من ثلاث محطات دلالية مترابطة فيما بينها، لتكون وحدتها الموضوعية معبرة عن انفعال الشاعر، وتفاعله مع موضوعه، وعن نفسيته، ومحيطه ليتخذ بذلك موقفاً واضحاً وجريئاً من الذات والواقع المعيش على السواء... فإن المقال يستهدف استجلاء هذه العوامل في كل مقطع على حدة، مع محاولة حصر نوعية العلائق الرابطة بين عناصره، ثم بعد هذا نعمل على تركيب كل المعطيات لتتحول بدورها إلى مقدمة، نتأملها بغية استخلاص بعض النتائج التي ستكون قادرة على تبرير بعض ما أشرنا إليه في هذا التمهيد المتعلق بشعر النبويات.

الوحدات الدلالية:

(1) الوحدة الدلالية الأولى: من البيت 1 إلى البيت 8، وتمثل مقدمة الياثية التي يدعوفها

الشاعر إلى تسخير القرائح الشعرية في مدح خير البرية.

18 - Greimas(AJ)Du Sens II ;éd Seuil ;Paris 1983 :P,67.

راجع أيضاً: السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، سعيد بنكراد، الطبعة الأولى منشورات الزمن الرباط المغرب 2003 ص:70، وأيضاً مباحث في السيميائيات، العابد عبد المجيد، الطبعة الأولى دار القرويين للطباعة الدار البيضاء المغرب 2008 ص:39.

(2) الوحدة الدلالية الثانية: من البيت 9 إلى البيت 149، وتدور حول سرد شمائل النبي ومعجزاته، وكراماته ما تعلق منها بإرهاصات النبوة أو ما كان متعلقاً بحين الولادة أو بما بعدها.

(3) الوحدة الدلالية الثالثة: وتتجلى في البيت الأخير 150 الذي يعتبر بمثابة خاتمة القصيدة ونهايتها الحتمية.

عوامل الوحدات الدلالية:

- الوحدة الأولى:

الأمور - الله	الموضوع الثمين - استجابة المعالي - نصر الهدى والدين	المأمور - ضمير الأمة
المساعد - مدح الحبيب	البطل - محمد صلى الله عليه وسلم	المعيق - أعداء الدين

* الوحدة الثانية:

الأمور الله	الموضوع الثمين العبور من الأسفل إلى الأعلى	المأمور الذات اليقظة
المساعد الإيمان	البطل كرامات ومعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم	المعيق الكفر بالرسول صلى الله عليه وسلم وبمعجزاته..

- الوحدة الثالثة:

الأمور - الله	الموضوع الثمين - بسط السلام	المأمور - المجتمع الإسلامي والإنساني على السواء
المساعد - الوحي	البطل - محمد صلى الله عليه وسلم	المعيق - انقطاع السلام

المحاور وأبعادها:

محور الرغبة: ونقصد به أن الذات الشاعرة لكي تتحرك فهي في حاجة إلى قدرة على الفعل ومعرفة بالفعل ثم إرادة فعل الفعل، وهنا يأتي دور الرغبة كفعل يشد الشاعر إلى الموضوع يفصل فيه القول، الذات الشاعرة باعتبارها فعل يتحرك برغبة قوية تشده إلى الموضوع الثمين المبحوث عنه، الذي هو، تغيير الذات والواقع في آن، وذلك بنصر الهدى والدين، وطاعة الله بعد تطهير النفس من الدنس والخطيئة، وهذا نوع من الاعتراف سيؤدي بالذات إلى الخلاص، وبذلك تحول الشاعر إلى ذات وموضوع ومرسل (صاحب دعوة إصلاحية) ومرسل إليه ومساعد ومعيق في آن واحد.

هذه العوامل المتداخلة فيما بينها في ذات واحدة، حولت الشاعر من حال السلب إلى حال الإيجاب أي من شاعر يُحركه الطمع والغرور وجني ملذات الحياة الزائلة، إلى شاعر يحركه التفكير العميق في نواميس الحياة، مثلما يحركه التأمل في الذات والناس، ليدرك أن التعلق بمدح محمد صلى الله عليه وسلم تعلق بالنور الرباني الهادي إلى الصلاح.

محور الإبلاغ: وهو عنصر الربط بين المرسل والمرسل إليه، ويمثل هذا الزوج في القصيدة الله تعالى: الذي هو الباعث على فعل الهداية يوجه ضمير الأمة وضمير الذات الساهية باعتبارها مرسلًا إليها، والتي تعتبر المستفيد الأول من هذا التحول بالفعل، فعل الهداية لينقل المجتمع الإسلامي من العدم إلى الوجود، ومن الاضطراب إلى التوازن الذي في غيابه تختل قوانين الحياة وتضيع، كما يحدد لنا هذا العنصر بداية الفعل - فعل الهداية - من عند الله عز وجل الذي هو مصدر كل فعل خير، ثم نهاية هذا الفعل عندما تتم استفادة الذات المرسل إليها من ثمرة الهداية فيحصل الانتصار ويتحقق حلم السلام على أرض الواقع.

محور الصراع: ونقصد به الصراع القائم والأزلي بين قوى الخير والتي تقوم بدور المعين الذي يساعد الذات على إنجاز برنامجها من أجل الوصول إلى الموضوع المرغوب فيه، وبين قوى الشر والتي تقوم بدور المشوش والمضلل حتى لا يتحقق التواصل بين الذات والموضوع، وبذلك فهذا المحور يجمع بين المعيق والمساعد جمع تضاد وتنافر لا جمع تلاؤم وتوافق. فتكون العلاقة بينهما علاقة صدامية، تقوم على فعل الصراع بين قوى الخير والتمثلة في الوحي ومدح الحبيب والإيمان به وبرسالته وبين قوى الشر والتمثلة - حسب الشاعر - في مدح الخلق وسيادة الحرب بدل السلم. وتلك عناصر مختلفة تقوم على أساسها البنية الدلالية في القصيدة، ذلك لأن المقولات الدلالية تتشكل من حدين متناقضين، قد يكون لهما حضور عيني في القصيدة وقد يكتفي الشاعر مثلاً بإحضار أحد الطرفين، لأن حضور أحدهما يستوجب ضمناً حضور الثاني الذي يبقى مستتراً،

يُكتفى بالتلميح إليه، ويمكن اختزال ذلك التقابل الذي يمثل أحد الملاحم المهمة والمهيمنة في القصيدة الياثية فيما يلي:

الطرف الأول	مقابل	الطرف الثاني
جمع	(م)	أشتات
نصر	"	موت في سبيل رذيلة
أنجما	"	دياجيا
مدح الحبيب	"	مدح الخلق
تطيع	"	تعصي
إيمان	"	كفر

تعبير الحال و التحول:

من الملاحظ أن القصيدة تحتوي على تعابير تدل على الحال والتحول:

(أ) - تعابير الحال: سهوت - كان - كانت - العجز - ...

(ب) - تعابير التحول: نجيب المعالي - نصر الهدى والدين - نطلع - أنقذنا أخبرنا - بلّغ - تحدى - أمر - ناه -

إن غلبة تعابير وألفاظ التحول على الحال في القصيدة، ولعله الحال نفسه بالنسبة لقوة الطرف الأول على الطرف الثاني في الجدول السابق، ليُدل على اهتمام الشاعر بما هو إيجابي، لأن ضالة الشاعر، هو أن يتحول الواقع من حال الضعف إلى حال العظمة، بانتصار الذات عندما يتحقق الاتصال بينها والموضوع، فتتحول هذه الذات من:

(الذات ٧ الموضوع) إلى (الذات ٨ الموضوع)¹⁹

أي انتصار البطل - الشاعر - بالتحول من شاعر دنيا إلى شاعر دين، بمعنى من حالة كونه مداحاً متكسباً، إلى حالة سخر فيها كل شعره في مدح المصطفى عليه الصلاة والسلام، الذي مدحه طاعة وتوبة وتكفير، والمغالاة في وصفه جائر، ولعل ذلك ما يستفاد من قول الشاعر: [الطويل]

19 - علامة ترمز إلى:

٧ : الانفصال.

٨ : الاتصال.

سَهوت بمدح الخلق دهري وهذه
سجودي لجُبري كل ما قلت ساهيا
فلا مدح إلا للذي بمدح
تُطيع إذا ما كنت بالمدح عاصيا²⁰

وقد قال البوصيري قبله: [السيط]

وانسُب إلى ذاته ما شئت من شرف ❁ وانسُب إلى قدره ما شئت من عظم
فإن فضل رسول الله ليس له ❁ حد فيُعرب عنه ناطق بفم²¹

والظاهر أن تدهور أحوال الموحدين حائلذ، وشعور الشاعر بالذنب هو ما دفع به إلى نظم هذه القصيدة الطويلة ليكفر بها عن ذنبه، وشهادة إبداعية في خدمة الدين، ولن يعز ذلك على شاعر كالخطابي، الذي تجرأ على تحرير عقْد باع فيه للمولى عز وجل منزل قلبه بثمان العون على العبادة²². والتفاني في حبه عليه الصلاة والسلام.

غير أن البيتين يعلنان من ناحية أخرى عن تحول الشاعر من جندي مخلص للعقيدة التومرتية، إلى جندي آخر راح يصنع سلاحه من الكلمة البطلة الهادفة ليدافع بها ويقاوم الفساد الداخلي والخارجي، الفردي والجمعي، ابتغاء مرضاة الله تعالى.

إن نظرة متأملة وفاحصة لمقدمة هذه القصيدة، التي وقف عليها الشاعر بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، نادما معترفا بذنبه تجاه ذاته وتجاه المجتمع - الذي كان في نظره مخطئا أيضا - متوسلا به عليه السلام في تحقيق السلام والأمن وحفظ التسلسل وذلك بالربط بين الخلف والسلف...، من هذه الزاوية نستطيع ضبط موقف الشاعر من الحياة، وذلك بما يوجهه من لوم للذات والواقع على السواء: [الطويل]

20 - [ميمون الخطابي] الذيل والتكملة لعبد المالك المراكشي، (ص: 395).

21 - قصيدة البردة للشاعر ماحد الرسول سيدي محمد البوصيري الصنهاجي (ت 689هـ) مشروحة. إعداد: محمد بن أحمد أشماعو. الرباط، ط3، س 1992، (ص: 5).

22 - الذيل والتكملة (صص: 401 إلى 404). يبدأ الخطابي هذا العقد بقوله: "يقول العبد الذي اعترف بما اقترف، لمولاه..." وقد قدم كنون لهذا النص بقوله: "ثم نطلعك على نموذج من نثره البليغ وهو هذه الحجة الغربية التي لم ينسج أحد على منوالها، ولا استظهر كاتب بمثالها"، را: الذكريات... كنون (ص: 28...).

حقيق علينا أن نجيب المعاليا * لنفني في مدح الحبيب المعاليا
ونجمع أشتات الأعاريض، حسبة * ونحشد في ذات الإله القوافيا
ونقتاد للأشعار كل كتيبة * لنصر الهدى والدين تردي الأعاديا
فألسن أرباب البيان صوارم * مضاربها تنسي السيوف المواضيا
نطلع من أمداح أحمد أنجما * تلوح فتجلو من سناه الدياجيا
كواكب إيمان تلوح فيهتدي * بأنوارها من بات يدلج ساريا
سهوت بمدح الخلق دهرا وهذه * سجودي لجبري كل ما كنت ساهيا
فلا مدح إلا للذي بمدحه * تطيع إذا ما كنت بالمدح عاصيا²³

إنها مقدمة زجرية أمرية توجيهية توجب محاربة الإنسان للنفس الأمارة بالسوء وللخطيئة الفردية والجماعية. إنه سلوك يروم به الشاعر تصحيح المجتمع من أجل بناء مستقبل مشرق.

والحق أن الشاعر قد دخل معركة أخرى يريد بها الاستضاءة "بالنور المحمدي" كون القصيدة برمتها تتوخى بسط هذا النور المثالي على الكون بأسره الذي هو في أمس الحاجة إلى الدليل الرباني الذي به ينكشف الغم، ولعل ذلك ما سنلاحظه عندما نربط بين المعجم الحربي المكون لهذه المقدمة وبين مقصده:

المقصدية	المعجم الحربي
- لنصر الهدى والدين - للإطاحة بَعْدُ الدين والكفر.. - بمدح محمد صلى الله عليه وسلم نطلع أمداحا كالنجوم تبدد الظلام والظلم... ثم لنهتدي...	- لنفني، نجمع أشتات الأعاريض - نحشد، نقتاد، كتيبة، ... - السن صوارم، السيوف، ... - المواضيا...

نستفيد من هذا كله أن المعركة التي ناصرها الشاعر لم تكن ذات طابع مذهبي يحكمه الخطاب التومرقي، وإنما باتت معركة بين الشاعر وذاته، أولا، يغالبها بغية إصلاحها وتقويم اعوجاجها، متخذاً ذلك مقدمة حتمية لإصلاح الواقع وذلك عندما يخترق النور المحمدي كل سجوف الحياة،

23 - [الخطابي] الذيل والتكملة (ص: 395).

من المتناهي في الصغر إلى المتناهي في الكبر. إنها ثورة من أجل نقل هذا الواقع من شذوذه إلى التعلق بالدين الإسلامي الصحيح، كما هو في القرآن والسنة. إنها معركة تستعمل أسلحة لا لقطع الرقاب وسفك الدماء... وإنما هي معركة تروم إصلاح الذات والواقع من الداخل، وغسلهما وتجريدهما من تبعات الجاهلية والأضاليل، لذا راح الشاعر يلفت انتباه الذات و الأمة إلى صانع السلم والسلام الرسول صلى الله عليه وسلم رمز التوحيد: "وجماع الفضائل القومية والعسكرية والدينية، وجماع المثل العليا والقيم الأخلاقية والاجتماعية والإنسانية التي تؤمن بها الجماعة العربية عبر التاريخ"²⁴.

لا جرم، في أن الشاعر وهو في رحلة البحث المستمر، قد أعلن عن مقصده، وهو إفشاء السلام بين أفراد الأمة، سلام الله عز وجل الذي أثر أن يجعله مسك الختام ليائته قائلاً:

عليك سلام الله لا زال رائحا ❁ عليه مدى الأيام منا وغاديا²⁵

إن الاختتام بلفظة "سلام الله" يوحي بنهاية القصيدة ويبرش بقدم عهد جديد، وببطولة جديدة، وحسبنا أن الشاعر عندما أقبل على استعمال هذه اللفظة "المفتاح" إنما أحضر في ذهنه بعض مشتقاتها من مثل: مُسلم، سِلْم، إسلام، سلام...، إنه الحلم باستشراف المستقبل الأمين، في زمن الغربة والغياب، ذلك الحلم الذي طالما تمناه المغاربة في وقت اختل فيه التوازن وكثرت فيه المعارك والثورات وانفلت زمام الأمر من بين يدي السلطة الموحدية.

إنه الحلم بالخلاص الفردي والجمعي في الدنيا والآخرة، كما نفهم ذلك في كثير من أبيات هذه القصيدة خاصة المتعلقة بكرامات ومعجزات المصطفى عليه السلام، المادية منها والمعنوية، ذلك لما لهذه العلامات من تعبير: "جمعي عن رغبة شعبية جارفة في تحقيق القوة والنصر، والقضاء على الظلم والقهر والشر، داخليا وخارجيا، مثلما كانت تجسيدا لرغبة جمعية في الشعور بالحاجة إلى الأمن... ويصبح النبي هذا رمز الأمل الشعبي المنشود للخلاص والتحرر، بغية إعادة التوازن للذات المقهورة الفردية والجمعية"²⁶.

إن الوقوف على المعجزات الواردة في اليائبة واستخلاص معانيها وأبعادها، ثم ضبط أثر السيرة النبوية بصفة عامة في هذه القصيدة، لمن الوسائل التي ستساعدنا على إدراك ما ألمعنا إليه آنفاً.

24 - بردة البوصيري قراءة أدبية وفولكلورية. د. محمد رجب النجار، حويلات كلية الآداب جامعة الكويت الرسالة 133 الحولية 7 س 1989م، (ص: 25).

25 - الذيل والتكملة، (ص: 400).

26 - بردة البوصيري... محمد رجب النجار، (صص: 13-14).

أ - الوقوف على المعجزات:

تكاد تدور الوحدة الدلالية الثانية لهذه الياثية حول كلام الشاعر في معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام، ومعظم الأشعار في المديح النبوي تتطرق لهذه المناقب والآيات التي تعتبر أحد دلائل النبوة الشريفة كما تكشف عن ذلك النماذج الشعرية الآتية من خلال مقارنة عناصر ثلاثة:

1- إرهاصات النبوة.

2- آيات زامنت الوضع الشريف.

3- معجزات ما بعد الولادة.

1- الإرهاصات النبوية:

سيتم استجلاء مكونات هذا العنصر والعنصرين المتبقيين من يائية الخطابي مقارنين ذلك مع ما ورد ضمن الشقراطيسية على اعتبار أنها حظيت بالسبق في الولادة²⁷، وستتخذ هذه الشهادات مقدمة لاستخلاص مجموعة من الرموز والدلالات التي توحى إليها المعجزات الواردة في هذا المتن الشعري.

لقد أخبر بمحمد صلى الله عليه وسلم قبل مولده الكتب السماوية والعديد من الكهان والأخبار²⁸... كما أخبر بذلك القرآن الكريم في أكثر من موضع، وقد ذكر ذلك الخطابي في قوله:

وفسرها شقّ وشقّ غباره ❖ سطّح بسجع قص ما كان رائياً²⁹

كما قال في ذلك الشقراطيسي أيضاً:

تورا موسى أتت عنه فصدقها ❖ إنجيل عيسى بحق غير مفتعل

أخبار أخبار أهل الكتب قد وردت ❖ عما رأوا أو رويوا في الأعصر الأول³⁰

27 - راجع: الأدب المغربي.. للجراري، (صص: 147-153) لائحة بأسماء أهم مؤلفات المغاربة في السيرة النبوية منذ القرن 6هـ، حتى العصور المتأخرة بالنسبة للنثر. وبالنسبة للشعر را: م، ن، (صص: 153-162).

28 - راجع: سيرة ابن إسحاق المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي. محمد بن إسحاق بن يسار (85-151هـ) تحقيق وتعليق. محمد حميد الله، تقديم، محمد الفاسي. معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، مطبعة محمد الخامس فاس المغرب 1975 عند كلامه عن الأخبار والرهبان الذين كانوا أعلم برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه، (صص: 62-63) / راجع: م نفسه، (ص: 65) قوله إن هناك من الناس من آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام قبل مبعثه. ويعتبر هذا الكتاب عند الباحثين من أصح المصادر وأثبتها عن سيرة النبي الأعظم. / راجع: السيرة النبوية لابن هشام. حققها، ضبطها وشرحها ووضع فهرسها مصطفى السقا إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار الفكر (دت) ج 1، (صص: 204 وما بعدها)، كلام ابن هشام حول أخبار الكهان من العرب والأخبار من اليهود والرهبان من النصارى بمبعثه صلى الله عليه وسلم.

29 - [الخطابي] الذيل والتكملة...، (ص: 397).

30 - [أبو محمد عبد الله بن يحيى بن علي التوزري] الرحلة المغربية. (ص: 45) / را: م. المناهل ع. 18، س 7، 1980، (ص: 22) والقصيدة هنا من تخريج عبد الله كنون.

2- آيات زامنت الوضع الشريف:

كثيرة هي المعجزات التي وردت في اليائية والتي ترتبط بمولد الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، منقذ البشرية من العبودية الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية،... ومنها قول شاعرنا:

وحفّت به الأملاك في حين وضعه * بليلة إفضال تزين الليالي
وبشر رضوان الجنان بخلقه * ففتح جنات النعيم الثمانيا³¹
وقوله أيضاً في ارتجاج قصر كسرى وتداعيه، وفي انطفاء نيران الفرس:
وإيوان كسرى ارتجّ ليلة وضعه * وبات عليه قصره متداعيا
وأخذت النيران نيران فارس * وكانت تلظى ألف عام تواليا³²
وقد ذكر هذه المعجزة كثير من الشعراء الذين نظموا في هذا الباب، ومنهم قول الشقراطي:
ضاءت بمولده الآفاق واتصلت * بشرى الهواتف في الإشراق والطفل
وصرح كسرى تداعى من قواعده * وانقضّ منكسر الأرجاء ذا ميل
ونار فارس لم توقد وما خمدت * مذ ألف عام ونهر القوم لم يسيل³³

3- معجزات ما بعد الولادة:

إن معجزات ما بعد ولادة الرسول صلى الله عليه وسلم - الذي كان الله تعالى يخاطبه بقوله: يا أيها النبي، أوبأياها الرسول، خلافا لما كان يخاطب به الأنبياء والرسل من قبله بأسمائهم حيث يقول يا آدم، يا نوح، يا إبراهيم... لما في العبارة من دلالة عميقة ترمز إلى المعادلة الآتية: العقيدة الإسلامية = محمد صلى الله عليه وسلم بأقواله وأفعاله وتقريراته. وهذا يرمز إلى تفضيله وتمييزه على كل الأنبياء والرسل عليهم السلام أجمعين.

لذا نكتفي برصد مجموعة من النماذج، من غير أن نقصد إلى عدم اعتبار المعجزات والآيات المتعلقة به عليه السلام قبل الولادة ومعها وبعدها. ومنها حديث الشاعر عن قصة حمل حليلة السعدية لهذا الرضيع اليتيم الذي رفضت الرواضع حمله لذلك السبب، فكان لهذا الطفل / المعجزة،

31 - [ميمون الخطابي] الذيل والتكملة...، (ص: 396).

32 - م. ن. (ص: 397).

33 - الرحلة المغربية. (ص: 45) / را: المناهل...، ع18، (ص: 22).

معها شأن كبير، ظهرت كراماته وبركاته منذ اللحظة التي أخذته فيها، حيث كثر الحليب في ثديها ورافقها الخير في المكان وفي الزمان:

وحمل ذاك الحلم حجر حليلة ❁ لترضعه درّ الفضائل صافيا
أبى حمله النسوان لليتم وانبرت ❁ له فرأت من حينها الرزق ناميا
فحازت به السبق الأتأن كرامة ❁ وأخصب مرعاها ففأق المراعي
وشارفها إذ لا تبض بقطرة ❁ فصارت به ثجاً تروّي الصّواديا³⁴

لقد أجمع رواة السيرة النبوية الشريفة، على أن منازل حليلة السعدية التي تفضلت بإرضاع هذا اليتيم، قد تحولت إلى جنة خضراء نضرة، امتلأ خلالها الدرع وكثر الخير وعم السرور كل الناس، بعد أن كانت المنطقة جذباء قاحلة وكان ابن حليلة - عبد الله بن الحارث - يقضي ليلاه باكيا من شدة الجوع³⁵.

ومنها شق صدره عليه الصلاة والسلام كما أشار إلى ذلك الخطابي:

وفي حينها وافاه جبريل قاصدا ❁ وأقبل ميكائيل بالأمر تاليا
فشقا به صدر النبي لشرحه ❁ فكان لما يلقي له الله واعيا³⁶

ومن معجزاته الكبرى أيضا، اختفاؤه في الغار بمعية الصديق رضي الله عنهما، وفي ذلك قال الخطابي:

وأيته بالغار³⁷ إذ نزلت به ❁ وكان له الصديق بالصدق ثانيا
وقد أرسل الله الحمام لبابه ❁ وقارنه بالعنكبوت مضاهيا³⁸

34 - [ميمون الخطابي] الذيل والتكملة... (ص: 397)/ را: قصة رضاع حليلة السعدية للنبي صلى الله عليه وسلم ضمن: سيرة ابن إسحاق... (ص: 26)/ را: السيرة النبوية لابن هشام... ج 1، حديث حليلة عما رأته من الخير بعد تسلمها له عليه الصلاة والسلام، (صص: 162 إلى 164)/ را: فقه السيرة... للبوطي، (ص: 62).

35 - را: سيرة ابن هشام... مج 1، (ص: 162).

36 - الذيل والتكملة... (ص: 397)/ را: قصة شق صدره عليه السلام ضمن: سيرة ابن إسحاق... (ص: 27)/ راجع: أيضا السيرة النبوية لابن هشام... مج 1، (ص: 164)/ را: خلاصة الأثر في سيرة سيد البشر للشيخ أحمد محمد عساف. دار إحياء العلوم بيروت. ط 2، 1980م، (ص: 21).

37 - ولا يقصد بالغار هنا غار حراء: وهو من جبال مكة المكرمة على ثلاثة أميال ويقابله جبل ثبير، كان النبي عليه الصلاة والسلام يتحنث به قبل مجيئ الوحي. راجع: معجم البلدان للحموي... ج 2، (صص: 269-270). والمقصود هنا غار في جبل ثور بمكة حيث لجأ إليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله عنه. را: م ن، ج 4، (ص: 207).

38 - الذيل والتكملة... (ص: 398).

وفي ذلك قول الشقراطيبي أيضاً:

وأية الغار إذ وقيت في حجب * عن كل رجس لرجس الكفر منتحل
وقال صاحبك الصديق كيف بنا * ونحن منهم بمرأى الناظر العجل
حمت لديك حمام الوحش جائمة * كيدا لكل غوي القلب مختبل
والعنكبوت أجادت نسج حلتها * فما يخال خلال النسج من خلل³⁹

إن آية الغار توحى إلى التأمل في المخلوقات من عل، كما ترمز إلى الخلوة وعلاقتها بمراجعة الإنسان لنفسه وضميره ومواقفه من الذات ومن الحياة على السواء، وترمز أيضاً إلى الانطلاق من جديد، من أجل بناء عالم خالد يحمل رسالة روحية جديدة⁴⁰ وصداقة، يعم خيرها وكرمها كل الموجودات، وفي ذلك قال البوصيري الصنهاجي:

وما حوى الغار من خير ومن كرم * وكل طرف من الكفار عنه عمي
فالصدق في الغار والصديق لم يرما * وهم يقولون ما بالغار من أرم⁴¹
ظنوا الحمام وظنوا العنكبوت على * خير البرية لم تنسج ولم تحم⁴²

وكلما ذكرت قصة الغار إلا وتبادر إلى الأذهان قصة سراقه بن مالك بن جعشم العجبية، الذي ركب في أثر الرسول عليه السلام وصاحبه الصديق رضي الله عنه وهما في طريقهما إلى الغار ليختفيا، فلم يرجع حتى طلب من الرسول صلى الله عليه وسلم آية، ليكتب له الصديق بأمر من النبي عليه الصلاة والسلام: "كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟" فلم يمت سراقه حتى نفذ الله وعده ذلك لما جاءت عمر بن الخطاب رضي الله عنه غنائم الفرس احتوت على سوارى كسرى، فصاح الخليفة عمر أفي الناس سراقه بن مالك؟ فتقدم هذا الأخير فلبسهما وصعد على المنبر رافعا يديه وصوته قائلاً صدق الله ورسوله⁴³. وفي ذلك قال الخطابي:

39 - الرحلة المغربية. (ص: 45) / المناهل... (ص: 23).

40 - راج: عبقرية محمد. المجموعة الكاملة لمؤلفات عباس محمود العقاد. مج 1، العبقرية الإسلامية 1. دار الكتاب اللبناني بيروت، ط 1، س 1974م. (ص: 164) عندما قال العقاد: "لن تتحرك أمة إلا إذا فتحت أمامها باب المستقبل، ولن تلتفت إلى الماضي إلا إذا كان فيه التقاء بالمستقبل مع اعتبار الغار بوابة المستقبل".

41 - أرم: إنسان.

42 - قصيدة البردة لمحمد البوصيري (ت 689 هـ) مشروحة. إعداد محمد بن أحمد أشاعور. ط 3 الرباط، س 1992، (ص: 8).

43 - را: تفاصيل عن قصة سراقه هذا: السيرة النبوية... ج 2، (صص: 489-490) / خلاصة الأثر في سيرة سيد البشر... (ص: 97) وما بعدها / تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون، (ص: 135-136) / حياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوي قدم له وعلق عليه. د. محمد بكر اسماعيل، دار الحديث القاهرة. ط 1، س 1993 مج 4، (صص: 303-304).

وكم آية خست سُرَاقَةً إذ مشى * على أثر المختار للغار قافيا
فشاهد آثارا من الخسف كاد أن * يكون لقارون السفاه مؤاخيا
ولما دعا بالهاشمي أجاره * فأبصره في الحين من ذاك ناجيا
وأصحبه منه ظهيرا مكرّما * بخط أبي بكر يخيف الدواهيا
وأخبره أن سوف يفتح أمره * مدائن كسرى والبلاد الأقصيا
ويجعل في كفيه من بعد فتحها * سواراه مما يحرز الدين ساميا
فأنجزها الفاروق في حين فتحها * له عدة بالصدق فيها مباهيا⁴⁴
وقال الشقراطيبي أيضا:

وفي سراقاة آيات مبينة * إذ ساخت الحجر في رجل بلا وحل⁴⁵
ومن هذه المعجزات أيضا حنين الجذع إلى جلوس الرسول صلى الله عليه وسلم فوقه، وهذا
أيضا ذكره كثير من أصحاب الأمداح النبوية، وفي ذلك قال الخطابي:
وآيته إذ فارق الجذع فضله * فحن إليه الجذع في الحال شاكيا⁴⁶
وقال الشقراطيبي:

والجذع حن لأن فارقه أسفا * حنين ثكلى شجتها لوعة الشكل⁴⁷
ومنها معجزته عليه الصلاة والسلام عندما نبع الماء بين أصابعه حتى ارتوى منه جم غفير
وحتى كان وضوء لأصحابه رضوان الله عليهم. وهي لعمرى من المعجزات أيضا التي نقلت إلينا
بالأسانيد الصحيحة المتواترة والتي لا يرقى إليها الشك:

دعا بإناء ليس ينقع ماؤه * لقلته بالري من كان صاديا
ففاض نمر الماء بين بنانه * وكان وضوء للكتيبة كافيا⁴⁸

44 - الذيل والتكملة... (ص: 399).

45 - الرحلة المغربية. (ص: 45) / را: المناهل... (ص: 23).

46 - [ميمون الخطابي] الذيل والتكملة... (ص: 399).

47 - الرحلة المغربية. (ص: 45) / را: المناهل... (ص: 22).

48 - [ميمون الخطابي] الذيل والتكملة... (ص: 399) / را: صحيح البخاري بحاشية السّندي مطبعة دار إحياء الكتب العربية، فيصل الجليلي، مج 1 (دت)، (صص: 44-43) ضمن كتاب الوضوء.

وقال الشقراطيبي:

والماء ينبع جوداً من أناملها ❀ وسط الإناء فلا نهر ولا وشَل
حتى توضاً منه القوم واغترفوا ❀ وهم ثلاث مئين جمع محتفل⁴⁹

وتبقى معجزة الإسراء والمعراج من المعجزات التي دار حولها جدال عميق بين مصدق مؤمن،
وكافر جاحد يستبعد وقوع ذلك، أي أن يعرج بالرسول الأعظم روحاً وجسداً من الأرض إلى
السماء، رغم ثبوت ذلك بنص القرآن:

وأسرى به ليلاً إلى حضرة العلا ❀ فما زال فيها للحبيب مناجياً
وسار على ظهر البراق كرامة ❀ له راكبا إذ سار جبريل ماشياً⁵⁰
وذكر ذلك الشقراطيبي بقوله:

عرجت تخترق السبع الطباق إلى ❀ مقام زلفى كريم قمت فيه عل
من قاب قوسين أو أدنى هبطت ولم ❀ تستكمل الليل بين المر والقفل⁵¹
ومنها أيضاً معجزة انشقاق القمر على عهده صلى الله عليه وسلم حينما سأله المشركون آية،
فشق القمر حتى رأى أهل مكة حراء بين شقيه:
وإن انشقاق البدر أعظم آية ❀ ترد كل من كان للدين زارياً⁵²
وقول البوصيري:

أقسمتُ بالقمر المنشق إن له ❀ من قبله نسبة مبرورة القسم⁵³

ومهما حاولنا حصر معجزات وكرامات وآيات الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أوتي
جوامع الكلم، والذي اتفقت جميع أحواله وصفاته وأفعاله وتقريراته وأقواله على ترشيحه لقيادة

49 - الرحلة المغربية. (ص: 46)/ را: المناهل ... (ص: 24).

50 - [ميمون الخطابي] الذيل والتكملة... (ص: 398)/ الإسراء، الآية 1/ را: سيرة ابن اسحاق... (صص: 274-275)/ را: السيرة النبوية... ج 1، (ص: 391 وما بعدها) وعن قصة المعراج م ن، ج 2، (ص: 403...)/ را: خلاصة الأثر... (ص: 22 وما بعدها).

51 - الرحلة المغربية. (ص: 45)/ را: المناهل... (ص: 23).

52 - [ميمون الخطابي] الذيل والتكملة... (ص: 400)/ سورة القمر الآية 1/ راجع: عن قصة شق القمر. تفسير القرآن الكريم، للإمام الحافظ عماد الدين ابن الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت 774هـ) ضب، ومر، مكتب الدراسات والبحوث العربية الإسلامية، بإشراف الشيخ إبراهيم محمد رمضان، دار ومكتبة الهلال بيروت لبنان، ط 1، س 1990، مج 6، (ص: من 38 إلى 40).

53 - قصيدة البردة... (ص: 8).

العالم البشري، قيادة روحية بالدرجة الأولى إلى الخلاص، فإننا لن نُفلح، خاصة ونحن ما نزال في بداية التكوين، ومن تلك المعجزات، قصة البعير الذي جاء يشكو الرسول عليه السلام مظلمته، وقصة الجمل الذي خر ساجداً أمامه صلى الله عليه وسلم والدمع ينساب من عينيه، والذئب الذي ألقى على ذنبه يُعاتب الراعي فعلته، ويخبره بأن الرسول صلى الله عليه وسلم، في ذلك الحين يخبر الناس بنبي الأولين، وقصة تسليم الحجر والشجر... عليه، وقصة خاتم النبوة الذي بين كتفيه، وقصة بحيرة الراهب الذي أكرم وفادة محمد بن عبد الله عليه السلام بالشام، ووجد فيه ما كان قد قرأه في كتب الأولين عن نبوته قبل مبعثه⁵⁴، وقصته في أم معبد التي كانت تعيش في شدة من الجذب حين سأها محمد صلى الله عليه وسلم وأبو بكر أن تبيعها لحما أو تمراً، فما وجدا حاجتهما، وكانت بدارها شاة خلفها عن الغنم ما بها من هزال. فأمر الرسول عليه السلام بطست، فمسح عن ظهرها وضرعها فحلب منها حليباً ثرا ارتوى به كل من حضر. ولم يخرج تلك الأرض حتى نزل الغيث وأنبئت الأرض من كل زوج بهيج⁵⁵. وغير ذلك من الآيات:

وآياته جلت عن العدّ كثرةً ❁ فما بلغ الأقوال منها تناهيا⁵⁶

ولكن أعظم وأجل هذه المعجزات كلها، معجزة القرآن الكريم، رسالة النور التي عجز أرباب البيان والفصاحة عن المشركين على أن يأتوا ولو بأية من مثله مصداقاً لقوله عز وجل: "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً"⁵⁷، لسبب واحد هو أن القرآن كلام الله تعالى، الذي هو روح يحيى به الخلق ونور يهدي العباد: "ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا"⁵⁸، فهو إذن معجز بشكله وبمضمونه، وعليه تكون معجزات محمد عليه السلام هي معجزات القرآن الكريم أي: معجزة الله الخالدة والمخرجة من الفتنة، وهو الذي منه استمد الرسول الكريم عظمتها التي قال عنها العقاد: "ومكان عظمة محمد في التاريخ، أن التاريخ كله بعد محمد متصل به، مرهون بعمله، وأن حادثاً واحداً من

54 - را: عن هذه المعجزات حسب ترتيبها في الصفحات التالية: سيرة ابن إسحاق: (ص: 257)، (صص: 258-259)، (ص: 260 إلى 262)، (ص: 101)، (ص: 69 وأيضاً 71)، (ص: 53 وما بعدها)...

55 - را: خلاصة الأثر... لعساف، (ص: 98).

56 - [الخطابي] الذيل والتكملة... (ص: 400).

57 - سورة الإسراء، الآية 88.

58 - سورة الشورى، الآية 1. را: تفاصيل عن القرآن وإعجازه ضمن: إعجاز القرآن للقاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت 403هـ) قدم له وشرحه وعلق عليه محمد شريف سكر. دار إحياء العلوم بيروت، ط3، س1990، (ص: 244 وما بعدها).

أحداثه الباقية لم يكن ليقع في الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد وظهور عمله⁵⁹. ونحن نعلم أن محمداً المربي الأمين عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى، وإنما يتحرك في أقواله وأفعاله وتقريراته بقوة من الوحي المنزل عليه من لدن العلي القدير، والذي حقيقته هي "الفصل الوحيد بين الإنسان الذي يفكر من عنده ويشرع بواسطة رأيه وعقله. والإنسان الذي يبلغ عن ربه دون أن يغير أو ينقص أو يزيد"⁶⁰. إنه معجزة الله الخالدة.

لقد صدق ميمون الخطابي عندما جعل مسك ختامه لهذه الوحدة الدلالية حديثه عن معجزة القرآن الكريم الذي أوحى به إلى نبيه محمد خاتم النبيين والمرسلين موظفاً في ذلك أسلوب التفضيل مقروناً بواو العطف حتى يشير إلى الربط بين ما سلف من المعجزات وما سيأتي فحسم في ذلك بقوله:

وأعظمها الوحي الذي خصه به

فبلغ عنه أمراً فيه وناهيًا⁶¹

المغزى والدلالة:

لا شك أن هذه النماذج المقدمة عن معجزات النبي محمد عليه الصلاة والسلام، تمثل غيضاً من فيض، لكثرة الآيات المرتبطة به، سواء قبل وضعه أو معها وبعده، وقد بدا لنا أن لهذه الشرائع المحمدية أكثر من مغزى ومن دلالة منها:

• أن محمداً صلى الله عليه وسلم معجزة في حد ذاته، لا لأنه خارق للعادة بل لأنه غير ذلك رجل من جنس البشر فاقت أوصافه كل منظوم ومثثور. وقد صورته القرآن الكريم بأنه من أنفس الخلق كلهم وفي ذلك قال البوصيري:

محمد سيد الكونين والثقلين ❁ من والفريقين من عرب ومن عجم⁶²

• وكونه نبي معجزة أخرى بل كل المعجزات متعلقة بنبوته الشريفة لأن من معانيها العلو والارتفاع، وهما صفتان لا يمكن أن يتصف بهما أي كان من البشر وسائر المخلوقات. فالنبوة كما قال أحد الباحثين: "هي من المعاني الغيبية التي لا تخضع لمقاييسنا المحسوسة، وإذا فإن معنى المعجزة

59 - عبقرية محمد... للعقاد، (ص: 158).

60 - فقه السيرة... للبوطي، (ص: 83).

61 - [الخطابي] الذيل والتكملة... (ص: 400).

62 - قصيدة البردة... للبوصيري، (ص: 3).

الخارقة قائم في أصل كيانه عليه الصلاة والسلام. فلا يتسنى نفى المعجزات والخوارق عنه صلى الله عليه وسلم، إلا بهدم معنى النبوة نفسها ونسخها من حياته. وذلك يساوي بالبداهة إنكار الدين نفسه⁶³. إذن معجزاته عليه الصلاة والسلام جزء من نبوته، ونبوته جزء من الوحي - مع اعتبار الوحي كلا لا يقبل التجزئ إذ أجزاؤه متماسكة فيما بينها - والرسول عليه الصلاة والسلام لا ينطق عن الهوى وإنما يتحرك بوحي من ربه.

• ثم إن هذه المعجزات تدل من جهة أخرى على أن مجيء الرسول صلى الله عليه وسلم، مجيء ليوم أليم أقلق الرهبان والأحبار والمشركون الذين في قلوبهم مرض الجاهلية:

يوم تفرس فيه الفرس أنهم

قد أذروا بحلول البؤس والنقم⁶⁴

لقد ألمهم ذلك وقض مضاجعهم، لأن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام جاءت معاكسة لتيار الشرك والخضوع لسلطان الطاغوت. إنها رسالة تحمل لواء عقيدة روحية تؤمن ببناء حياة مستقبلية جديدة تتجاوز جاهلية كسرى وتاجه، واندفاع سراقه وغروره، وخرافة نيران الفرس، وتنبأت بحيرة وأصحابه، وسلطة سيف بن ذي يزن وحاشيته... ولعل إشارة الخطابي في يائته إلى انهيار إيوان كسرى وخمود نار الفرس، وقلق المشركين من الإنس والجن بمجيء محمد صلى الله عليه وسلم وتبشير المؤمنين من الثقليين في الأرض وفي السماء بوضع خير البرية، لإشارة لطيفة وعميقة في آن إلى انهيار جدار الشرك والطاغوت وسلطان الهوى، ثم إلى قيام بيت الله، بيت النور والإيمان والتحرر من عبودية الجهل والتبرئ من القيم التي لا قوام لها:

برئت من دين قوم لا قوام لهم عقولهم من وثاق الغي في عقل⁶⁵

• وعندما نتأمل تلك المعجزات المتعلقة بتلك الحيوانات: قصة الذئب، وقصة الظبية، وقصة الشاة، وقصة الجمل... نستنتج أن العقيدة الإسلامية لم تأت لتخلص الإنسان وحده من معاناته المادية والروحية، بل جاءت رحمة للإنسان والحيوان أيضاً لتخرجهما من همجية السلوك والتفكير المتخلفين.

• إن استحضارنا لقصة الغمامة التي تظلل الرسول عليه الصلاة والسلام عندما يشتد الهجير، أو قصة الجذع الذي يحن إلى جلوس خير البرية عليه، أو قصة الحجر والشجر الذي يسلم عليه صلى

63 - فقه السيرة... للبوطي، (ص: 149).

64 - [البوصيري] قصيدة البردة... (ص: 7).

65 - [الشقراطيسي] الرحلة المغربية. (ص: 46) / را: المناهل... (ص: 25).

الله عليه وسلم كلما مر بقربه... ندرك غاية الإدراك أن مجيء محمد عليه الصلاة والسلام مجيء للخلاص وللبرى، وللانعتاق من قيود الظلامية الفكرية والمادية التي سادت عصور ما قبل الإسلام - من غير أن نقصد إلى عدم الإيمان بالأنبياء والرسل الذين ظهروا قبل محمد عليه السلام - إنه خلاص عم الإنسان والحيوان والجماد بدون استثناء، من المتناهي في الصغر إلى المتناهي في الكبر، وبذلك يكون مجيء الإسلام بداية لعالم جديد عالم الفضيلة والقيم الربانية.

• إن تكرار هذه المعجزات في الشعر الديني منذ بدايته شيء لا يدعو إلى العجب كما لا يدعو إلى الملل ما دامت هذه الآيات تمتح مرجعيتها من النص القرآني والسني على السواء. وهو شيء يجد في تكراره الشاعر تطهيراً لنفسه وتسلياً لروحانياته وموعظة لغيره، وما دام القرآن لا يبلى ولا يمل على كثرة الرد، فإن هذه المعجزات كذلك، لأنها تستمد شحناتها المعنوية على الخصوص من هذا المصدر الرباني. وقد تكرر اقتباس الخطابي لكثير من التعابير والمعاني القرآنية⁶⁶ في يائته ومن ذلك قوله:

وإن انشقاق البدر أعظم آية ❀ تردّ على من كان للدين زارياً

فهو من قوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾⁶⁷. وفي قوله أيضاً:

تحدى به أهل البيان بأسرهم ❀ فكلهم ألفاه بالعجز وانياً⁶⁸

وهو من قوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله﴾⁶⁹. وفي قوله أيضاً:

فدليّ في أفق المهامه رفر ف ❀ وزجّ براق العز في النور راقياً⁷⁰

وهو من قوله سبحانه: ﴿ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى﴾⁷¹. وقوله:

وآيته في الغار إذ نزل به ❀ وكان له الصديق بالصدق ثانياً⁷²

66 - إن مسألة اقتباس النص القرآني بلفظه أو بمعناه أو بهما معاً، في الشعر النبوي أمر وارد، مع ما هناك من تفاوت في استغلال الشعراء لهذه الظاهرة.

67 - سورة القمر، الآية 1.

68 - الذيل والتكملة. (ص: 400).

69 - سورة البقرة، الآية 23.

70 - الذيل والتكملة. (ص: 396).

71 - سورة النجم، الآية 8 و9.

72 - الذيل والتكملة. (ص: 398).

إلى آخر القصة، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾⁷³ إلى آخر الآية. وقول الخطابي:

وأُسرَى به ليلاً إلى حضرة العلا ❁ فما زال فيها للحبيب مناجياً⁷⁴

وهو مأخوذ من قوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى...﴾⁷⁵. والنماذج كثيرة إذا حاولنا تخريج كل ما تتضمنه القصيدة من مادة قرآنية تلميحاً أو تصريحاً.

ب- أثر الشرائع المحمدية في اليائية:

يمكن اعتبار مطولة ميمون الخطابي من القصائد التي جاءت في مدح خير البرية عليه الصلاة والسلام، متبعة في ذلك نظم السيرة النبوية الشريفة بما في ذلك أفعاله وأقواله وتقريراته، حفظه الله تعالى في الجاهلية من عبادة الأوثان وارتكاب المعاصي، ما ظهر منها وما بطن، واصطفاه ليكون خاتم النبيين والمرسلين.

لقد كشف الوقوف على معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم الواردة في القصيدة، على كثير من شوائله عليه الصلاة والسلام، ومعجزاته وخصائص لم يتمتع بها أي مخلوق من المخلوقات لا قبل مجيئه ولا بعده. ومن خلال ذلك أفدنا العلاقة الرابطة بين العقيدة الإسلامية وكل الموجودات على الكون، ظاهرة كانت أو محجوبة، حية أو جامدة، صغيرة أو كبيرة. وبذلك فالتعرف على هذا الجانب المهم من سيرته صلى الله عليه وسلم من خلال تأمل معجزاته أمر يفضل الإسلام ويدعو إليه. لأنه لا يليق بمسلم مؤمن برسالة الإسلام جهل سيرة محمد صلى الله عليه وسلم، الذي خلقه القرآن الكريم.

إن اهتمام الخطابي في يائيته بصفات الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، انتباه منه إلى جانب مهم آخر من جوانب السيرة النبوية الشريفة، تلك الصفات المستمدة من قوله تعالى في محكم التنزيل ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾⁷⁶. واستعماله تعالى في وصف الرسول لصيغة "فعل" في قوله "عظيم" إشارة بليغة ودقيقة وعميقة في آن، إلى سمو وعلو قدر هذا النبي العظيم الذي قال في حقه أحد المهتمين بالسيرة النبوية: "كان صلى الله عليه وسلم، أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان،

73 - سورة التوبة، الآية 40.

74 - الذيل والتكملة. (ص: 398).

75 - سورة الإسراء، الآية 1.

76 - سورة القلم، الآية 4.

وكان أحسنهم خلقا وخلقاً، وألينهم كفا وأطيبهم ريحا، وأحسنهم عشرة، وأشد الله خشية، لا يغضب لنفسه ولا ينتقم لها وإنما يغضب إذا انتهكت حرمة الله فلا يقوم لغضبه شيء حتى ينتصر للحق، وكان خلقه القرآن، وكان أكثر الناس تواضعا يقضي حاجة أهله ويخفض جناحه للضعفة، وكان من أشد الناس حياء...⁷⁷ لقد رصد لنا الخطابي في يائته عددا كبيرا من صفاته عليه الصلاة والسلام. ولعل في ذكره لها إثارة انتباه المتلقي إلى هذه الخصال الطيبة التي كرم بها الله عز وجل نبيه المبارك، حتى يقتدى بها وتكون دليل الإنسان في حياته الخاصة والعامة، بل دليل الأنفس إلى التعلق بشخصية محمد صلى الله عليه وسلم، المربي الأمين والنموذج الحقيقي والواقعي للإنسان السوي. يقول الخطابي:

وما زال محروسا آمينا مؤمنا ❀ سبوقا صدوقا سامي الصدر عاليا

حبيا وفيها خاشعا متواضعا ❀ كريما حليما يستفز الرواسيا⁷⁸

إن صفة: الأمانة، والإيمان، والسبق إلى الخيرات، والصدق، والسمو، والرفعة ثم الوفاء، والخشوع، والتواضع، والكرم، والحلم، لصفات إن توفرت في أفراد أمة ما نجت من كل مكروه. إنها صفات فاضلة قادرة على تطهير الذات والمجتمع من كل الأفكار والتقاليد الفاسدة التي لا تزيد الأمة الإسلامية إلا انحرافا. إن الخلاص هو الاقتداء بمحمد صلى الله عليه وسلم من بناء الأمة المعجزة والذي وصفه الشقراطيسي بقوله:

خير البرية من بدو ومن حضر ❀ وأكرم الخلق من حاف ومُنْتَعِل⁷⁹

ويستمر في تفضيله وتزكيته لأنه عليه الصلاة والسلام مفضل ومقدر ومقدم عند الله عز وجل كما عند جميع عباد الله المخلصين بقوله:

أزكى الخليقة أخلاقا وأظهرها ❀ وأكرم الناس صفحا عن ذوي الزلل

تلکم علامات وصفات تكرر وتواتر ذكرها في كتب السيرة النبوية منذ أقدم مصدر في هذا المجال ويتعلق الأمر بسيرة ابن إسحاق⁸⁰ مما يدل على أن الخطابي على اطلاع مهم بما كتب حول السيرة النبوية، ونحن لا نشك في ذلك بعد أن تبين بالبرهان أن القصيدة اقتبست قدرا مهما من السيرة النبوية الشريفة.

77 - فقه السيرة... للبوطي، (صص: 473-474).

78 - الذيل والتكملة... (ص: 397).

79 - الرحلة المغربية. (ص: 48)/ را: المناهل... (ص: 29).

80 - وأيضا سيرة ابن هشام الذي يعتبر أوثق مصدر يوجد بين أيدينا ويسد غياب الأطراف الأخرى الغميسة المتممة للجزء المحقق في سيرة ابن إسحاق، والمعتمد في هذه الدراسة.

لقد كان الدعاء للنبي الأعظم مسك ختام الياثية كما درج على ذلك معظم مادحي الرسول صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك تطبيق لأمره عز وجل حيث قال في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾⁸¹. سلام مطلق عندما تتحقق الاستجابة من الله تعالى.

خاتمة:

تلك إذن، رحلة الذات الشاعرة والأمة على السواء نحو الخلاص، رحلة في المكان، من المغرب الأقصى إلى البقاع المقدسة الطاهرة الطيبة. ثم رحلة أيضا في الزمان، من زمان الشاعر ابن خبازة، إلى زمن النور، عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام. ثم كرة أخرى رحلة في الوعي والذاكرة من التعلق بالمدنس من الأفكار والتقاليد والأحاسيس التي سادت عصر الشاعر، إلى المقدس عندما يتم التواصل المباشر والاتصال بين وعي هذا العصر ووعي عصر الرسول عليه الصلاة والسلام، الذي يعتبر بحق المبدأ الذي بالتعلق به والتفاني في اعتناقه والإيمان به، تتطهر الأنفس من الدنس، ويصحو ضمير الأمة، لذا فمدحه انتصار للحق ضد الظلم، وللإيمان وللصدق ضد الكذب والضلالة... إنه انتصار للدين على الدنيا. وتلك مقصدية الشاعر وضالته، بل مقصدية كل من شعر بالخطأ ورام التكفير عن ذنبه والرجوع عن غيه.

إن ذلك التلاحم الحاصل بين الفرد والجماعة في المغرب الأقصى عبر العصور، هو ما جعل هذه القصيدة، مرة أخرى، مرآة تعكس موقف الأمة قاطبة من هذا الوقت العصيب، والواقع المختل المرفوض.

لذا آثرت هذه الأمة بدورها الرحيل نحو النور المحمدي الأبدي الذي كان موجودا قبل ولادة محمد عليه السلام وبقي بعد موته على حد تعبير الخطابي:

رسول براه الله من صفونوره ❁ وألبسه بردا من النور ضافيا

وما زال ذاك النور من عهد آدم ❁ ينير به الله العصور الخوالي⁸²

إنه نور رباني يخص به الله من يشاء من عباده، والرحيل نحوه رحيل إلى السلام السعيد، وغيابه غياب للأمل وللحضور.

81 - سورة الأحزاب، الآية 56.

82 - الذيل والتكملة... (ص: 395).

إن الخطابي بيأثته هاته - وفي ضوء ما سبق - استطاع أن يرسم بإبداعه صورة متكاملة لمرحلة مهمة من تاريخ الشعر العربي في المغرب الأقصى على عهد الموحدين، حيث انتصر خلالها شعر الدين. كما رسم بذلك صورة واقعية ونقدية في آن، لتلك العلاقة الرابطة بين الفرد والذات، كما بين الذات والجماعة من جهة!، وبين هذه الجماعة في المغرب الأقصى وموروثها الثقافي والحضاري والعقدي المقدس منه خاصة، إن على مستوى الداخل أو الخارج، من جهة أخرى.

إنها قصيدة الرحلة إلى المستقبل، إلى الخلاص عبر الماضي، وذلك اقتداء بتوجيهات الرسول عليه الصلاة والسلام. ومن هذا المنطلق نستطيع القول إن الخطابي كان يؤمن بسلفية متفتحة تسترشد قوتها من الماضي الزاهر بغية تصحيح الحاضر من أجل بناء مستقبل زاهر. والقرآن الكريم نفسه يؤيد فكرة الرحلة في أكثر من آية، كونها وسيلة للخلاص والنجاة قال تعالى: ﴿ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة﴾⁸³.

83 - سورة النساء، الآية 100.

مقالات جامعة
في السيرة النبوية والتكوف السنري

إمارة المؤمنين في التراث الصوفي السني المغربي

ذ. محمد طابخ
مفتش التعليم الثانوي
فاس

مقدمة:

نشأ التصوف بدافع الإقبال على الله تعالى وإقامة رسم الشريعة واتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبدا المتصوفة رجالاً قائمين على حدود الله وحفظ حقوقه وامتنال أوامره واجتناب نواهيه، مع الزهد في الدنيا وطلب الآخرة، والتوجه كلية إلى عبادة الله آناء الليل وأطراف النهار، قِيَاماً وَذِكْراً وَقِرَاءَةً قرآن وتعلُّماً وتعليماً وسعيًا في خدمة المسلمين وقضاء حوائجهم، لا يريدون حاجة، ولا يفعلون ذلك رياء ولا طمعا في جاه ولا مال، بل سالكين الطريق يترقون المقامات والمعارج؛ فكان التصوف تصوفا سنيا بكل المعاني والدلالات.

مضى التصوف والمتصوفة ما شاء الله تعالى من الوقت على الشريعة الحقة، والطريقة القويمة، وعلى السنة المحمدية المحجة البيضاء، في غمرة من الحق والحقيقة، والعرفان والمعرفة، ثم بدت ضلالات وانحرافات في السلوك الصوفي الذي كان طريقا مستقيما، فانقلب لدى البعض إلى سلوك منحرف، وتحولت الأفكار الصوفية النقية إلى تصورات وتخيلات لدى البعض أَدْخَلَتْ على العقيدة والشريعة معتقدات بعيدة عن القرآن والسنة، وعزلت الفكر الصوفي عن الفكر الفقهي، وتحول البعض من متصوفة خُلِّصَ إلى متصوفة آثروا الدنيا على الآخرة، والطمع على الزهد، وتحكيم الهوى على الالتزام والسمع والطاعة لأولي الأمر.

وإذا كان التصوف قد انزلق عن بعض مقاصده، وكان بعض المتصوفة قد تحولوا إلى مُدْعِينَ، وحادوا في أفعالهم عن طريق اليقين، فإن الحق المبين، قد انبلج صبحه، ولما أشرقت شمس الحقيقة، وتحركت الأرواح الزكية لدى بعض من أحبه الله وهداهم إلى طريق الحق، فرجعوا بالتصوف والمتصوفة إلى السنة، وإقامة رسم الدين، بعيدا عن كل انحراف، لأنهم جمعوا بين الشريعة والحقيقة، والفقهاء والتصوف، وتبين لهم أن:

"حكم الفقه عام في العموم؛ لأن مقصده إقامة رسم الدين، ورفع مناره، وإظهار كلمته، وحكم التصوف خاص في الخصوص؛ لأنه معاملة بين العبد وربّه، من غير زائد على ذلك.

فمن ثم صح إنكار الفقيه على الصوفي، ولا يصح إنكار الصوفي على الفقيه، ولزم الرجوع من التصوف إلى الفقه، والاكتفاء به دونه، ولم يكف التصوف عن الفقه، بل لا يصح دونه، ولا يجوز الرجوع منه إليه إلا به، وإن كان أعلى منه مرتبة، فهو أسلم وأعم منه مصلحة. ولذلك قيل: كن فقيها صوفيا، ولا تكن صوفيا فقيها.

وصوفي الفقهاء أكمل من فقيه الصوفية وأسلم، لأن صوفي الفقهاء قد تحقق بالتصوف حالا وعملا وذوقا، بخلاف فقيه الصوفية، فإنه المتمكن من علمه وحاله، ولا يتم له ذلك إلا بفقه صحيح وذوق صريح، لا يصح له أحدهما دون الآخر، كالطب الذي لا يكفي علمه عن التجربة ولا العكس، فافهم!"

رأيت أن أنقل هذه القاعدة من قواد التصوف للشيخ زروق بكاملها وعلى طولها لما تضمنته من آراء وأفكار إصلاحية:

- حكم الفقه والتصوف،
 - مقصد كل من الفقه والتصوف،
 - رتبة التصوف بالنسبة للفقه،
 - الفقيه والمتصوف في تصور الشيخ زروق.
- ومهما يكن، فإنه قد تيقظ متصوفة كثر، وبدوا قائمين على الحق، ومقيمين الدين والشرعية، ومتبعين السنة والطريقة، كابن عطاء الله السكندري والكرخي والقرشي وابن عربي وزروق والكتتي والحراق...

وبخصوص الشيخ زروق، أطلق العلماء والمتصوفة والفقهاء عليه لقب (محتسب العلماء والأولياء)، هذا اللقب الذي لم يطلق عليه إلا لدرجة علمه، وسنية تصوفه، ولفكره الإصلاحي داخل قطاعات لها ما لها من القوة العلمية والفكرية، سواء في قطاع الفقه أو في قطاع التصوف أو في قطاع الطرق الصوفية.

1 - قواعد التصوف، الشيخ أحمد زروق، ضبط وتعليق محمود بيروتي، الطبعة الأولى، 1424هـ-2004م، دار البيروتي، سوريا - دمشق، ص 40.

وقد ظهر في الجنوب المغربي خلال القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي الشيخ المختار الكنتي (الحفيد)، كان شخصية صوفية ذات وزن علمي صوفي، وتاريخي جغرافي، ومن آثاره في موضوع إمارة المؤمنين الرسالة الصوفية التي بعثها إلى أمير المؤمنين مولاي عبد الرحمن بن هشام. كما ظهر في الشمال في نفس الفترة محمد الحراق الذي لا يقل شهرة - بل أكثر - عن الكنتي؛ إذ كان ذا علم وصلاح وإصلاح، وكان شيخا للطريقة القادرية الدرقاوية، وتعلمد على الشيخ العربي الدرقاوي المشهور.

انتشر التصوف - فكريا وطريقة ومنهجيا تربويا - على طول البلاد العربية الإسلامية؛ وخاصة في بلاد المغرب وصحرائه الكبرى، فدخل - في تاريخ قديم - حواضر المغرب الكبرى وبواديها، وظهرت طرق صوفية عديدة، وتأسست زوايا كثيرة، وأنجبت البلاد المغربية أعلاما كبارا في التصوف أمثال الشيخ زروق البرنسي نسبة إلى قبيلة البرانس بإقليم تازة، والشيخ المختار "الكتاوي"² أو "الكنتي الحفيد نسبة إلى قبيلة كنت"³، والشيخ محمد الحراق الشفشاوني ثم التطواني.

هذا، وسيتطرق البحث الحالي إلى "إمارة المؤمنين" وملازمة السمع والطاعة لأمر المؤمنين في التراث الصوفي السني المغربي من خلال ثلاث رسائل صوفية لأعلام صوفيين من شمال المغرب ومن جنوبه، الأولى: "مبنى الطريقة في أصول الطريق" للشيخ أحمد زروق (ت 899هـ)، والثانية رسالة للشيخ المختار الكنتي الحفيد (ت 1242هـ). أرسلها لـ "مولاي عبد الرحمن بن هشام" والثالثة رسالة للشيخ محمد الحراق (ت 1261هـ) أرسلها - أيضا - لـ "مولاي عبد الرحمن بن هشام".

وقد انطلق البحث من سؤال مركزي، هو: أي موقع لإمارة المؤمنين في التراث الصوفي السني المغربي؟ ويجيب البحث عن هذا السؤال - بتركيز وباختصار - في ثلاثة محاور:

- 1- موقع إمارة المؤمنين في التراث الصوفي للشيخ أحمد زروق البرنسي (ت 899هـ).
- 2- موقع إمارة المؤمنين في التراث الصوفي للشيخ المختار الكنتي الحفيد (ت 1268هـ).
- 3- موقع إمارة المؤمنين في التراث الصوفي للشيخ محمد الحراق الشفشاوني (ت 1261هـ).

وقد اعتمد البحث على المنهج الوثائقي؛ حيث حاول أن يتعرف موقع إمارة المؤمنين في التراث الصوفي المغربي، باعتبارها مكونا رئيسا من مكونات البنية العامة للأمة، وثابتا مركزيا من الثوابت التي تمثل الدعائم التي يقوم عليها بناء صرح نظام الحكم في بلادنا.

2 - انظر: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، الشيخ محمد بن محمد مخلوف، دار الفكر، غفل من الطبعة والتاريخ، ص 377.

3 - جُنَّة المُرِيد دُون المُرِيد، تأليف العلامة الشيخ محمد بن المختار الكنتي (ت 1242هـ/1826م)، دراسة وتحقيق: د. محمد المهداوي، الطبعة 1433هـ/2012م، الرابطة المحمدية للعلماء، مركز الإمام الجنيد للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة - وجدة، المغرب 22/1.

مدخل: إمارة المؤمنين وملازمة السمع والطاعة لأمر المؤمنين في التراث الصوفي السني المغربي:

لا شك أن البحث في هذا الموضوع ليس سهلاً يسيراً؛ إذ يتطلب الرجوع إلى مصادر علمية كثيرة في التصوف المغربي، كما يتطلب جهداً كبيراً، ووقتاً أطول، لأن المصادر التي تتطرق إلى إمارة المؤمنين وما تستلزمه من السمع والطاعة، هي رسائل في الغالب، أما كتب القوم فقلما تجد إشارات أو خطابات صريحة تتطرق إليها. بينما تجد الحديث مستفيضاً فيها عن الشيخ والمشيخة، وعن المراد والمريد، والسمع والطاعة للشيخ. وذلك للاهتمام البالغ بتربية المريدين والتلاميذ التابعين للمشايخ السادة الصوفيين. وفي هذا الخطاب الصوفي التربوي ما يستتج منه أو يستنبط أو يفهم بطريق ما أن السمع والطاعة لأمر المؤمنين هي بالأولى.

ومن مشاهير المشايخ الصوفية الذين تطرقوا في كتاباتهم إلى "إمارة المؤمنين" الشيخ زروق الذي دعا إلى السمع والطاعة لأمر المؤمنين، وجعل ملازمتها أصلاً من أصول الطريق، في رسالته: "مبنى الطريقة"، ونجد صوفياً مغرباً من الصحراء هو الشيخ المختار الكتتي الحفيد دعا في رسالته إلى السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام العلماء ورؤساء الأجناد ومن بالحضرة الشريفة إلى "السمع والطاعة" لولي الأمر ومناصحته ومحبه والدعاء له، وهذا الأمر سائر - والله الحمد - في الناس إلى يومنا هذا في المغرب الحاضر، فما من مغربي على المستويين الرسمي وغير الرسمي إلا ويكنُّ محبة خالصة وخاصة لأمر المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله، ويلزم السمع والطاعة، ويدعو له في كل محفل ومناسبة واجتماع وتجمع وتجمع بالنصر والتمكين، وبالحفظ والسداد. وإن صوفياً آخر هو الشيخ محمد الحراق الشفشاوني أرسل - كذلك - رسالة إلى المولى عبد الرحمن بن هشام يثني فيها عليه، ويقدم له بعض الوصايا والنصائح؛ لما وصله عنه من أخبار حسنة وسيرة مستحسنة؛ فها هو هذا الشيخ يبادر - بمجرد ما أن وصلته أخبار سارة وحسنة عن أمير المؤمنين - إلى توجيه رسالة إليه ضمنها مجموعة من عبارات الولاء والسمع والطاعة مع الدعاء له، ومن تلك العبارات هذه العبارة: "حملتنا شدة البسط بذلك على مد يد الأخوة في الله إليكم وبسط اللسان بمذاكرتكم حرصاً على زيادة الخير لكم؛ لأن مقام الإمارة عظيم الفتنة إلا من عصمه الله، ولأن المسلمين محتاجون لأمثالكم؛ فسدادكم سداد الجميع"⁴.

بعد هذا سيتطرق البحث إلى موقع إمارة المؤمنين في التراث الصوفي المغربي السني لدى زروق والكتتي والحراق وفقاً لما هو مرتب في الفقرات التالية:

4 - رسائل الشيخ محمد الحراق في التصوف (ت هـ-1845م)، دراسة وتحقيق: د. محمد رشيد أكديرة، سلسلة مآثورات السلوك 5، سنة الطباعة 1433هـ-2012م، ط (1)، مركز الإمام الجليل للدراسات والبحوث الصوفية المتخصصة - وجدة، المغرب، ص 340.

أولا: موقع إمارة المؤمنين في التراث الصوفي للشيخ أحمد زروق البرنسي⁵ (ت 899هـ):

للشيخ زروق تراث صوفي سني متميز؛ إذ إنه "يجمع بين الشريعة والحقيقة ويصل الأصول والفقه بالطريقة"⁶ ويتضمن خطابا يتناول الطريقة الزروقية وأصولها، وما يزال البحث في هذا التراث الصوفي الزروقي يطلع علينا كل مرة بالجديد، وهذا طَبْعِيٌّ؛ لأن لكل باحث أو دارس زمانه، ولكل اهتماماته، فليس بمقدور أحد أن يوقف عجلة الاختلاف والتفكير والرؤية والتصور، لكل تصوره ورؤيته، ولكل مواقفه ومقاييسه. سيما وأنا أمام شخصية سجل التاريخ لها ما لم يسجله غيرها، سجل التاريخ لزروق مواقف وتوجهات، وحفظ له تراثا صوفيا سنيا إصلاحيا، هذا التراث أولى لمكون "إمارة المؤمنين" - باعتباره من مكونات بناء الأمة - أهمية داخل قطاع التصوف وخارجه؛ لما تستوجه "إمارة المؤمنين" من سمع وطاعة، وولاء ومحبة، وهذا ما جعل الشيخ زروق يستحضر هذا المكون في خطابه، بما هو أصل أصيل؛ فدعا إلى ملازمة السمع والطاعة لأمر المؤمنين، في أول أصل من أصول الطريقة الزروقية التي ما تزال ولن تزال حية بجانب الطرق الصوفية الكبرى كالشاذلية والتيجانية والدرقاوية والعيساوية والبودشيشية وغيرها.

قال الشيخ سيدي أحمد زروق العارف الفقيه محتسب الصوفية العلماء والأولياء في رسالته في أصول الطريقة:

"أصول طريقتنا التي تنبني عليها عشرة أشياء : خمسة ظاهرة وخمسة باطنة. أما الخمسة الظاهرة فأولها ملازمة السمع والطاعة لأمراء المسلمين وعامتهم وخاصتهم من أهل الله، فلا يُخَالَفُ عليهم بقول ولا بفعل بل إيمان وتسليم، والثاني لزوم الخمس في الجماعة بحسب الإمكان فإن كان في الجامع الأعظم فهو أولى، وتكفي المرأة والصبي وأي من كان من المسلمين في تحصيل فضلها، الثالث القناعة

5 - الشيخ زروق هو: سيدي أحمد بن أحمد بن محمد بن عيسى البرنسي الفاسي الشهير بزروق الشيخ الإمام العالم الفقيه المحدث العلامة الصوفي الولي الصالح الزاهد القطب الغوث العارف بالله الرَّحْلَةُ الحاج المجاور المشهور شرقا وغربا ذو التصانيف العديدة والمناقب الحميدة والفوائد العتيدة. قد عرف هو بنفسه وأحواله وشيوخه في كُنَاشَتِهِ وغيرها، فقال: " ولدت يوم الخميس عند طلوع الشمس ثامن وعشرين من شهر الله المحرم سنة 846 ست وأربعين وثمانمائة " وتوفي رحمه الله بتكرين من قرى مسراته من عمل طرابلس الغرب في صفر عام 899 تسعة وتسعين وثمانمائة.

وتجمع المصادر التي ترجمت له قديما وحديثا أنه " برنسي " نسبة إلى قبيلة البرانس، وبالضبط من قرية تليوان بقبيلة الطايفة المجاورة لقبيلة مكناسة ناحية تازة على بعد 15 كيلومترا تقريبا كما ذكر علي فهمي خشيم عن ليو أفريكانوس.

انظر على الخصوص:

- كتاب البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تأليف محمد بن محمد بن أحمد اللقب بابن مريم، تحقيق محمد بن يوسف القاضي، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، ط (1)، القاهرة: شركة نوابغ الفكر، 2010، ص 55.

- أحمد زروق والزروقية، علي فهمي خشيم، دار المدار الإسلامي، ط (3)، 2002، ص 27 وما بعدها.

6 - قواعد التصوف، الشيخ أحمد زروق، مصدر سابق، ص 11.

بقليل الرزق وكثيره بأي وجه تحصل من الوجوه المباحة، الرابع إقامة الأوراد الشرعية بحسب ما يكون صالحا للإنسان في دينه ودنياه، وذلك يختلف باختلاف الناس، الخامس إيثار الخمول بترك الفضول وعدم المنازعة والعناد في كل قول وفعل، وفي ذلك يقول القائل:

وَقَائِلَةٌ مَا لِي أَرَاكَ مُجَانِبًا * أُمُورًا وَفِيهَا لِلتَّجَارَةِ مَرْبَحُ
فَقُلْتُ لَهَا مَا لِي بِرَبِّكَ حَاجَةٌ * فَخَنُّ أَنْاسٍ بِالسَّلَامَةِ نَفْرَحُ

وأما الخمسة الباطنية فأولها الإعراض عما يرجى أو يخشى من قبل الخلق بأن لا يرجى منهم دفع ولا جلب، ولا يتوجه إليهم في طلب ولا هرب، الثاني الإقبال على الله، بأن لا تطلب حوائجك قلَّت أو جلت إلا منه، الثالث إقامة رسم الشريعة بلزوم الأسباب من غير استناد ولا اعتماد، بل كما قال ابن عطاء الله: "لا بد من الأسباب وجودا والغيبة عنها شهودا، فأثبتها من حيث أثبتها الحق بحكمته، ولا تستند إليها لعلمك بأحدثته"، الرابع الخروج من الكلف بأن تكلف ولا تتكلف، وإن جرى لك شيء من ذلك فلا تعد له ودع الخلق وما دفعوا إليه فمراد الحق ما هم عليه، الخامس أن لا تعمل عملا إلا بقصد ونية، فكل عمل لا تصحبك فيه نية ولا قصد صالح فلا تقربه فإنه لا فائدة فيه. وبعد هذه الخمس خمس لا بد لك منها: مجاملة الخلق، ومحاسنتهم في الأمور والحذر منهم في عين حسن الظن بهم، وموافقتهم في كل أمر لا يخالف الشرع ولا يضر بالدنيا ولا ينقص العقل، واتباع العلم في كل ورد وصدر، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "العلم إمام العمل والعمل تابعه"، وقال صلى الله عليه وسلم لمن استوصاه: "اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن"، فمن ثم قال الشيوخ: "الإنسان مبتلى بنفسه والوقوع في المعصية لا يقضي بعدم الاستدراك"، فالواجب على المريد أن لا يعزم على محذور ولا يفرط في مأمور، فإن وقع فليبادر المعصية بالتوبة والنقيصة بالإنابة، والفرق بين المعصية والنقيصة أن المعصية ما فيه إثم كالزنى والنقيصة ما فيه عيب كالطمع. وقد قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه: "اجعل التقوى وطنك، ثم لا يضررك فرح النفس ما لم ترض بالعيب أو تصر على الذنب أو تسقط منك الخشية بالغيب" اهـ. وهو مدار الأمر وجملته وبالله التوفيق⁷.

هاته الرسالة في "أصول الطريق" للشيخ زروق أوردها الأستاذ سيدي عبد الله كنون في "النبوغ المغربي في الأدب العربي" من دون تحديد للمصدر الذي أخذها منه، كما أكدته علي فهمي

7 - النبوغ المغربي في الأدب العربي. تأليف عبد الله كنون. (1-3). دار الثقافة. غفل من تاريخ ورقم الطبعة. 604/2.

خشيم في كتابه "أحمد زروق والزروقية"؛ حيث قال: "نشر الشيخ عبد الله كنون هذه القطعة في كتابه "النبوغ المغربي في الفكر⁸ العربي" دون الإشارة إلى المصدر"⁹.

غير أن الدكتور حسن شاهدي في كتابه: "الكتابات التنظيرية الصوفية" قد تحدث عن "رسائل في أصول الطريق" للشيخ، حيث قال: "لزروق رسائل مختلفة تدخل في توجيه المريدين ونصحهم وإرشادهم إلى ما يجب التحلي به والتخلي عنه في الطريق"¹⁰. وقد أوردها - أيضا - عبد الحفيظ الفهري الفاسي في الترجمان المغرب¹¹.

والرسالة المذكورة هي الرسالة الثانية من بين ثلاث رسائل ذكرها الحسن شاهدي. وهي: "1- أصول الطريقة الزروقية. 2- مبنى الطريقة الزروقية. 3- رسالة في الطريقة والشيخ والمريد"¹². قال في تقديم هذه الرسالة: "أما الرسالة الثانية فهي تقدم الأسس التي تنبني عليها الطريقة الزروقية كذلك، لكنها أكثر إيجازا واختصارا، فأصول الطريقة فيها لا تتعدى خمسة عشر أصلا. ولذلك لم تكن في مستوى الرسالة السابقة من حيث الذبوع والشهرة، وإن عدَّ عبد الحفيظ الفهري الفاسي (ت 1383هـ) ما تضمنته أساس الطريقة الزروقية حين ضمنها كتابه "الترجمان المغرب عن أشهر فروع الشاذلية بالمغرب"¹³ 14".

وعن مضمونها يقول: "والرسالة تركز في تقديم الطريقة الزروقية على خمسة عشر أصلا فقط، خمسة منها تتصل بسلوك المريدين والأتباع وهي: طاعة الأمراء المسلمين¹⁵، ملازمة الجماعة في الصلوات الخمس، القناعة، إقامة الأوراد، إثارة الخمول. وخمسة في التربية وهي: الإعراض عن الخلق، والإقبال على الله، ولزوم الأسباب في الأعمال، والخروج من الكلف، وحضور النية في الأعمال. وخمسة فيما يجب على المريد من خصال توخا للاندماج في المجتمع ومعايشة الخلق مما

8 - الكتاب الذي بين يدي وفي ملكي بعنوان: "النبوغ المغربي في الأدب العربي".

9 - علي فهمي خشيم، أحمد زروق والزروقية، دار المدار الإسلامي، ط (3)، 2002، ص 138.

10 - الكتابات التنظيرية الصوفية - التوجيه، التقعيد، التسنين، د. الحسن شاهدي، مطبعة الأمانة، المغرب - الرباط، غفل من رقم الطبعة والتاريخ، ص 94.

11 - الترجمان المغرب خخ 10991 ورقة 35، خع د 4400 ورقة 35 (حسبها في الكتابات التنظيرية الصوفية، د. الحسن شاهدي).

12 - الكتابات التنظيرية الصوفية - التوجيه، التقعيد، التسنين، د. الحسن شاهدي، مرجع سابق، ص 98.

13 - أشار د. الحسن شاهدي إلى هذا الكتاب في الهامش رقم 235 في الصفحة 98 كما يلي:

"الترجمان المغرب خخ 10991 ورقة 35، خع د 4400 ورقة 35".

14 - الكتابات التنظيرية الصوفية - التوجيه، التقعيد، التسنين، د. الحسن شاهدي، مرجع سابق، ص 97-98.

15 - في الأصل: "ملازمة السمع والطاعة لأمراء المسلمين...".

يكشف عن الطابع الاجتماعي للزروقية، وهذه الخمسة التي لا بد منها للمتصوف عامة هي: مجاملة الخلق، ومحاستهم في الأمور، والحذر منهم مع حسن الظن بهم، وموافقتهم فيما لا ضرر فيه، واتباع العلم في كل ورد وصدر¹⁶.

ومهما يكن، فإن الشيخ زروق وضع أصولا لطريقته؛ من أجل تربية المريديه وغيرهم، وتوجيهها ونصحها وإرشادها لهم، ومن دون إغفال منه، أخذ في الاعتبار توطين وتوطيد سنة مهمة من سنن الإسلام، وهي "إمارة المؤمنين" أو "إمارة المسلمين" اقتداء بالرسول الأكرم وبسنن الخلفاء والتابعين وتابعي التابعين، سيما وأن العصر الذي عاش فيه الإمام زروق متجولا سائحا على طول الشمال الإفريقي والجزيرة العربية والشام قد شهدت فيه هذه المناطق أوضاعا سياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة، وتوجهات علمية وفكرية متنوعة وبخاصة في قطاع الفكر الصوفي.

وهذا الأصل من أصول الطريقة الزروقية الذي يدعو فيه زروق إلى السمع والطاعة صراحة قد دلت عليه الأدبيات الصوفية، سواء فيما يخص الخطاب الطرقي أو فيما يخص الخطاب المريدي، إذ يؤكد كل المتصوفة على المريدين أن يسمعو للشيخ الطريقة ويطيعوه، ولا يخالفون عليه، ومن ثم فإن ما تدل عليه هذه الخطابات من طلب السمع والطاعة للشيخ من المريدين، فإن طلبهما منهم لأمر المؤمنين فهو من باب الأولى؛ لأن الطاعة والسمع للشيخ أولى منه الطاعة والسمع لأمر المؤمنين؛ إذ إن هذه "الأولية تتبادر إلى الفهم بمجرد فهم اللغة من غير حاجة إلى اجتهاد أو قياس، فإنه يفهم لغة أن النص يتناول الواقعتين، وأن حكمه الثابت لمنطوقه يثبت لمفهومه الموافق له في العلة، سواء كان مساويا أم أولى"¹⁷.

نعم، إن الشيخ زروق - وهو يؤصل الطريقة الزروقية - استحضر - ربما لسبب - أن يكون الأصل الأول من أصول الطريق: "ملازمة السمع والطاعة لأمراء المسلمين..."؛ إذ هو الصوفي السني الذي يجمع بين الشريعة والحقيقة، يأبى إلا أن تكون إمارة المؤمنين أو إمارة المسلمين حاضرة - منطوقا وعبارة لا مفهوما - في الفكر الصوفي السني، بل حاضرة في التأصيل الطرقي، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ترسيخ العمل بالكتاب والسنة، كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ إذ يأمر الله تعالى بطاعة أولي الأمر في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾¹⁸، ويوصي الرسول صلى الله عليه وسلم بالسمع والطاعة لأمراء المسلمين قال صلى الله عليه وسلم: (أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ)

16 - الكتابات النظرية الصوفية - التوجيه، التقعيد، التسنين، د. الحسن شاهدي، مرجع سابق، ص 98.

17 - علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، دار القلم - الكويت، ط (10)، 1392هـ-1972م، ص 148.

18 - سورة النساء. الآية: 58.

فلا يُخَالَفُ على أمير المؤمنين "بقول ولا بفعل بل إيمان وتسليم". وهذا الأصل، أي السمع والطاعة لأمر المؤمنين مما يلزم الصوفي في سلوكه وتعليمه وتربيته. "عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "عَلَيْكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ. وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ. وَأَثَرُهُ عَلَيْكَ"¹⁹. قال الإمام النووي رحمه الله تعالى في شرح هذا الحديث: "قال العلماء: معناه تجب طاعة ولاية الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمعصية (...) والأثرُ بفتح الهمزة والثاء ويقال بضم الهمزة وإسكان الثاء وبكسر الهمزة وإسكان الثاء ثلاث لغات حكاها في المشارق وغيره وهي الاستثارة والاختصاص بأمور الدنيا عليكم، أي اسمعوا وأطيعوا وإن اختص الأمراء بالدنيا ولم يوصلوكم حقكم مما عندهم وهذه الأحاديث في الحث على السمع والطاعة في جميع الأحوال، وسببها اجتماع كلمة المسلمين فإن الخلاف سبب لفساد أحوالهم في دينهم ودنياهم"²⁰. و"عن يحيى ابن حصين. قال: سمعت جدتي تحدث؛ أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يخطب في حجة الوداع، وهو يقول: "وَلَوْ اسْتُعْمِلَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ يَقُودُكُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا"²¹.

ومن هذا الخط / المنطلق الصوفي الزروقي، بل من "إمارة المؤمنين" ركز زروق البرنسي في تراثه الصوفي على هذا الأصل، وهو: "مُلَازِمَةُ السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لِأَمْرَاءِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَتِهِمْ وَخَاصَّتِهِمْ مِنْ أَهْلِ اللَّهِ فَلَا يُخَالَفُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلٍ وَلَا فِعْلٍ بَلْ إِيمَانٌ وَتَسْلِيمٌ"، وذلك من خلال نص له مركزيته في الخطاب الطُرُقِيّ، ففيه يتصدر هذا الأصل الأصول العشرة الزروقية، وهو أصل مستوحى من الحديث النبوي الشريف الذي ورد فيه:

"عن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً، وَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعَيُونُ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَأَنَّهَُا مَوْعِظَةُ مُودَعٍ، فَأَوْصِنَا، قَالَ: أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعْشُ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ". رواه أبو داود والترمذي²².

يقرر هذا الحديث أصلا عظيما من أصول الدين، ويؤكد ركنيته التي يقوم عليها بناء الدولة في الإسلام، إنها وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأئمة، وصيته بالسمع والطاعة لأمر المؤمنين "أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ تَأَمَّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ" والسمع والطاعة سنة من السنن،

19 - صحيح مسلم، بشرح النووي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط (1)، 1415هـ-1995م، 189/12.

20 - المصدر نفسه. 187/12-188.

21 - المصدر نفسه. 190/12.

22 - جامع العلوم والحكم، ابن رجب الحنبلي، مؤسسة الرسالة، سنة النشر: 1422هـ/2001م، (الحديث الثامن والعشرون أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد)، ص (109).

ومخالفتها بدعة وضلالة، قال صلى الله عليه وسلم: "فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ". وبناء على هذا فإن ما يميز التصوف المغربي - وبخاصة لدى الشيخ زروق - الطابع السني الذي يقرره الحديث السابق.

ونجد مصادر أخرى تُعنى بهذا الأصل في توجيهاتها؛ لأن الإمارة الممثلة في مؤسسة أو حاكم أو قائد أو ولي أو غير ذلك هي من أجل تدبير شأن عام (مملكة، دولة، شعب، رعية) أو شأن خاص (قيادة جيش، ولاية، عمالة)؛ إذ السمع والطاعة للأمير من بين الأمور التي يجب أن تولى الاهتمام وتُؤخَذَ بعين الاعتبار في كل القضايا السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، قال أبو الليث السمرقندي²³: "وعن عوف بن مالك الأشجعي أنه قال: من أراد أن يكون غازيا حقا مجاهدا في سبيل الله بالسنة فليحافظ على عشر خصال...". وذكر منها هذه الخصلة، وهي الخامسة: "أَنْ يَسْمَعَ - أي الغازي - وَيُطِيعَ لِأَمِيرِهِ وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبَشِيًّا بَعْدَ مَا كَانَ أَمِيرًا عَلَيْهِ"²⁴.

ثانيا: موقع إمارة المؤمنين في التراث الصوفي للشيخ المختار الكنتي²⁵ (ت 1268هـ):

كتب الشيخ المختار الكنتي (ت 1268هـ) من عمق الصحراء²⁶ المغربية الرسالة العجالة الرائقة في العمالة إلى المولى عبد الرحمن بن هشام يلتبس فيها منه رعاية التلامذة الصوفيين التابعين له. ومما جاء في هذه الرسالة التي هي أطول بكثير من رسالة زروق السابقة، ورسالة الحراق الآتية، النص الموالي:

23 - تنبيه الغافلين، أبو الليث نصر بن محمد الحنفي السمرقندي (ت 373هـ)، علق عليه وخرج أحاديثه: عبد الرحمن الهاشمي - كلية أصول الدين، شركة القدس، ط (1)، غفل من التاريخ. ص 376.

24 - نفسه. ص 376.

25 - الشيخ المختار الكنتي: هو المختار بن محمد الملقب (الشيخ سيدي محمد الخليفة) بن المختار الكنتي بن أحمد بن أبي بكر بن محمد ابن حبيب الله بن الوافي بن عمر الشيخ بن أحمد البكاي بن محمد الكنتي بن علي بن يحيى بن عثمان بن يهس بن دومان بن ورد بن يعقوب بن العاقب بن عقبة بن نافع". كان رحمه الله تعالى من أولياء الله العارفين، جمع بين الشريعة والحقيقة، وله كرامات كثيرة وخوارق وعادات، ألف نحو الأربعين تأليفا، منها الكتاب الذي بين يدي "جنة المريد دون المريد".
انظر: جنة المريد دون المريد، تأليف العلامة الشيخ محمد بن المختار الكنتي (ت 1242هـ/1826م)، دراسة وتحقيق: د. محمد المهداوي، الطبعة 1433هـ/2012م، 22/1-24.

26 - إلى حدود القرن التاسع عشر الميلادي كانت الأقاليم الصحراوية تمتد "في اتجاه الجنوب حتى نهر السنغال، وتشكل بذلك امتدادا طبيعيا للتراب المغربي، وهذا ما يفسره خضوعه للسيادة المغربية منذ قيام الدولة المرابطية على الأقل حتى مطلع القرن العشرين، باستثناء بعض فترات الضعف التي كان يتراجع خلالها نفوذ المغرب مؤقتا على ذلك الجزء من صحرائه. لكن عندما كان يسترجع هيئته ومناعته كان إشعاع حضارته ونفوذه يتعدى إقليم شنقيط ليشمل مناطق موغلة في إفريقيا جنوب الصحراء تتعدى ضفاف نهرى النيجر والسنغال، كما حدث في عهد السلطان المنصور السعدي (...) ولم تنقطع الأقاليم الشنقيطية فيما يسمى حاليا موريطانيا، والنيجيرية (مالي) من جسد المغرب الأصلي إلا بعد التآمر الأوربي عليه، بعد إجباره أحيانا عن طريق المعاهدات السرية منها والعلمية، وأحيانا أخرى بالقوة، على التخلي على هذا الجزء العزيز من كيانه".

انظر: الولاء والبيعة في الصحراء المغربية والسودان الغربى من خلال مجموعة من النصوص التاريخية، ذ. أحمد الأزمى، مجلة "دعوة الحق" العدد 408 رمضان 1435هـ/يوليوز 2014م.

"والسلام على من بالحضرة الشريفة عموماً، وخصوصاً العلماء ورؤساء الأجناد، وأوصيهم بتقوى الله وطاعة أميرهم ونصحه وتذكيره، وإعانتته بالأنفس والأموال، والرغبة في الجهاد وإخلاص النية فيه بقصد أن تكون كلمة الله هي العليا، والثقة بوعده الله عليه، وقد ورد في الأحاديث الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالسمع والطاعة لولي الأمر ومناصحته ومحبته والدعاء له"²⁷.

وقد استدلل الشيخ المختار الكنتي الحفيد عقبه بحديث شريف على ذلك، قال: "عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميراً فقد أطاعني ومن عصى أميراً فقد عصاني)²⁸. والحديث كما في صحيح مسلم: "... حدثنا أبو سلمة بن عبد الرحمن عن أبي هريرة، عن رسول الله أنه قال: "مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ. وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ. وَمَنْ أَطَاعَ أَمِيرِي فَقَدْ أَطَاعَنِي. وَمَنْ عَصَى أَمِيرِي فَقَدْ عَصَانِي"²⁹. هكذا ورد بهذا اللفظ.

وفي ذات السياق أورد الكنتي رحمه الله تعالى ما يلي: "وسئل كعب الأحرار عن السلطان فقال: ظل الله في أرضه، من نصحه اهتدى، ومن غشه ضل، وعن حذيفة: لا تسب السلطان فإنه ظل الله في الأرض، به يقوم الحق، ويظهر الدين، وبه يرفع الله الظلم ويهلك الفاسقين"³⁰.

وإذا كانت رسالة الشيخ الكنتي قد خصصت هذا المقطع الختامي من الرسالة للسلام على من بالحضرة الشريفة والعلماء ورؤساء الأجناد ودعوتهم إلى السمع والطاعة فإنها كذلك - بعد حمد الله تعالى والصلاة والسلام على نبيه صلى الله عليه وسلم - قد خصصت المقطع الأول منها للسلام والتحية على أمير المؤمنين سيدنا ومولانا عبد الرحمن بن هشام من الجنوب / الصحراء؛ ما يؤكد الولاء لأمر المؤمنين. وأرى أن أثبت هنا هذا الجزء من الرسالة الكتتوية باعتباره خطاباً صوفياً تراثياً، قال الشيخ في رسالته:

"هذا وأنبهي بالسلام التام، الخالص العام، وما يليق بالمقام، من التحية والإكرام، والتبجيل والاحترام، والإجلال والإعظام، والرضوان والإنعام، والإحسان والإتمام، والحفظ والرعاية، والصون والعناية، والغنية والكفاية، والنصر والتأييد، والظفر والتسديد، والبركة الصافية، والرحمة الشاملة الغير القالصة الآفلة:

27 - جُنَّةُ الْمُريدِ دُونِ الْمُريدِ. 204/1.

28 - انظر: جُنَّةُ الْمُريدِ دُونِ الْمُريدِ، مصدر سابق، 206-191/1.

29 - صحيح مسلم، بشرح النووي، مصدر سابق، 188/12.

30 - جُنَّةُ الْمُريدِ دُونِ الْمُريدِ، مصدر سابق، 204/1.

إلى النخبة الأخيار، وخلاصة خاصة الأحرار، سلسلة السادات الأبرار، وخاتمة القادات ذوي الأختار والأقدار، منبع الفضل والجود، وفرع سبب أصل الوجود، من ثبت أصل شجرته وفروعها في السماء عرقا، وطاب ثمرها ودنت قطوفها للاجتناء، فكان أعرقها عرقا، وأرحبها عدقا، الفارع البار، الورع البر المتواضع، الساعي في الخيرات المسارع، الجهبد المجاهد أعداء الدين، حامي بيضة الإسلام عن أعدائه المعتدين، إمام الأئمة القائم بكل الأمة، يتيمة الخلف، الخليفة المستخلف، الذي أنشد فيه الحال:

أنته الخلافة منقادة ❁ إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ❁ ولم يك يصلح إلا لها

الإمام الحق الحاكم بالحق، وظل الله في أرضه لجميع الخلق، أمير المؤمنين سيدنا ومولانا عبد الرحمن بن أمير المؤمنين سيدنا ومولانا هشام، بن أمير المؤمنين سيدنا ومولانا محمد، بن أمير المؤمنين سيدنا ومولانا عبد الله، بن أمير المؤمنين سيدنا ومولانا إسماعيل، ابن سيدنا ومولانا علي الحسني³¹.

رسالة صوفية معبرة، من متصوف هو الشيخ المختار الكنتي الحفيد، إلى السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام، أجمل فيها السلام إلى السلسلة الشريفة: "سلسلة السادات الأبرار" ثم فصله فقال: "سيدنا ومولانا عبد الرحمن بن أمير المؤمنين سيدنا ومولانا هشام، بن أمير المؤمنين..." إلخ.

وإذا كانت من دلالة صوفية روحية لهذه الرسالة فإن لها دلالات تاريخية تتجلى في التأكيد على الارتباط القوي بين جهات المملكة المغربية، الشمال والجنوب/ الصحراء، الشرق والغرب، وتتجلى في الولاء المتين للرعايا في الصحراء للملك أمير المؤمنين سيدنا ومولانا عبد الرحمن بن أمير المؤمنين سيدنا ومولانا هشام، بل لكل سلسلة السادات الأبرار الملوك الشرفاء العلويين السابقين واللاحقين، منذ العهد القديم إلى عهد أمير المؤمنين جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده.

ثالثا: موقع إمارة المؤمنين في التراث الصوفي للشيخ محمد الحراق الشفشاوني³² (ت 1261هـ):

للشيخ محمد الحراق رسائل في التصوف بعث بها إلى مشايخ الصوفية والمريدين السالكين في قضايا ومسائل في التصوف، مقصديتها العامة كما يقول د. محمد رشيد أكديرة: "هي التوجيه

31 - المصدر نفسه، 192/1.

32 - الشيخ محمد الحراق الشفشاوني: قال محقق رسائله: "نستنبط من خلال المباحث الأربعة الأولى، جملة خلاصات نذكرها كآلاتي:

- إجماع المصادر التي ترجمت للشيخ محمد الحراق على شرف النسب،

- إجماع المصادر التي ترجمت للشيخ محمد الحراق على أن ولادته كانت بشفشاون عام 1186هـ/1772م، وأن وفاته كانت بتطوان عام 1261هـ/1845م".

انظر:

رسائل الشيخ محمد الحراق في التصوف (ت 1261هـ-1845م)، دراسة وتحقيق: د. محمد رشيد أكديرة، مصدر سابق، من ص 17 إلى 37.

التربوي السلوكي الذي يستمد مشروعيته التربوية السلوكية هاته، أو قل بعبارة جامعة "الحُجَّةُ الصوفية" من كون محمد الحراق شيخَ تربية واصلا، يمتلك أهلية تربية المريدين والعروج بهم في مقامات التزكية وتحلية الباطن بالفضائل والكمالات"³³.

هذا، وإن مضامين التوجيه التربوي السلوكي في رسائل الحراق يمكن إجمالها في المحاور التالية:

1- محور المجاهدات،

2- محور التأصيلات الشرعية لعمل الصوفية،

3- محور البيانات،

4- محور التفسير الإشاري.³⁴

ومما تتميز به رسائل الشيخ أنها تندرج "ضمن الأدب الصوفي المغربي إبان القرن التاسع عشر الميلادي، وهو أدب ذو منحى سني سلوكي عملي بعيد عن الغنوص وكل المظاهر الإشراقية؛ ذلك أن هذه الرسائل التي نَعُدُّها نمطا من أنماط الكتابة الأدبية الصوفية تنتمي إلى التجربة الصوفية نفسها التي حَيَّيَهَا محمد الحراق في الطريقة الدرقاوية بين يدي شيخه مولاي العربي الدرقاوي"³⁵.

كتب الشيخ محمد الحراق (ت 1261هـ) رسالة إلى المولى عبد الرحمن بن هشام يثني فيها عليه؛ لما أخبره به "الأخ في الله مولاي الجيلاني"³⁶ الذي قدم عليه في تطوان، من سيرة حسنة للمولى عبد الرحمن، وقد جاء في المقطع الأول من هذه الرسالة³⁷ - بعد حمد الله تعالى، والصلاة والسلام على مولانا محمد صلى الله عليه وسلم، وذكر باعث الرسالة وهو الشيخ الحراق، والمبعوث إليه وهو المولى عبد الرحمن، والسلام عليه - ما نصه:

"وبعد، فاعلم سيدنا وحبينا أنه ورد على ثغر تطوان الأخ في الله مولاي الجيلاني، وكان من قضاء الله في سابق علمه أن نزل قريبا من منزلنا، وَلَقِينَا وَأَخْبَرَنَا من أحوالكم بأخبار حسنة وسيرة مستحسنة تدل على مقام الولاية من الله سبحانه إليكم لا منكم إليه؛ لأنه لا يثبت على الحضور مع الله في مقام الإِمَارَةِ إلا الفرادى من الناس الذين تولاهم بسابق العناية. ولا والله، ما حدثنا بأحسن مما

33 - رسائل الشيخ محمد الحراق في التصوف (ت 1261هـ-1845م)، دراسة وتحقيق: د. محمد رشيد أگدير، مصدر سابق، ص 45.

34 - المصدر نفسه. ص 45-46.

35 - المصدر نفسه. ص 45.

36 - لم يذكر في الرسالة من هو مولاي الجيلاني، ولا البلد الذي ينتمي إليه، ولا من أين أتى.

37 - تتكون الرسالة من ثلاثة مقاطع: الأول خاص بالثناء على السلطان مولاي عبد الرحمن، والثاني والثالث يتضمنان بعض الوصايا والنصائح للسلطان. وما أشبه رسالة الحراق برسالة زروق شكلا ومضمونا !!!

كنا نعتقده فيكم قبل إخباره؛ وذلك بإلقاء الله سبحانه في قلوبنا أحيينا أم كرهنا. وإنا لنوقن أن تلقيات القلوب يصدقها شاهد الحكمة؛ لأن القلب إذا كان على بينة من ربه حين الإلقاء فيه تلاه بالتحقيق شاهد منه. وعنه صلى الله عليه وسلم أن (المؤمن مرآة أخيه). نفهم منه أن قلب المؤمن من تنطبع فيه صورة من يكون أخاه في الله وأحواله وأكوانه وعوالمه جميعا، حتى كأنه حاضر بين يديه هي فراسة المؤمنين. ولما وقع تصديق الكلمات الباطنة بلطافتها عن مظاهر الألسنة بظهور ذلك في عالم الأكوان حَمَلْنَا شِدَّةَ البَسْطِ بذلك على مد يد الأخوة في الله إليكم وبسط اللسان بمذاكرتكم حرصا على حُبِّ زيادة الخير لكم؛ لأن مقام الإمارة عظيم الفتنة إلا من عصمه الله، ولأن المسلمين محتاجون لأمثالكم؛ فسادكم سداد الجميع...³⁸.

وقال رحمه الله تعالى بعد المقطع الأخير من الرسالة:

"ونؤكد عليكم ياسيدي غاية أن لا تنتصف لله من الناس حتى تنتصف لله من نفسك. وأظنك إذا انتصفت لله من نفسك رحم الله بك الخلق جميعا وصرت عينا من عيون الله ينظر الله بك في خلقه. وهذا ما أوجب الله علينا لأئمة المسلمين من بذل النصيحة وحب الخير، زادك الله خيرا إلى خيرك وبراً إلى برك، وادع لنا ياسيدي بخير الفضل منك، وعلى الله مكافأتك"³⁹.

رسالة مفعمة بالدلالات والمعاني الصوفية، وتحتوي على مضامين تاريخية واجتماعية وسياسية وأخلاقيات عالية، وتنطق بالحكمة، وتتكلم بحسن المقال، وكيف لا؟ وهي خطاب لأمر المؤمنين، يستلزم السمع والطاعة له، وحسن الكلام مع الجنب الشريف، إنها رسالة فكرتها المركزية: الشاء على أمير المؤمنين مولاي عبد الرحمن بن هشام.

ومن مضامين هذه الرسالة - وبخاصة المقطع السابق منها - ما يلي:

1- ثناء الشيخ محمد الحراق على أمير المؤمنين السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام؛ لما يلي:

* ورود أخبار على الشيخ محمد الحراق عن أحوال أمير المؤمنين مولاي عبد الرحمن وسيرته الحسنة؛ ما يدل على مقام ولايته من الله تعالى.

* ثبات حضور أمير المؤمنين مع الله سبحانه في مقام إمارة المؤمنين.

* الاعتقاد الراسخ لدى الشيخ الحراق في خَيْرِيَّةِ أمير المؤمنين وصلاحه وإصلاحه ومحبته قبل ورود الأخبار بذلك.

38 - رسائل الشيخ محمد الحراق في التصوف (ت 1261هـ-1845م)، دراسة وتحقيق: د. محمد رشيد أگدير، مرجع سابق، ص 340.

39 - المرجع نفسه، ص 341.

* مراسلة الشيخ الحراق أمير المؤمنين مولاي عبد الرحمن كانت لما وقع في قلبه من تلقيات أكبرت مقام إمارة المؤمنين، واحتياج المسلمين لأمثال مولاي عبد الرحمن السلطان الجليل.

2- وصية الشيخ الحراق لأمر المؤمنين مولاي عبد الرحمن أن يثبت على ما هو عليه من الأوصاف الجليلة، وبخاصة القيام بوظائف العبودية لله تعالى.

3- نصيحة الشيخ الحراق لأمر المؤمنين مولاي عبد الرحمن أن يكون مع الله تعالى، وأن يترك من أجله المحاب⁴⁰، مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصَرْكُمْ﴾ (سور محمد، الآية: 7) ومصدقا لقوله صلى الله عليه وسلم: (احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

وإلى هذا الحد أقول: لي كامل اليقين بأن أي خزانة أو مكتبة لا تخلو بإذن الله تعالى من رسائل وكتب في التراث الصوفي السني المغربي تتضمن خطابات في موضوع إمارة المؤمنين، وما ذلك إلا لأن إمارة المؤمنين تشكل - قديما وحديثا - مكونا من مكونات الفكر الصوفي والفقهية وغيرهما. ولأنها تمثل ركنا ركينا من أركان الدولة المغربية على مر التاريخ. والأمل كبير في توسيع البحث في هذا التراث، في هذا الموضوع القيم، وإعطائه ما يستحق من الاهتمام والعناية.

وهاهي ذي إمارة المؤمنين تحظى اليوم في الثقافة والفكر المغربيين باهتمام كبير وذلك لأنها من المكونات الثقافية والفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية؛ إذ تشكل إمارة المؤمنين بموجب الدستور المغربي⁴¹ واحدة من أهم الأركان في العلاقة القائمة بين الملك والرعية، هذه العلاقة التي تقوم على البيعة لأمر المؤمنين؛ ذلك بأن في كل عنق مغربي من الرعية بيعة وعهداً، وسمعا وطاعة.

فعلى مر التاريخ شكلت البيعة لأمر المؤمنين عقداً يلزم الرعية بالسمع والطاعة، وعدم المخالفة على أمير المؤمنين بقول ولا بفعل، ومن ثم جاء التعبير الزروقي - السابق - بكلمة: "ملازمة"، إذ مع الاتباع للشيخ الصوفي والالتفاف حوله يجب على المرید "ملازمة السمع والطاعة لأمراء المسلمين وعامتهم وخاصتهم من أهل الله، فلا يُخَالَفُ عليهم بقول ولا بفعل بل إيمان وتسليم" فالمرید ملزم أولاً وقبلأ وبعداً بالسمع والطاعة لأمر المؤمنين بالدرجة الأولى.

هذا الموروث المقدس: إمارة المؤمنين والبيعة، هو سنة متبعة، من عهد الفاروق إلى هذا العهد؛ إذ أول من دُعي "أمير المؤمنين" الخليفة عمر، وعن السبب الذي جعل الصحابة رضوان الله عليهم يدعون عمر رضي الله عنه أمير المؤمنين نستمتع إلى ابن خلدون حيث يقول: "وذلك أنه لما بويع أبو

40 - المحاب: جمع محبة، ما يحبه الإنسان.

41 - انظر: دستور 2011. (الفصلين 41 و42).

بكر رضي الله عنه كان الصحابة رضوان الله عليهم وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن هلك. فلما بويع لعمر بعهدته إليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكأنهم استثقلوا هذا اللقب بكثرتهم وطول إضافته وأنه يتزايد فيما بعد دائما إلى أن ينتهي إلى الهجنة⁴²، ويذهب منه التمييز بتعدد الإضافات وكثرتها، فلا يعرف. فكانوا يعدلون عن هذا اللقب إلى ما سواه مما يناسبه ويدعى به مثله. وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الأمير وهو فعيل من الإمارة. وقد كان الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم أمير مكة وأمير الحجاز، وكان الصحابة أيضا يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لإمارته على جيش القادسية، وهم معظم المسلمين يومئذ⁴³.

وقد توارث هذا اللقب: "أمير المؤمنين" أو "إمارة المؤمنين" الحكام والأمراء. قال ابن خلدون رحمه الله تعالى: "وذهب - أي أمير المؤمنين - لقباً في الناس، وتوارثه الخلفاء من بعده سمة لا يشاركهم فيها أحد سواهم سائر دولة بني أمية"⁴⁴. بل ذهب في الناس بعد دولة بني أمية إلى يومنا هذا، على عهد جلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده؛ إذ يدعى "أمير المؤمنين" مضافاً إليه لقب: "حامي حمى الملة والوطن والدين"، ومنه الشعار الخالد للمملكة المغربية: "الله، الوطن، الملك". إلى غيره من الألقاب التي يدعى بها جلالته.

خاتمة:

ذكرت أن البحث في هذا الموضوع يتطلب الوقت والجهد والتحريك لزيارة المكتبات والخزانات الخاصة والعامة؛ لأن هناك رسائل ومباحث، ولعل كتباً عديدة، في التصوف السني تناولت موضوع إمارة المؤمنين، وحسب هذا البحث المتواضع أن يسهم في الدعوة للكتابة فيه.

وقد يكون هذا الموضوع منفذا لمشروع أو سلسلة كتب، تجمع ما تفرق في بطون الكتب والمجلات من قضايا ومسائل، وخاصة ما يوجد من كتابات في مجال التصوف السني؛ إذ إن المكتبة العربية عموماً، والمكتبة المغربية خصوصاً، في حاجة ماسة إلى ضم المزيد من الكتابات في هذا الموضوع، أسأل العلي القدير، أن ييسر الأمر، لتوسيع البحث في الموضوع، واستئنافه في كل مناسبة. وكم أتمنى أن تنظم ندوة عالمية في موضوع: "إمارة المؤمنين في الكتابات الصوفية المغربية". والحمد لله رب العالمين.

42 - معناها: الكراهة.

43 - مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط (2)، 1416هـ-1996م، ص 20.

44 - انظر: المصدر نفسه. ص 209-210.

تعريف موجز بالسيرة النبوية في الكتابات الصينية

سعيد جمال الدين ماينغ جغ
جامعة صون ياتسان، الصين

مقدمة:

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، الصلاة والسلام على سيدنا وأسوتنا وحبيبنا محمد وعلى آله وأصحابه، ومن سلك سبيله واهتدى بهداه إلى يوم الدين، أما بعد:

فهذا بحث متواضع تحت عنوان: تعريف موجز بالسيرة النبوية الشريفة في الكتابات الصينية. فالمسلمون - والصينيون منهم على وجه الخصوص - تزداد حاجتهم في التعرف على سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم في مثل هذا العصر الذي تتصارع فيه الأهواء والفتن. إذ من الله تعالى بهذا النبي الكريم على هذه الأمة، ليخرجهم به من الظلمات إلى النور، فقام بهذه المهمة خير قيام، وأدى ما أرسله الله تعالى به على التمام والكمال، فما ترك خيراً إلا دل الأمة عليه ورغبها فيه، وما ترك شراً إلا حذرنا منه ونهاها عنه، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه.

إن الصين من أقدم البلدان التي دخلها الإسلام، حيث يرجع تاريخ دخول الإسلام الصين إلى منتصف القرن السابع الميلادي وذلك وفق ما ذكرته السجلات الصينية الرسمية القديمة. وأن الصين دولة متعددة القوميات، تتعايش فيها 56 قومية، وقد أصبح الإسلام اليوم ديناً مشتركاً لعشر قوميات صينية وعلى الرغم من أن بعض القوميات الأقلية المسلمة المنتسبة إلى الأصول التركية القديمة ما تزال تستعمل اللغة التركية القديمة فيما بينهم إلا أن اللغة الصينية الرسمية التي تسمى اللغة المندرية هي لغة التفاهم الوحيدة بين أبناء هذه القوميات المسلمة وبين القوميات الأخرى، لذا أصبحت اليوم الحاجة إلى ترجمة كتب السيرة النبوية إلى اللغة الصينية ماسة جداً.

أما محاولات دراسات السيرة النبوية دراسة علمية وترجمة أمهات كتب الحديث الشريف ترجمة كاملة فكانت متأخرة جداً مقارنة بالوقت المبكر لدخول الإسلام إلى أراضيها، حيث بدأت دراسات السيرة النبوية والحديث النبوي الشريف فعلياً في الخمسينيات من القرن العشرين وازدهرت في القرن الحادي والعشرين أي في عصرنا هذا.

إن الحديث عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم هو موضوع في غاية الأهمية ويحتاج بحثاً كبيراً بل يحتاج إلى مؤسسات علمية كبيرة. وقد وجدت صعوبات كبيرة أثناء كتابة هذا الموضوع من أهمها في حد علمي القاصر عدم الكتابة المسبقة في الموضوع، يضاف إلى ذلك ندرة وجود مكان واحد من مكتبة أو شبكة عنكبوتية تجمع الكتب التي ترجمت السيرة النبوية باللغة الصينية، ولكن هذه إضاءة لطلبة العلم الشرعي أسأل الله العلي القدير أن يبارك في هذه الجهود.

وكان جل جهدي منصبا على جمع وترتيب وترجمة المراجع التي كتبت باللغة الصينية. ويتكون هذا البحث من ثلاثة مطالب وخاتمة. جاء المطلب الأول في تعريف موجز عن السيرة النبوية الشريفة لغة واصطلاحاً. وتناول المطلب الثاني نبذة مختصرة عن نشأة دراسات السيرة النبوية في الصين. واحتوى المطلب الثالث أعمال وجهود العلماء المسلمين الصينيين في خدمة السيرة النبوية، وذكرت في الخاتمة ما توصلت إليه هذه الدراسة من النتائج والتوصيات.

نسأل الله تعالى أن يفتح هذا البحث الآفاق أمام المؤسسات والأفراد في خدمة السيرة النبوية، ونسأله تعالى أن يحشرنا مع الحبيب صلى الله عليه وسلم.

المطلب الأول: تعريف السيرة النبوية

السيرة في اللغة: هي الطريقة يقال سار بهم مسيرة حسنة¹، وقال الراغب الأصفهاني سار والسير المضي في الأرض ورجل سائر وسيار والسيرة الحالة التي يكون عليها الإنسان وغيره غريزيا كان أو مكتسباً².

والمستبع لتعريف السيرة يجد لها عدة معاني ولكن استخدام السيرة بمعنى الطريقة هو الغالب على استخدام العرب.

أما في الاصطلاح: فإن السيرة تعني ذكر أنباء النبي عليه الصلاة والسلام وأحواله وما يتصل بحياته من ميلاده إلى وفاته وما يتصل بذلك من إرهابات ودلائل ومعجزات قبل الميلاد أو بعد وفاته³.

وقد عرفها الدكتور محمد الزحيلي بقوله: "هي دراسة حياة النبي صلى الله عليه وسلم وجميع التصرفات وطريقته في الدعوة والتبليغ والتربية للصحابة رضوان الله عليهم"⁴.

1 - الرازي، مختار الصحاح، حرف السين، مكتبة لبنان، بيروت، 1986م.

2 - الراغب الأصفهاني، المفردات، حرف السين، المكتبة العصرية، 2012م.

3 - الدكتور عبد الرحمن البرسلسة، السيرة النبوية عن الموقع الرسمي له.

4 - الدكتور محمد الزحيلي، مرجع العلوم الإسلامية، مؤسسة الرسالة، لبنان، ص 426.

والناظر في كتب السيرة القديمة أو الحديثة سيجد ندرة وجود تعريف السيرة، ويبدو أن سبب هذا وضوح التعريف أو إدراج السيرة ضمن تعريف السنة النبوية؛ وهي ما أضيف إلى النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية، أو خلقية، بالإضافة إلى أن هناك علاقة قوية بين تعريف الحديث والسيرة النبوية مع بعض الاختلافات والله أعلم.

مناقب السيرة النبوية:

أولاً: إن أصح سيرة لتاريخ مرسل أو عظيم مصلح قد وصلت إلينا هي سيرة النبي صلى الله عليه وسلم فهي من أصح الطرق وقد بذل العلماء جهوداً كبيرة في تصحيحها.

إن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم واضحة كل الوضوح في جميع مراحلها كما قال بعض الغربيين أن محمداً (صلى الله عليه وسلم) هو الوحيد الذي ولد على ضوء الشمس.

ثانياً: إن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم تحكي سيرة إنسان أكرمه الله بالرسالة فلم تخرجه عن إنسانيته ولم تضيف عليه ألوهية كثيراً أو قليلاً.

ثالثاً: إن سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم شاملة لكل نواحي الحياة الإنسانية؛ فهو الإنسان الشاب والأب والمربي ورئيس الدولة وقائد الأمة.

مصادر السيرة النبوية:

- القرآن الكريم وهو مصدر أساسي تستمد منه ملامح السيرة النبوية؛ فقد تعرض القرآن الكريم لأهم وقائع السيرة.

- السنة النبوية الصحيحة مثل الصحيحين وما صح من السنن الأربعة وغيرها؛ فإن كتب السنة ذكرت كثيراً من جانب السيرة النبوية بشكل عام.

- الشعر العربي المعاصر لهذه الرسالة؛ فقد كان الشعر يلقي في الغزوات وغيرها من الأمور التي يستفاد منها في السيرة.

- كتب السيرة وهي الكتب التي اختصت بكتابة تاريخ النبي صلى الله عليه وسلم وحياته كما نضيف أيضاً كتب الطبقات والرجال والتراجم.

تاريخ تصنيف السيرة النبوية:

كانت وقائع السيرة روايات يرويها الصحابة رضي الله عنهم إلى من بعدهم وقد اختص بعضهم بتتبع وقائع السيرة وتفصيلها. وأول من صنف في السيرة عروة بن الزبير رضي الله عنه ثم

انتقلت العناية إلى من بعدهم حتى أفردوها بالتصنيف. ومن أشهر أوائل المصنفين في السيرة محمد بن إسحاق مع كلام بعض العلماء فيه إلا أنه كان ثقة في رواية السيرة، وقد ألف كتابه في المغازي ومن المؤسف أن هذا الكتاب لم يصلنا فقد فُقد فيما فُقد من تراثنا العلمي، ولكن مضمون هذا الكتاب بقي محفوظاً لما رواه عنه ابن هشام في سيرته عن طريق شيخه البكائي الذي كان من أشهر تلاميذ ابن إسحاق. وبعد سيرة ابن هشام توالى كتب السيرة حتى العصر الحاضر ومن أبرز كتب السيرة المعاصرة نور اليقين للخضري وفقه السيرة للغزالي والبوطي والرحيق المختوم للمباركفوري.

المطلب الثاني: نبذة مختصرة عن نشأة دراسات السيرة النبوية في الصين

دخل الإسلام الصين قبل نحو ألف وثلاثمائة سنة. وكان نشر السيرة النبوية الطاهرة يعتمد على دراسة مضمونها مباشرة والشروح الشفوية للعلماء والأئمة، وكان تعليم السيرة النبوية مقتصرًا على المساجد والأسر المسلمة فقط. لم تبدأ دراسة وترجمة السيرة النبوية إلى اللغة الصينية إلا في فترة متأخرة ابتداءً من أسرة مينغ الملكية التي أسست على أيدي المسلمين عام 1368م، حتى أن الإمبراطور المؤسس مدح النبي صلى الله عليه وسلم بمائة كلمة صينية، كما أهدى لوحة منقوشة على الحجر بهذه الكلمات المائة إلى مسجد نانغ جين وهي موجودة ومنصوبة حتى اليوم، ومضمونها كالتالي: اسمه مسجل في السماء في بداية التكوين، ولد الهادي العظيم في غرب آسيا، منح الكتاب السماوي المكون من ثلاثين جزءاً، هادي البشرية والناس أجمعين، سيد المرسلين، هبة السماء إلى الأرض، صلواته الخمس دعوة للسلام، الإيمان بالله يملأ قلبه، يساعد الفقراء ويرحمهم، منقذ الناس من الضلال إلى الهدى، العارف بالغيب المطلع على الحقائق، يطهر الأرواح، ويخلص الناس من الذنوب، رحمة للعالمين، رسالته متواصلة من بدايتها وحتى الآن، قاهر الشياطين والظلمات، الموحد بالله، محمد خاتم الأنبياء والمرسلين⁵. وهذا أقدم نص مكتوب مدح فيه النبي صلى الله عليه وسلم باللغة الصينية.

غير أن السياسات المتوترة وسياسة الانغلاق المستمرة عبر العصور الصينية أخرت دراسات السيرة النبوية، فقد بدأت الدراسة في السبعينيات وبالتحديد عام 1978م، لما تغير وضع المسلمين بشكل كبير جداً، وأوجدت الحكومة قانوناً ينص على عدم انتهاك أعراف وعادات أبناء الأقليات القومية كما وعدت بإعادة فتح المعهد الإسلامي، وإعادة إصدار مجلة المسلمين، واستئناف بعثات الحج، وإعادة فتح المساجد المغلقة، وإعادة العطل الإسلامية، وفتح مطاعم المسلمين في كل المقاطعات والمدن، وسمحت بدخول أعداد من المصاحف وأمهات الكتب الإسلامية من الدول العربية.

5 - نص مترجم من اللوحة المنصوبة في مسجد نانغ جين..

عاد الإسلام إلى الصين كما بدأ من جديد، وجاء عصر النهضة للإسلام في الصين، حيث تغير الوضع بصورة كبيرة، وبعد أن ظل المسلمون في الصين مدة طويلة لا يكاد يسمع العالم عنهم شيئاً إلا أنهم أصبحوا الآن ذوي أهمية أثناء توتر السياسة العالمية. وقد تمكن المسلمون من إعادة جسور اتصالهم بإخوانهم في الأقطار الإسلامية عن طريق تبادل الزيارات وحضور بعض الندوات والمؤتمرات. واستطاع الشباب المسلمون الصينيون السفر إلى بعض البلدان العربية والإسلامية للدراسة في المعاهد والجامعات بعد انقطاع طويل، وهذا يعدّ من أحسن الفرص التي أُتيحت لأبناء المسلمين الصينيين. وفي السنوات الأخيرة ومع هذا الإصلاح والانفتاح على الخارج وتطبيق سياسات الدولة الخاصة برعاية الأقليات القومية وتطوير الشؤون الدينية، تمت إقامة تسعة معاهد إسلامية محلية في كل من بكين ومنطقتي شينجيانغ ونيغشيا ومقاطعات قانسو ولياوني نغوتشينغهاي، وخبيو خنانويوننان، وتقوم حالياً هذه المعاهد بدور متزايد الأهمية في تطوير التعليم الإسلامي بالصين ودفع تقدم اقتصاد المسلمين الصينيين وازدهار حياتهم الثقافية. وعلى الصعيد الآخر، انتقلت اللغة العربية من المدارس المتوسطة الأهلية إلى المعاهد والجامعات الحكومية المعتمدة، ومن المستوى الأهلي إلى المستوى الحكومي، وفتحت أقسام اللغة العربية في كثير من الجامعات الحكومية، يدرس فيها الطلبة مستوى البكالوريوس والماجستير والدكتوراه، وتوجد اليوم أربعون جامعة بها قسم اللغة العربية وتدرس فيها مواد العربية وآدابها والحضارة الإسلامية، ومن المتوقع ارتفاع عدد الجامعات في نهاية هذا القرن إلى ستين جامعة صينية تدرس فيها اللغة العربية بإذن الله تعالى.

ومن أسباب تأخر دراسات السيرة النبوية وترجماتها باللغة الصينية:

1- عدم الحاجة إلى الترجمة.

إن أغلبية المسلمين في الصين في العصور القديمة عرب وفرس وأترك كانوا يفهمون السيرة النبوية عن طريق لغتهم الأم مباشرة دون الحاجة إلى واسطة اللغة الصينية آنذاك.

2- عدم وجود كتب السيرة النبوية.

لم تدخل أمهات الكتب في السيرة النبوية والحديث النبوي الشريف الصين إلا في القرن العشرين، فشج المصادر هذه نتجت عن سياسة الصين المنعزلة والانغلاق لعدة قرون مما أثر سلباً على ضعف حركة الترجمة والنقل والدراسات القائمة حول السيرة النبوية المشرفة والحديث النبوي الشريف.

3- الفهم الخاطئ.

لم تحظ علوم الحديث الشريف والسيرة النبوية في الصين بالاهتمام اللازم من قبل المسلمين حيث اقتصرت مواد التعليم الإسلامي على علوم القرآن والفقه والصرف والبلاغة وربما ذلك لعدم وضوح الرؤية لمكانة السيرة النبوية والحديث الشريف، فلم تول الاهتمام والعناية بها حقاً، لذا نجد جل اهتمامهم بترجمة معاني القرآن الكريم حيث تجاوزت ترجمات المعاني للقرآن الكريم عشرين ترجمة حتى الآن، غير أن دراسات السيرة النبوية والحديث النبوي ظلت شحيحة وضعيفة في الصين.

4- العائق اللغوي.

من المعروف أن اللغة العربية واللغة الصينية كلتيهما تعتبران من أصعب اللغات في العالم إذ يفترق من يجيد اللغتين ويقدر على القيام بهذه المهمة الشاقة بسهولة.

ولعل هذه أهم الأسباب التي أدت إلى تأخير دراسات وترجمات السيرة النبوية وأمّهات كتب الحديث بأكملها في الصين.

وبالرجوع إلى تاريخ الدراسات والترجمات الصينية للسيرة النبوية الشريفة، يتضح لنا أنها مرت بتسع مراحل رئيسة وهي:

1- مرحلة الحكاية الشفوية والنقل الشفهي للسيرة النبوية الشريفة.

2- مرحلة الترجمة الشفوية للسيرة النبوية الشريفة.

3- مرحلة ترجمة بعض الأحاديث للاستشهاد بها في الكتب الدينية الصينية.

4- مرحلة تأليف السيرة النبوية باللغة الصينية.

5- مرحلة ترجمة مقتطفات من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.

6- مرحلة ترجمة السيرة النبوية وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم بأكملها.

7- مرحلة ترجمة مختارات الحديث الشريف.

8- مرحلة دراسة السيرة وترجمة مصطلحات الحديث الشريف.

9- مرحلة ترجمة السيرة النبوية الشريفة وأمّهات كتب الحديث.

وفي بداية العصور بعد دخول الإسلام الصين كان المسلمون يقصون حياة النبي صلى الله عليه وسلم ويروون الأحاديث بأفواههم ومن ثم يترجمون بعض الأحاديث الشريفة للاستشهاد بها في

كتبهم باللغة الصينية، وظلت هذه الحال حتى نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين لما كثر الدارسون المسلمون وتوفرت المصادر وأتيحت فرص الدراسة إلى الخارج والاختلاط للمسلمين الصينيين بالعلماء في الدول العربية، ومن ثم حاول بعض العلماء الصينيين الذين يجيدون اللغة العربية ترجمة الأربعين النووية ومختارات من صحيح البخاري ومسلم، وترجمة الموطأ للإمام مالك والكتب الستة: البخاري ومسلم، سنن النسائي، سنن الترمذي، سنن أبي داود، سنن ابن ماجه بأكملها أخيراً، وإن العمل والجهد مستمر بفضل الله تعالى، وسيشهد التاريخ مزيداً من الأعمال والجهود المباركة في ترجمة ونقل السيرة النبوية والحديث الشريف إلى اللغة الصينية لإظهار حقيقة الإسلام.

المطلب الثالث: أعمال وجهود العلماء المسلمين الصينيين في خدمة السيرة النبوية

حاول بعض العلماء المسلمين في السنوات الأخيرة أن يدرسوا ويترجموا السيرة النبوية الطاهرة لتعريف الناس بالنبي صلى الله عليه وسلم لكونه إنساناً كاملاً ومثلاً أعلى في تاريخ البشرية، تحقيقاً للبلّاغ المأمور به لقوله صلى الله عليه وسلم: (بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً)⁶ ولا شك أن الترجمة وسيلة تبليغ لرسالة الله، وهمزة وصل بين الثقافات، وأداة اتصال وتفاهم بين الشعوب والأمم.

ازدهرت الأعمال وتضاعفت الجهود في خدمة السيرة النبوية في هذه السنوات الأخيرة وأهم أعمال المسلمين وجهودهم في خدمة السيرة النبوية ينقسم إلى نوعين⁷، النوع الأول: تأليف باللغة الصينية، والنوع الثاني: ترجمة من اللغة العربية واللغات الأخرى إلى اللغة الصينية.

أولاً: التأليف:

مؤلفات العلماء الصينيين في السيرة النبوية قليلة، ولكن أثرها كبير جداً، أذكرها فيما يلي:

- تاريخ خاتم الأنبياء والمرسلين، تأليف: الإمام ليو تشي (1669-1764)، طبع ونشر هذا الكتاب عام 1775م.

إن هذا الكتاب حسب علمي أول كتاب ألفه عالم مسلم صيني باللغة الصينية في السيرة النبوية، وقد راجع المؤلف في تأليف هذا الكتاب مصادر عديدة منها عربية ومنها فارسية. وقسم المؤلف هذا الكتاب عشرين جزءاً، يذكر أول ثلاثة أجزاء سلسلة النبوة، بدءاً بذكر تاريخ سيدنا آدم (عليه السلام) انتهاءً بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، حيث أورد خمسين نبياً مرسلًا. ومن الجزء

6 - رواه البخاري، رقم الحديث 4341.

7 - ينظر: الفهرس، الناشر: مكتبة المسلمين بلانتش، مؤسسة شين هوا بقانسو، عام 2013م.

الرابع إلى الجزء الثامن عشر دار الكلام فيها على حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ودعوته. وفي الجزء التاسع عشر ذكر لتاريخ العرب والجغرافيا والعادات والتقاليد. وفي الجزء العشرين تكلم المؤلف عما يتعلق بالإسلام في الصين من نقش النصب التذكارية والمرسومات الإمبراطورية والمقدمات للكتب. إن لهذا الكتاب أثرا كبيرا في الصين، وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغات الأخرى مثل الإنجليزية والروسية والفرنسية واليابانية وغيرها.

- مختصر سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، تأليف: الإمام الشهيد ما فو لونغ (1919-1970)، طبع هذا الكتاب، عام 1950م⁸.

- سيف محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: الأستاذ محمد مكين ماجيان. هذا الكتاب في الأصل سلسلة من المقالات التي نشرها الأستاذ محمد مكين في صحيفة الشعب عام 1951م دفاعا عن الإسلام، وردا على من زعم أن الإسلام قد انتشر بالسيف. وله كتاب آخر اسمه: مختصر سيرة النبي صلى الله عليه وسلم.

- حياة محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: قسم التحرير لدار تشيونغ تشن للكتب والصحف، دار تشيونغ تشن للكتب والصحف عام 1951م.

- تعريف الإسلام عن طريق محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: الإمام الشهيد تشن كه لي، مركز تعليم قومية خوي بيكين، عام 1951م.

- سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: شيونغ تشن تسونغ، دار الثقافة للطباعة والنشر عام 1958م، وأعادت طباعته دار جامعة الثقافة الصينية بتايوان، عام 1982م.

- تعريف الإسلام من محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: الإمام الشهيد يوسف تشن كه لي (ت 1970)، مطبعة الجمعية الإسلامية، عام 1980م.

- سيرة النبي الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: ما مينغ دأو، طبعته فئصلية الثقافة السعودية بتايوان، عام 1983م.

- محمد مؤسس الدين الإسلامي، تأليف: لي يون مينغ، دار الشؤون التجارية، عام 1987م.

- محمد النبي الأعظم في الإسلام والرجل العظيم في العالم، تأليف: ما تشونغ يي، دار المجتمع الصيني، عام 1994م.

8 - وجدير بالذكر أن المؤلف (رحمه الله) كان مسجوناً أثناء كتابة هذا الكتاب بتهمة ضد النظام والدعوة إلى الإسلام في فترة الثورة على الثقافة التي تعتبر كارثة بشرية في تاريخ الصين آن ذاك.

- قصص محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: لي شو جيانغ، دار نينغشيا للطباعة والنشر، عام 2000م.

- ذكرى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: الإمام الشهيد ما فو لونغ، مطبعة الجمعية الإسلامية، عام 2000م.

- محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: وانغ جيون رونغ وشا تشيو تشن، دار ليأو هاي، عام 2004م.

- خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: لي لي، طبع في تايوان عام 2007م.

- سيرة محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: ليو يو تشي، دار الشؤون التجارية بتايوان عام 2007م.

- مختصر علوم الحديث، تأليف: دين شي رن، دار الأديان والثقافة، عام 2008م.

- دراسات الحديث النبوي، تأليف: تشي شيه يي، دار الأديان والثقافة، عام 2010م.

- المعلومات حول الأحاديث النبوية، تأليف: لي قونغ بنغ، دار القوميات بقانسو، عام 2011م.

- سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، تأليف: آدم، مؤسسة تيان ما للمساهمة المحدودة، عام 2012م.

ثانيا: الترجمة:

أما ترجمة ونقل السيرة النبوية إلى اللغة الصينية فقد انقسمت إلى قسمين، أولهما ترجمة حياة النبي صلى الله عليه وسلم، وثانيهما ترجمة الحديث النبوي الشريف. كما أن المصادر تنقسم إلى نوعين اثنين أيضاً، أهمها بالعربية والباقي أكثرها بالإنجليزية وقليل منها باللغات الأخرى.

النوع الأول: ترجمة الحياة النبوية الشريفة:

لا تقتصر مصادر الترجمة على اللغة العربية فقد تعدت إلى لغات أخرى مثل الإنجليزية والتركية والأردية أيضاً. وأورد قائمة حسب تاريخ الطباعة والنشر من جهود العلماء المسلمين في هذا المجال:

أ- الكتب بالعربية:

- مختصر سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: علي محمد، ترجمة: شياو يونغ تاي، اتحاد الشباب الصينيين بتايوان للطباعة والنشر عام 1956م.

- نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، تأليف: الشيخ محمد الخضري، ترجمة: تشين ده ماو وتيان شي باو، طبع في دار نيغشيا الشعبية عام 1983م.
- حياة محمد، تأليف: محمد حسين هيكل، ترجمة: وانغ يونغ فانغ وتشاو قوي يون، طبع في دار شين هوا عام 1986م.
- الرسول في مكة والمدينة، تأليف: محمد طنطاوي، طبع في مطبعة الجمعية الإسلامية، د.ت.
- نساء النبي، تأليف عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء)، ترجمة: وانغ فو، دار نيغشيا الشعبية، عام 1993م.
- قصص محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: محمود سالم، ترجمة: وانغ تونغ، دار المجتمع والعلوم للطباعة والنشر عام 1993م.
- رسالة النبي محمد، تأليف: أبو الأعلى المودودي، ترجمة: محمد أمين ما ان شينغ، طبع في مطبعة الجمعية الإسلامية عام 1995م.
- صور من حياة الصحابة، تأليف: عبد الرحمن رأفت باشا، ترجمة: ما دون شياو، مطبعة الجمعية الإسلامية.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تأليف: القاضي عياض اليعصبي، ترجمة: ما شياو بي، دار المجتمع والعلوم للطباعة والنشر، عام 2008م.
- الرحيق المختوم بحث في السيرة النبوية، تأليف: صفى الرحمن المباركفوري، ترجمة: محمود ليوى فنغ شيانغ، طبع في دار تيان ما بهونغ كونغ، عام 2009م.
- ب- الكتب باللغات الأجنبية غير العربية:
 - كتاب محمد، تأليف: لويستوغ بيك، ترجمة: جو شوي في، طبع في مطبعة الجمعية الإسلامية، عام 1988م.
 - كتاب محمد، تأليف: كوك (Cook, M.)، نقله من الإنجليزية إلى الصينية: تشو شيه فان، طبع في دار المجتمع والعلوم، عام 1990م.
 - أعظم 100 شخصية في التاريخ، تأليف: مايكل هارت، ترجمة: لي وي تشونغ، دار الآداب والفنون بمدينة هوا تشن، عام 1991م.

- سيرة محمد صلى الله عليه وسلم، مصطفى شيباز (باكستان)، ترجمة: ما جين بنغ، طبع في مختبر الشهاب الأخضر، عام 2003م.
- صور حياة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: محمد فطر قولان (تركيا)، ترجمة: بنغ قونغ كاي وما شيان قونغ وهونغ سي ان، دار الأديان والثقافة، عام 2006م.
- شخصية الرسول ودعوته في القرآن الكريم، تأليف: محمد علي الهاشمي، ترجمة: تشان شيوي مينغ، مطبعة الجمعية الإسلامية عام 2008م.
- النبي والوحي، تأليف: عبد الحكيم (باكستان)، ترجمة: بي تشون فانغ، مؤسسة دار جي شي بهونغ كونغ، عام 2008م.
- سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: كارن- أرمسترونج (Karen Armstrong)، ترجمة: ونغ تشيونغ شو، دار الأديان للطباعة والنشر، عام 2009م.
- سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، تأليف: حسام ديبو، ترجمة: يه فو دونغ، دار القوميات بقانسو، عام 2012م.
- مجموعة من خطب النبي صلى الله عليه وسلم، تأليف: خالد علوي (باكستان)، ترجمة: بان شي تشانغ، دار القوميات بقانسو، عام 2013م.
- على خطى النبي صلى الله عليه وسلم، تأليف: طارق رمضان، ترجمة: جياونغ جينغ، دار قانسو الشعبية للطباعة والنشر، عام 2014م.

النوع الثاني: ترجمة الحديث النبوي الشريف:

بذل العلماء المسلمون جهوداً مباركة عبر قرن أو يزيد في دراسة الحديث الشريف وترجمته إلى اللغة الصينية، بدءاً بترجمة بعض الأحاديث المختارة انتهاءً بترجمة الموطأ وصحيح البخاري ومسلم، والسنن الأربع (النسائي وأبي داود وابن ماجه والترمذي) كاملاً.

إليك قائمة حسب جهود العلماء في خدمة الحديث النبوي الشريف فيما يلي:

- الأربعون النووية، للإمام محيي الدين النووي، تأليف: الإمام بانغ شي تشيان (1902-1958)، نشر عام 1947م. يعتبر أول كتاب مترجم إلى اللغة الصينية في الحديث النبوي الشريف.

9 - ينظر: الفهرس، الناشر: مكتبة المسلمين بلانتش، مؤسسة شين هوا بقانسو، عام 2013م.

- صفوة جواهر البخاري وشرح القسطلاني، تأليف : مصطفى محمد عمارة، ترجمة الأستاذ ما هونغ يي ونشره عام 1950م. وأعيدت طباعته ونشرت باللغتين العربية والصينية معا عام 1954. رغم أن هذا الكتاب يحتوي على 700 حديث فقط، إلا أنه أكبر كتاب في الحديث النبوي الشريف في الخمسينيات في الصين. وهناك إصدار آخر لهذا الكتاب، نقله الأستاذ بأو ون آن من لغة الووغورة¹⁰ إلى اللغة الصينية ونشره عام 1981م، وأعيدت طباعته عام 2004م.

- التاج الجامع للأصول في أحاديث الرسول، تأليف: الشيخ منصور علي ناصر، ترجمة الإمام الشهيد يوسف تشن كه لي (ت 1970)، ويقع هذا الكتاب في جزأين، طبع الجزء الأول عام 1954م، وطبع الجزء الثاني عام 1981م.

- اللؤلؤ والمرجان في مايتفق عليه الشيخان للأستاذ فؤاد عبد الباقي، طبع ونشر هذا الكتاب أولا بالعربية عام 1982م، ونشر وطبع عام 1984م بعد نقل محمد عثمان له إلى الصينية في مطبعة الجمعية الإسلامية، وهناك ترجمة أخرى لهذا الكتاب باسم الأستاذ نعمان ما شيان في دار الأديان والثقافة عام 2002م.

- مختار من صفوة صحيح البخاري للأستاذ ما هونغ يي، مطبعة الجمعية الإسلامية. يقتصر هذا الكتاب على بابين: الإيمان والعلم فقط.

- رياض الصالحين للإمام محيي الدين النووي، ترجمة: أنس ما فونغ ده، مطبعة الجمعية الإسلامية، عام 1998م.

- صحيح البخاري، ترجمة: كانغ يو شي، ويقع في جزأين، وقد طبع الجزء الأول عام 1999م، وطبع الجزء الثاني عام 2001م، في دار صحيفة الاقتصاد، يعتبر هذا الكتاب أول ترجمة كاملة لصحيح البخاري باللغة الصينية.

- الموطأ للإمام مالك، ترجمة: ينغ تيان تشن، عام 2001م. ترجمة أخرى نشرت باسم موسى يو تشونغ رن في دار الأديان والثقافة، عام 2013.

- الأحاديث المنتخبة من الصفات الست للشيخ محمد يوسف الكندهلوي، ترجمة : مسلم صيني، مطبعة الجمعية الإسلامية، 2004م.

10 - لغة خاصة بقومية ووغورة، وهي لغة تركية قديمة.

- مشكاة المصابيح، تأليف: الشيخ ولي الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب العمري التبريزي، ترجمة: تشاو ليان خه، مؤسسة شين منغ للطباعة والنشر، عام 2007م. يعتبر هذا الكتاب مقرراً يدرس للمتعلمين المقيمين في المساجد.

- صحيح البخاري، ترجمة كاملة للدكتور صالح تشي شيوه يي، ويقع في أربعة أجزاء، وطبع في دار الأديان والثقافة، عام 2008م.

- صحيح مسلم، ترجمة: الأستاذ موسى يو تشونغ رن، دار الأديان والثقافة، عام 2009م.

- بلوغ المرام من أدلة الأحكام للإمام الحافظ أبي الفضل أحمد بن علي (المعروف بأبي حنبل) (العسقلاني) الترجمة: إسحاق ما لينغ يون، مطبعة الجمعية الإسلامية. وهناك ترجمة أخرى نشرت باسم ما جيان كنغ في مطبعة هونغ كونغ عام 2010م.

- نبوءات الرسول صلى الله عليه وسلم ما تحقق منها وما يتحقق، تأليف: محمد ولي الله الندوي، ترجمة: شان هونغ بو، مطبعة مؤسسة تيان ما للمساهمة المحدودة، عام 2012م.

- جامع الترمذي، ترجمة: الأستاذ موسى يو تشونغ رن، دار الأديان والثقافة، عام 2013.

- سنن ابن ماجه، ترجمة: الأستاذ موسى يو تشونغ رن، دار الأديان والثقافة، عام 2013.

- سنن أبي داود، ترجمة: الأستاذ موسى يو تشونغ رن، دار الأديان والثقافة، عام 2013.

- سنن النسائي، ترجمة: الأستاذ موسى يو تشونغ رن، دار الأديان والثقافة، عام 2013.

- شرح وصايا خاتم الأنبياء، منصور موسى، مطبعة الجمعية الإسلامية.

ومن خلال ما تقدم يمكننا ملاحظة ما يلي:

تنقسم هذه الجهود من حيث القائمون عليها إلى جهود فردية، وجهود مشتركة، أو جهود مؤسساتية.

أولاً: الجهود الفردية:

وهي تلك التي تعتمد على فرد بعينه، أو أسرة بعينها تحتضن هذا التوجه وتعتنقه بكونه رسالة سامية يسعون إلى نشرها، أملاً في الظفر بالثواب والأجر من الله تعالى، ابتغاء مرضاته. ومن أمثلة تلك الجهود: جهود الإمام ليو تشي (رحمه الله) قديماً وأغلبية العلماء في عصرنا حديثاً.

ثانيا: الجهود المشتركة:

وهي التي تكون بالمشاركة بين اثنين أو أكثر، وغالبا ما تكون في التراجم المتوسطة الحجم أو الكبيرة. ومن أمثلة تلك الجهود: الأستاذان وانغ يونغ فانغ وتشاو قوي يون، تعاونوا في ترجمة حياة محمد، لمحمد حسين هيكمل.

ثالثا: الجهود المؤسسية:

وهي تلك الجهود التي يتولاها فريق من الباحثين تحت رعاية مؤسسة أو منظمة تُعنى وتهتم بنشر الثقافة الإسلامية، وما يتخلل ذلك من دعم مادي ومعنوي. ومن أمثلة تلك الجهود ما قدمته الجمعية الإسلامية في الصين.

التائج حسب رأي الباحث

بعد هذه اللمحات السريعة في السيرة النبوية في الكتابات الصينية يمكن تسجيل النتائج الآتية:

أولا: أن دراسات السيرة النبوية في الصين ظهرت متأخرة وذلك لأسباب عديدة سبق ذكرها.

ثانيا: ألف العلماء المسلمون الصينيون كتباً في السيرة النبوية ودراسة الحديث النبوي الشريف باللغة العربية.

ثالثا: قدم العلماء المسلمون الصينيون أعمالاً وخدمات جلية في السيرة النبوية الطاهرة والحديث النبوي الشريف في السنوات الأخيرة.

رابعا: تمت ترجمة حياة الرسول صلى الله عليه وسلم والموطأ وكتب السنن الستة إلى اللغة الصينية.

التوصيات:

إن البحث في السيرة النبوية أو ترجمة الحديث الشريف إلى اللغات الأخرى - خاصة الصينية - ليست بالأمر اليسير والمتيسر لكل من أراد ذلك، بل لابد لمن يتصدى لمثل هذا العمل أن يكون على حظٍ عظيم من علم اللغة العربية، ورسوخ في معرفة أساليبها البيانية والبلاغية، ... وأن يكون إلى جانب ذلك على حظٍ أوفر من اللغة التي يريد الترجمة إليها، مع أهمية مراعاة الدقة والأمانة في الترجمة. وأوصي بعد إجراء هذا البحث بجملة من التوصيات على النحو التالي:

- دعم المؤسسات للمزيد من الدراسات والترجمات لأهميات كتب السيرة النبوية والحديث النبوي الشريف. مثل: السيرة النبوية لابن هشام، وزاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم،

ومقدمة سير أعلام النبلاء للذهبي، والشئال المحمدية للترمذي، وأيضاً ترجمة كتب السير من البخاري ومسلم. وكذلك هناك كتب معاصرة جديرة بالدراسة والترجمة مثل: السيرة النبوية دروس وعبر لمصطفى السباعي، وصحيح السيرة النبوية لأكرم ضياء العمري، والسيرة النبوية لمحمد الصلابي وغيرها.

- إجراء بحوث علمية مكملّة لدراسة السيرة النبوية في الصين.
- دعم إعادة ترجمات السيرة النبوية وأمّهات كتب الحديث النبوي إلى الصينية.
- تشكيل لجنة علمية محلية للقيام بالدراسة والترجمة.
- تشكيل لجنة دولية من العلماء والمستشارين للإشراف على عملية الترجمة.
- اختيار مقر لهذا المشروع في الصين ليكون ورشة للعمل وملتقى الخبراء والمستشارين.
- تم بمشيئة الله تعالى.

ثبت المصادر والمراجع:

- السباعي، المصطفى، السيرة النبوية دروس وعبر. المكتب الإسلامي، لبنان، 1986م.
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، بيروت، 2012م.
- الراغب الأصفهاني، المفردات، المكتبة العصرية، 2012م.
- الزحيلي، محمد، مرجع العلوم الإسلامية، مؤسسة الرسالة، لبنان، 1980م.
- مكتبة المسلمين بلانتش، الفهرس، مؤسسة شين هوا بقانسو، عام 2013م.

التواصل بين القيم النقدية والمفاهيم الإسلامية: المدحة النبوية بالغرب الإسلامي نموذجاً

د. عبد الله بنصر العلوي

لعل ما يبرر تناولنا لموضوع التواصل بين "القيم النقدية والمفاهيم الإسلامية - المدحة النبوية بالغرب الإسلامي نموذجاً" هو إغفال كتب النقد العربي لبعض مجالات أنماط النبويات خاصة. ولعل ما نلاحظه لدى بعض النقاد من النفور من شعر التكسب، والتشبث بالمعيار الأخلاقي في تقويم النصوص¹، أو ما نلاحظه لدى بعض الشعراء من صور إسلامية²، يمكن اعتبار ذلك تصوراً أو رؤية يقوم عليها المنهج النقدي الإسلامي.

ولا يزعم هذا البحث أنه يقدم تصوراً متكاملاً وشاملاً عن المفاهيم الإسلامية في النقد العربي، شأن كثير من المحاولات، نظراً لما يتطلبه البحث من قراءة عميقة واعية للتراث الإبداعي والنقدي في العالم الإسلامي تتجاوز تلمس أوجه التأثير بالقرآن والسنة أو تصور بعض المفاهيم والأفكار الإسلامية.

ويجدر بي - قبل الحديث في موضوعي هذا - أن أشير إلى أن النقد العربي لا يمتد رصيده النقدي متلاحق الآراء ومتكامل المفاهيم، بل إنه يبدو من خلال مرحلتيه، أي: مرحلة النقد العام، حيث تمثل الذوق أبعاد النص القديم (الجاهلي) ورسخ مناهج تكاملت رؤاها أحياناً³. ومرحلة البديع حيث تمثل الذوق الصبغ البديعي ورسخ مقومات كانت مجالا لإبداع البديعيات فيما بعد⁴، أقول: إن النقد العربي يبدو من خلال مرحلتيه لا يستجيب لسائر معطيات الإبداع الأدبي التي

1 - راجع آراء الباقلاني والثعالبي وعبد القاهر الجرجاني.

2 - راجع الشعر الصوفي وقصائد التوسل والتصليات والمديح النبوي وخاصة المولديات، مع الإشارة إلى شعر الفرق السياسية وشعر الفتوح في المشرق وشعر الجهاد في الغرب الإسلامي.

3 - راجع في الموضوع:

- تاريخ النقد الأدبي عند العرب / إحسان عباس / دار الثقافة / لبنان.

4 - راجع في الموضوع:

- الصبغ البديعي في اللغة العربية / أحمد إبراهيم موسى / مصر.

- البديعيات في الأدب العربي / علي أبو زيد / بيروت / 1983.

استجدت عبر العصور، فالمعايير النقدية التي استمدت من النص الجاهلي شكلت في الغالب الرؤية والأداة. ومن ثم لم تكن الرؤية الإسلامية في النقد العربي بالمشرق لتتطور من اقتباس إلى رؤية، نظرا لغياب النموذج الإبداعي، وحتى حين حضوره لم يسع النقد إلى بلورة أسسه. وإذا كانت الحركة الإبداعية قد تمثلت في الشعر الصوفي وشعر النبويات، وخاصة البديعيات منه، فهي لم تكن مجالات لتأسيس حركة نقدية تتواصل مع المرحلة الأولى لترسخ الأصول وتتطور المفاهيم، رغم ما عرفته البديعيات من شروح، وإن كانت لا تخلو - أحيانا - من دقة في تحديد التصور معنى ومبنى، مثلما نلاحظه في بعض مواد خزانة الأدب لابن حجة الحموي.

أما في الغرب الإسلامي فقد كانت النبويات التي تتعدد أنماطها وأشكالها، والتي بلغت شأوا عظيما تجاوز تراث المشرق - فيما نحسب - يواجه الباحث فيها غياب التنظير النقدي، مع أن هناك محاولات نقدية - وإن لم ترق إلى منهج نقدي - تقدم تصورا لبعض مقومات النبويات، مثلما نلاحظه في بعض آراء ابن الخطيب والحسن اليوسي وأبي سالم العياشي.

ففن النبويات بأنماطه الإبداعية يتأثر بالثقافة الإسلامية، ويتشعب بالعقلية المغربية المتشعبة بالروح الدينية، كما يستوعب كثيرا من معالم التراث الإسلامي، ومن ثم كان البحث خاصة نقدية في النصوص الإبداعية لفن النبويات تمدنا بتصوير إسلامي لكثير من المفاهيم النقدية. ولعل شعراء النبويات سلكوا هذا النهج، مما يتطلب التنبيه إليه ولم شعثه لتحديد معايير⁵.

ولما كان الغرب الإسلامي سباقا إلى تمثل ظاهرة النبويات في الفكر والإبداع لم يتكون رصيد نقدي لمقاربة سبل التواصل بين التراث النقدي والقيم الإسلامية، مما سنحاول تحليله في إطار النبويات.

النبويات مصطلح نقصد به كل ما كتب عن الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سواء في مجال الفكر أو الإبداع. ومن الإبداع القصيدة المادحة التي تخصص بالرسول والتي أصبحت غرضا متميزا بين أغراض الشعر العربي له مقوماته وخصائصه، وله مراحل النشأة والتطور⁶.

ولعلنا نبعد في المرحلة الأولى مديح الرسول في عهده لما تضمنه من ظروف وملابسات لم يستهدف من خلالها المدح بقدر ما استهدف نصرة الدعوة أو الاعتذار⁷. أما في المراحل الأخرى فقد

5 - راجع قصائد ابن الخطيب وأبي سالم العياشي مثلا. وهذه الخاصية أصيلة في الشعر العربي وتسمى بالبطولة الشعرية، انظر مثلا قصائد أبي تمام وأبي الطيب.

6 - راجع في الموضوع:

- المدائح النبوية في الأدب العربي / زكي مبارك

- المدائح النبوية، محمد علي مكي / مكتبة لبنان / ط1، 1991.

- الأدب في بلاد الشام / عمر موسى باشا.

- مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني / بكري شيخ أمين / دار الآفاق الجديدة / ط2 / 1979.

7 - انظر حول الموضوع:

- مديح الرسول في فجر الإسلام / صلاح عيد / القاهرة 1975.

شاع لدى كثير من الباحثين أن قصيدة المدحة النبوية لم تظهر في الشعر العربي في المشرق إلا في القرنين السادس والسابع للهجرة⁸، في حين كان الغرب الإسلامي سباقا لهذه الظاهرة وأكثر اهتماما بها⁹، ولعل توسل عبد الملك ابن حبيب (ت 238هـ) من أقدم القصائد في هذا المجال¹⁰، ويمكن اعتبار قصيدة عبد الله يحيى الشقراطي (ت 466هـ) المسماة: "الشقراطية في مدح خير البرية" - وهي تقع في 135 بيت¹¹ - من القصائد الأولى التي رسخت هذه الظاهرة، وشكلت إبداعا إسلاميا اهتم به الشعراء كمحمد بن علي الجذامي (ت 530هـ)¹² وأبي عبد الله بن أبي الخصال (ت 540هـ)¹³ والقاضي عياض (ت 544هـ)¹⁴ وغيرهم خلال القرن السادس الهجري وتكاثر الشعراء في الاستجابة لهذه الظاهرة في القرون الموالية¹⁵، وتعددت أنماط إبداعهم، ويضيق المجال لعرض أعلام الشعراء وقصائدهم.

وهذه الاستجابة لم تكن فحسب تقديرا لمكانة الرسول في النفوس، أو تفانيا في محبته والشوق إليه، أو تسليا عن بعد المزار، أو حنينا لأرض الحجاز فحسب، ولكن لما يمثله الرسول من قيم إسلامية عليا تتيح للمبدع استلهاما للقدوة وتأثرا بالشخصية. ومن ثم اصطبغت هذه الظاهرة بالأثر الإسلامي، وتكونت رؤية إسلامية في الشكل والمضمون، مما أعطى "للإسلامية" التي تشهدها مذهبها معاصرا جذورا... بل تصورا، إن لم يكن تأصيلا لقيم لها من الثبات والوضوح والالتزام ما يحقق إنسانية الأدب. ولا يتضح إلا عبر مقارنة المديح النبوي للإسهام في التغلب على الإشكاليات الأنفتي الذكر.

بالنسبة لإشكالية المصطلح، وتعني ما يعتره من غموض الدلالة أو ضيق المفهوم أو شدة الافتقار إليه لتحديد التجربة المعرفية وليستوي المنهج في البحث العلمي، نجد قصيدة المديح النبوي،

8 - من هؤلاء الباحثين: زكي مبارك وعمر موسى باشا وعبد الله الطيب.

9 - أدب الفقهاء/ عبد الله كنون / دار الكتاب / بيروت / ص 157 - 158.

10 - الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها / عباس الجراري / دار الثقافة / ص 143.

11 - عبد الله الشقراطي / الهادي مصطفى التوزي / تونس.

12 - انظر قصيدته في: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض / أحمد المقرئ / تحقيق سعيد أحمد أعراب ومحمد بن تاويت / المغرب / ص 33/4.

13 - له قصيدة أساها: "معراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب" انظرها في الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء لأبي الربيع سليمان الكلاعي تحقيق مصطفى عبد الواحد.

14 - راجع: عياض الأديب / عبد السلام شقور / طنجة.

15 - نذكر على سبيل المثال: أبا عبد الله ابن الجنان ومحمد بن أحمد بن جبير وأبا الربيع الكلاعي وأبا عمرو ابن خبازة راجع: - أزهار الرياض.

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب / أحمد المقرئ / تحقيق / إحسان عباس / بيروت.

- فتح المتعال في مدح النعال / أحمد المقرئ / حيدرآباد/ الهند.

- المجموعة النبهاية في المدائح النبوية / يوسف النبهاني / بيروت / ط. 2، 1974.

...

باعتبارها أحد روافد الأدب الإسلامي، قد فتحت آفاقاً أمام النقد العربي دون أن يتعرض لها رصيده النقدي، واكتفت المصادر بالإشارة إلى مصطلحاتها التي تتحدد دلالتها مرة من خلال القصيدة نفسها، وأخرى من خلال تمثيلها للقيم الإسلامية، وثالثة من خلال الإشارات الواردة في شروحها، وإذا كانت هذه المصطلحات بدورها تحتاج إلى تحديد معرفتها، فإنها أغنت بحضورها المدحة النبوية في إسهامها النقدي لإبراز معطيات الإبداع الإسلامي. ولذلك يمكن تصنيف هذه المصطلحات حسب - ما وقفت عليه في كتب التراجم والشروح والمجموعات الأدبية - في ثلاثة أقسام، يتعلق الأول منها بالأنماط، ويختص الثاني بالأشكال، ويسيطر الثالث بناء القصيدة.

فالأنماط تعين اتجاهات القصيدة، فهناك البرديات والبديعيات والمولديات والغراميات والحجازيات والنجديات والنعليات والسلطانيات والربانيات والتوسلات والتصليات.

والأشكال تحدد الإطار الفني للقصيدة، فهناك القصائد والمقطوعات والوتريات والتوجيهات والمعارضات والمسمطات والمقصورات والموشحات والترجيع والتخميس والمسدسات والمعشرات والعشرينيات، ويدخل في هذا القسم التضمين والاقتراس والتورية.

أما بناء القصيدة فيشمل النسيب وبراعة الاستهلال وحسن التخلص وحسن المقطع وكذا الانسجام.

ولعل ما ذكرته غيظ من فيض ... ولا يسع المجال للتعريف بهذه المصطلحات، وقد فعلت في مناسبة سابقة¹⁶، ومثل هذا التحديد أملت مراعاة فنية لإطار المدحة النبوية، فالأنماط - لا شك - أن بعضها يحمل مفاهيم إسلامية تثري النقد الأدبي، والأشكال تتسم بطابع نقدي أو بديعي يحدد إطار إبداعها. أما البناء فلا مناص من تجسيده لحركة القصيدة المادحة وإن لم تخل عناصره من شروط لها تصور إسلامي.

أما بالنسبة لإشكالية التواصل بين المفاهيم النقدية والقيم الإسلامية فإن كثيراً من النقاد لمسوا العلاقة بين الشعر والدين أو الشعر والأخلاق مما أثر في مفاهيمهم النقدية، رغم أنها لم تشكل مذهباً له من المنهج والتحليل ما يبلور وحدته.

ولعل قضية الصدق والكذب في الشعر من أكبر القضايا التي تناولها النقاد وقد سلكوا فيها سبلاً متعددة المشارب والرؤى. فابن طباطبا مثلاً يجعل عنصر الصدق - وهو مختلف الدلالة عنده - أهم عناصر الشعر وأكبر مزاياه لأنه صنو للجمال والحق¹⁷. كما أن الآمدي يحرص على الصدق في

16 - راجع بحثنا في ندوة "المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم" / مجلة كلية الآداب فاس / نوفمبر 1986 / وعنوانه : "مقاربة اصطلاحية لأنماط قصيدة المديح النبوي".

17 - تاريخ النقد الأدبي عند العرب / إحسان عباس / ص 142.

الشعر¹⁸، وابن رشد ينفر من الكذب أو ما أسماه الغلو الكاذب ويميل إلى الصدق في الشعر¹⁹. وهؤلاء النقاد وغيرهم متأثرون بالتصور الإسلامي للشعر كشأن ابن رشيق والباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم²⁰. في حين نجد بعض النقاد كقدامة، وهو ممن رسخوا مصطلح الغلو في النقد، يقول: "إن الغلو عندي أجود المذهبين وهو ما ذهب إليه أهل الفهم بالشعر والشعراء قديماً"²¹. وهو مذهب لا يستجيب للتصور الإسلامي. ومع ذلك فقد تناوله النقاد ودعوا إليه حريصين على الفصل بين الشعر وبين الدين والأخلاق كشأن ابن المعتز والصولي والقاضي الجرجاني وغيرهم²².

وبالرغم من حضور التصور الإسلامي أو من غيابه نجد أن مواقف أغلب النقاد عبرت عن احترام الإسلام وإجلاله في النصوص الإبداعية فالباقلاني ينكر التفحش في الشعر²³، والثعالبي يحاول أن يجعل للدين تدخلا في المقياس الأدبي²⁴، وعبد القاهر الجرجاني يرفض عبث الشعراء بالمفاهيم الدينية أو الاستهانة بها في سبيل الإغراب²⁵.

أما في الغرب الإسلامي فقد أدى التواصل بين المفاهيم النقدية والقيم الإسلامية - انطلاقاً من المدحة النبوية - إلى بلورة تصور إسلامي نقدي على نحو ما يتضح لدى لسان الدين بن الخطيب والحسن اليوسي وأبي سالم العياشي.

فابن الخطيب²⁶ يقسم الإبداع الشعري إلى نمطين أساسيين هما نمط السحر ونمط الشعر، ويعني نمط السحر ما أصله الإيغال والمحاكاة والخيال والتمجن. ويعني نمط الشعر ما قصر عن ذلك. ولم يفصح ابن الخطيب بدقة عن دلالة المصطلحين - شأن شيخه ابن ليون²⁷ - رغم أن الفرق

18 - ن.م / ص : 170.

19 - المنهج الإسلامي في النقد والأدب / علي لغزيوي / العلم الثقافي ع 618.

20 - راجع: مقدمة لنظرية الأدب / عبد الباسط بدر.

21 - نقد الشعر / قدامة بن جعفر / تحقيق كمال مصطفى / مصر - بغداد / ص: 26، ويقصد بالمذهبيين، مذهب الغلو ومذهب التوسط.

22 - راجع مقدمة لنظرية الأدب / عبد الباسط بدر.

23 - راجع تاريخ النقد الأدبي ... ص : 345.

24 - ن.م / ص : 374.

25 - ن.م / ص : 438.

26 - انظر كتابه: السحر والشعر / تحقيق محمد مفتاح / كلية الآداب، فاس / مرقون / وراجع في الموضوع:

- مفهوم السحر والشعر عند ابن الخطيب وشيخه ابن ليون التجيبي / سعيد بن الأحرش / مجلة كلية الآداب / تطوان / عدد خاص بندوة ابن الخطيب / ص 347 - 60.

- جوانب من النقد الأدبي عند لسان الدين بن الخطيب / علي لغزيوي / ن.م، ص : 25-407.

27 - انظر كتابه: لمح السحر من روح الشعر وروح الشعر / تحقيق سعيد بن الأحرش / كلية الآداب - فاس / مرقون، وهذا الكتاب مختصر كتاب لابن الجلاب الفهري.

بين النمطين كثير اللطافة كما يقول ابن الخطيب²⁸، ولعل استجلاء النصوص الشعرية التي ساقها يمكن الباحث من استشفاف المعايير النقدية لمحاولة تنظير هذين المصطلحين تنظيراً نقدياً محكماً... وإلى حين ذلك أحسب أن ابن الخطيب يستند إلى المعيار الجمالي الغالب في نمط السحر، وإلى المعيار الديني في نمط الشعر. ومن ثم فإن إشارة ابن الخطيب إلى موقع المدحة النبوية في النمطين يعتبر رأياً جديراً بالأهمية، إذ أنه يشكل رؤية نقدية فيها عناصر جادة، يقول ابن الخطيب بعد أن أورد أبياتاً في المديح النبوي: "وكما أن الشعر لم يتعلمه الرسول صلى الله عليه وسلم ولا ينبغي له لئلا يرتاب المبطلون وذلك في حقه كمال بخلافه في حق غيره، كذلك يبعد أو يمتنع أن يوجد قسم السحر في مدحه إذ أصله الإيغال والمحاكاة والخيال والتمجن... ووقار جانبه صلى الله عليه وسلم يبهر النفس ويمنع استرسالها في ذلك، فالمجيد من عول على نصاعة اللفظ وقصد الحق وقرب المعنى وإيثار الجدة، إذ غيره من الأغراض سبيل الهزل²⁹."

وإذا كانت المدحة النبوية ليست على نمط السحر فهل هي على نمط الشعر؟ إن ابن الخطيب لا يبين عن ذلك، وإن ألمح إليه حيث يشير إلى أن من أقسام الشعر ما "اشتمل على لفظ فصيح ورصف صحيح وقافية وثيقة وإشارة من العبارة أنيقة"، واشتمل على الحكم والأمثال ومعظم الشعر على هذا المثال³⁰. والمدحة النبوية من ذلك، وما هذا التحديد إلا نفس المقومات التي اشترطها ابن الخطيب في الشاعر المجيد في المديح النبوي.

أما اليوسي فيربط في مفهومه للشعر بين غرضه والقيم الإسلامية ملحا على ضرورة خضوع الإبداع للتصور الإسلامي، فيرى "... فضل الشعر وأن لا بأس به أصلاً، غير أنه ليس على إطلاقه (أي) أن الشعر كله محمود ومرضي فإن هذا خطأ وغلط، بل هو على تفصيل. فما كان متضمناً للثناء على الله تعالى أو لمديح النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أو الأنبياء والملائكة وكل من يجب تعظيمه وتوقيره والثناء عليه في الدنيا والترغيب في الآخرة، فهو مندوب إليه مرغّب فيه، وما كان متضمناً للتنبيه والوعظ والترهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة ونحو هذا فكذلك أيضاً، وما كان متضمناً للهجو وإيذاء كل من عرضه معصوم فهو حرام. ويتفاوت في القبح والشدة بحسب المؤدى، حتى ينتهي على الكفر كما في حق الأنبياء، وما كان خالياً من هذين الأمرين فهو من المباح في الجملة، إلا أنه إن اشتمل على وصف القدر والخد والمجون التي تحرك دواعي الشهوة والغواية فهو قد يحرم أو يكره أو يباح بحسب حال القائل والمخاطب"³¹.

28 - السحر والشعر / ص: 8.

29 - ن.م / ص: 8.

30 - ن.م / ص: 6.

31 - زهر الأكم في الأمثال والحكم / الحسن اليوسي / تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر / دار الثقافة / الدار البيضاء 1981 / ص: 48/1.

ومع أن اليوسي لم يفصل هذه الأحوال فقد تنبه إلى طبيعة الإبداع في الشعر، خاصة، وما يتطلبه من عناصر الجودة والخيال من خلال المقارنة بين الشعر، وقد أفضت به إلى " أن الشعر قد حسنت فيه أشياء لم تحسن في النثر، وذلك مما يفضل به الأدباء، منها الكذب الذي وقع الإجماع على حرمة فإنه جائز في الشعر، إلا أن في المبالغة والإيغال تفصيلاً مذكوراً في علم الأدب، وأفضل الأمور الصدق وما قرب منه"³².

ومن خلال ذلك يتلمس اليوسي أسباب عدم تعاطي فحول الشعر للمدحة النبوية في تعليقه على بيت أبي الطيب:

وما كان ترك الشعر إلا لأنه ❀ تقصّر عن وصف الأمير المدائح

يقول: "وما أحق أن يتمثل بهذا عند ترك الاشتغال بمدح النبي صلى الله عليه وسلم فإن أكثر الفحول تركوه واشتغلوا بمدح غيره، وما ذلك إلا عجزاً، فإن نباهة مكانه صلى الله عليه وسلم وجلالة جانبه تبهر العقل وتحير الفكر فلا يستطيع أن يجول فيه، ولو جال لقصر"³³.

كما يعي اليوسي طبيعة القصيدة المادحة وما تتطلبه من المبالغة يقول: "إن المدح إنما يحسن ويستغرب لاشتماله على محاسن وأوصاف كمال الممدوح يتفطن لها الشاعر دون غيره، ويبالغ فيها أكثر مما يستحق الممدوح ويظن به"³⁴.

لكن، في المدحة النبوية تصبح المبالغة تقصيراً، يقول: "وقد علم في حق النبي صلى الله عليه وسلم أن كل ما يتخيله الشاعر من المحاسن والكمالات فالنبي صلى الله عليه وسلم زائد على ذلك وأكثر منه، إذ لا يبقى فوق كما له صلى الله عليه وسلم إلا كمال الألوهية، وليس لأحد أن يثبت له، فلم يبق للشاعر إلا أن يتبين ما هو عليه أو أنقص وكلاهما لا طائل فيه. مع أن تبيان قدره صلى الله عليه وسلم متعذر عادة إذ لا تصل إليه العقول فليس إلا القصور. والله در القائل:

ما قصر الشعراء فيك تعمداً ❀ بل دق عن أفكارهم معناه

نعم، يمكن الإتيان بشيء من حلاه صلى الله عليه وسلم وأوصافه على نوع من الغرابة وضرب من المبالغة بحسب ما يرى الناس من حاله صلى الله عليه وسلم³⁵.

ومن خلال هذه الآراء تبدو الملاحظات الآتية:

32 - ن.م/ ص : 48/1 - 49.

33 - ن.م/ ص : 153/2.

34 - ن.م. ص

35 - ن.م.س.

الأولى : أن اليوسي في محاولته تنظير حكمة مشروعية الشعر وأغراضه لم يبرز التحليل والشاهد مما تتطلبه الرؤية الفقهية نفسها.

والثانية : أن اليوسي ينطلق في مفاهيمه النقدية من التصور الإسلامي، لكنه يضطرب فيجوز الكذب وإن فضل الصدق.

والثالثة : أن اليوسي يجد من إبداع المدحة النبوية في أمرين:

أ - أن التجاوز في وصفه صلى الله عليه وسلم يجب ألا يصل إلى الكمال الإلهي.

ب - أن لا طائل في مدحه صلى الله عليه وسلم بما هو عليه أو أنقص.

ومن ثم فإنشارته إلى تمثل نوع من الغرابة وضرب من المبالغة تشكل رؤية فنية في المديح النبوي لأنها تلامس القصيدة المادحة.

والرابعة، أن اليوسي استشهد برأي ابن الخطيب في المدحة النبوية في كتابه السحر والشعر دون أن يحلل أو يعلق.

وهدف هذه الملاحظات لا تنفي قيمة مفاهيم اليوسي النقدية، وهي - وإن كانت تحتاج إلى كشف لجمعها ودراستها - تقدم تصوراً للتواصل بين المفاهيم النقدية والقيم الإسلامية.

أما أبو سالم العياشي فيحاول أن ينظر قصيدة المديح النبوي ليعمق التواصل بين المفاهيم النقدية والقيم الإسلامية، فيرى أن الشعر ما تعتقد أنه يجري في نفسك، وما تسمعك حر قوافيه فتخاله ألد من السلوى وأطيب من المسك، على نحو ما يقول أبو تمام³⁶، وذلك بمراعاة اللفظ والمعنى والإيقاع والتأثير، يقول العياشي : "إن الشعر إنما كانت منزلته رفيعة واستحلته الأسماع لاشتماله على بدائع الألفاظ وغرائب المعاني وتجويد لحنه وتحريكه في النفوس وتنشيطه لها"³⁷. ويخص ترتيب الألفاظ على وزن مخصوص سبيلاً إلى انشراح الصدر للتضرع واللجوء إلى الله مما يقوى معه الرجاء في حصول المطلوب³⁸.

وبمنطق الفاضل والمفضول يقر العياشي أن مقام الرسول أحق بمنزلته هذا الشعر، يقول: "وإذا كان الشعر على هذه الصفة فهو الذي يهدي إلى أبواب الرؤساء والأمراء والفضلاء فتستحسنه

36 - يقول أبو تمام: (الديوان / تحقيق محمد عبده عزام / دار المعارف / ص 109/3).

تخال به بردا عليك محبراً * وتحسبه عقدا عليك مفصلاً
ألد من السلوى وأطيب نفحة * من المسك مفتوقاً وأيسر محملاً
أخف على قلب وأثقل قيمة * وأقصر في سمع الجليس وأطولاً

37 - النغر الباسم في جملة من كلام أبي سالم / محمد بن حمزة بن أبي سالم العياشي / مخطوط / خ ع ك 304 ص 304 - 396.

38 - الرحلة العياشية: ماء الموائد / أبو سالم العياشي / الطبعة الحجرية فاس / 1316هـ - / 12/1 .

العقول ويتلقاه الناس بالقبول، ولا باب أكبر وأعظم ولا مقام أعلى وأكرم، ولا أحد أرأس وأفضل من سيد الوجود، عليه صلاة الملك الودود، وأزكى السلام من الملك العلام"³⁹.

لذلك يحرص العياشي على جعل الشعر مقتصرًا على غرض المدحة النبوية، بشرط توفره على أسس فنية جمالية لكونه من العمل الصالح الذي يتقرب به، ولكونه يتطلب معرفة شروطه التي تتلخص في عنصرين:

الأول، معرفة ما يمدح به صلى الله عليه وسلم من اللغة التي هي كالطهارة بالنسبة للصلاة، ويقف العياشي موقفًا متشددًا في سلامة علوم صناعة الشعر حتى لا يتسرب إليها لحن أو خطأ وهي في مقام مدح الرسول، لما في ذلك من تنقيص لهذا العمل الصالح.

والثاني، معرفة ما يجب على مادحه وما يستحيل وما يجوز، ولا يتأتى ذلك إلا بعلم آداب النبوة، ويقدم العياشي مصدرين لذلك: هما كتاب الشفا للقاضي عياض وكتاب المواهب اللدنية للقسطلاني. وهذا العلم كما يقول: "علم شريف، فالنظر فيه والتأمل يزيد في الإيمان ويثمر المحبة، وبه تعرف ما يليق في الجنب النبوي وما لا يليق"⁴⁰. وبهاتين المعرفتين يكون شعر المدحة النبوية قاصداً إظهار تعظيمه صلى الله عليه وسلم وذكر أوصافه، وإذا خلا من ذلك فلا مدح.

وللعياشي مفاهيم نقدية متعددة الجوانب في رحلته ورسائله حاول من خلالها أن يُنظر الإبداع في الشعر من أجل تقعيد المدحة النبوية تراجع في كتابنا عنه⁴¹.

وإذا كان العياشي من وراء هذا الاهتمام حريصاً على المقومات الإبداعية لقصيدة المديح النبوي، فإني أزعم أنه كان يرفض موقف بعض النقاد في ضعف إبداع المدحة النبوية كالباقلائي الذي يرى أن "الشاعر المفلق إذا جاء إلى الزهد قصر"⁴² وابن حزم الذي يعتقد أن المواعظ والحكم والمدايح النبوية خارجة عن حد الشعر لأنها تقوم على الصدق، بينما الشعر يقوم على الكذب⁴³، وابن خلدون الذي يقول: "من الصعب الإجابة في الربانيات والنبويات لأن معانيهما متداولة بين الجمهور، فتصير بذلك مبتذلة"⁴⁴.

39 - الثغر الباسم / ص: 367.

40 - ن.م/ ص: 375 - 378.

41 - أبو سالم العياشي الأديب المتصوف، عبد الله بنصر العلوي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية / الرباط.

42 - تاريخ النقد الأدبي عند العرب / ص: 354.

43 - ن.م/ ص: 407.

44 - ن.م/ ص: 626.

هذه جملة من المفاهيم النقدية لدى بعض نقاد الغرب الإسلامي لا شك أنها تأثرت بالقيم الإسلامية في محاولتها تنظير قصيدة المدحة النبوية باعتبارها من أهم روافد "الإسلامية" في التراث العربي.

ومن خلال محاولة استجلاء بعض المفاهيم الإسلامية التي تضيف جديدا إلى التراث النقدي، يمكن تلمس خصوصية المدرسة المغربية في الإبداع والفكر حيث اتسمت بسمات جلي، نذكر من بينها:

أولاً: إن نزعة الفكر المغربي نزعة روحية اكتست كثيرا من الرؤى الدينية.

ثانياً: إن النمط الفكري بالمغرب حافظ على استيعاب التراث الإسلامي من غير تقليد أو جمود.

ثالثاً: إن التلازم بين المفاهيم النقدية والقيم الإسلامية يمكن أن يعتبر تصحيحا للسلوك الإبداعي الذي ساد المشرق والأندلس.

رابعاً: إن الثقافة المغربية - لغة وفكراً - سلمت من آثار غزو المغول والتتر والترك للمشرق العربي مما حفظ للمغرب عروبه ووحدة المذهبية وخصوبة مراعيه العلمية.

خامساً: إن محاولة تأصيل نظرية للإبداع المغربي - رغم صعوبة التنظير - لا يتم إلا عبر الثقافة الإسلامية التي ثقفها العالم المبدع.

السادس: إن الاهتمام بقصيدة المدحة النبوية استقطب أغلب الشعراء في مجال الإبداع، وبعض النقاد في مجال الدرس الأدبي.

سابعاً: إن قصيدة المدحة النبوية صورة فنية متطورة عن القصيدة المادحة، واكتست خاصية التنوع في الأنماط. ولعل المولديات أبرزها، لأنها ظاهرة دينية فنية تميز بها الإبداع المغربي منذ عصر المرينيين (القرن الثامن الهجري) إلى يومنا هذا.

ثامناً: إن المدحة النبوية استمرت منافحة عن الفضائل والمثل بتصور إسلامي، بعد أن حاد شعر التكسب عنها، كما اكتسب النسيب فيها قيمة إسلامية جديدة تتزاج مع الدلالة الشعرية لأسماء الأماكن النجدية التي لها ارتباط وثيق بالنزوع إلى روح التبدي في الشعر العربي، فكان النسيب سبيلاً إلى الحنين والشوق الذي يستبد بالمادح ليعبر عن معاناته الروحية.

"ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا"

جوانب من نشأة التصوف السني وتطوره وانتقاله إلى المغرب الأقصى حتى العصر الموحدى

د. أحمد الأزمي
أستاذ باحث،

جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس

مدخل:

إذا كانت ذكرى الاحتفال بالمولد النبوي في كل سنة ترمز إلى حب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وفي المغرب الأقصى على وجه الخصوص، للنبي محمد صلى الله عليه وسلم وللتشبه بخلقه وشماله طمعا في رضى الله، فإن ذلك لا يمكن أن يتم إلا بالامتثال لما ورد في الكتاب والسنة، امتثالا لقوله تعالى: ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا﴾¹، ولقوله جل وعلا أيضا: ﴿فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول﴾². فالرسول صلى الله عليه وسلم هو قدوتنا في تطبيق مختلف شعائنا الدينية الإسلامية الكفيلة بفتح الطريق أمامنا لنيل السعادة الأبدية، إن نحن أخلصنا في ذلك وأقبلنا على اقتفاء السنة النبوية بصدق وتфан في أقوالنا وأفعالنا ونحن نمارس أنشطتنا اليومية في تفاعلنا مع غيرنا من الشرائع الاجتماعية، من غير غش أو تدليس داخل البلد الذي نعيش فيه أو خارجه دون تمييز بين خلق الله.

هذا التعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم وبشماله المحمدية الشريفة، لا يمكن تحقيقه وفهمه على الوجه الأكمل إلا على يد شيوخ عارفين بالله، أفنوا أعمارهم في طاعته واتباع سنة نبيه وهم يسلكون مقامات القرب من الله، بفضل حبهم لنبيه، وفق قواعد سلوكية معينة، خبروا باطنها دون خروج عن تعاليم الكتاب والسنة، التي غالبا ما يكتفي غيرهم بالاهتمام بظاهرها فقط، وقد عرف المختصون في هذا المجال الروحي ذي الأبعاد الخلقية لمقاصد كتاب الله وسنة رسوله بالمتصوفة، والعلم الذي اهتموا به بالتصوف، منذ القرون الأولى للهجرة. وعملا بمقولة وحدة الظاهرة بين

1 - سورة الحشر، الآية: 7.

2 - سورة النساء، الآية: 59.

المشرق والمغرب الإسلاميين، فإن التصوف الإسلامي انتقل من المشرق إلى المغرب، مع الحجاج المغاربة على وجه الخصوص، وعبر الرحلات من المغرب إلى المشرق العربي، مثل الرحلات السفارية والعلمية والتجارية علاوة على الحجية، إلى أن اشتد عود التصوف في المغرب واكتمل نضجه عبر القرون.

وبناء على ما سبق، وبما أن محبة الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن تكون صادقة، إلا إذا امتثل المسلم لتعاليم كتاب الله وسنة نبيه قولاً وفعلاً، فإننا سنعمل في هذه المساهمة على إبراز تطور نشأة التصوف السني، ثم الظروف والأسباب التي كانت وراء انتقاله إلى المغرب الأقصى.

I - التصوف السني: نشأته وتطوره

التصوف السني هو التصوف الخالي من البدع والمؤسس على تعاليم الكتاب والسنة بالسند المتصل إلى مولانا الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد اتفق على هذا التعريف للتصوف مجموعة من الشيوخ وأئمة القوم، مثل:

1. الجنيد الذي تحدث عن التصوف بقوله: "علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة"³، وقال أيضاً: "الطريق إلى الله تعالى مسدود إلا على المقتفين آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم"⁴.
2. سهل التستري: وقد ربط التصوف بسبعة أصول: "التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق"⁵.

3. أبو الحسن الشاذلي (ت 565هـ): وله أقوال عديدة في الموضوع، منها: "من دعا إلى الله تعالى بغير ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو يدعي"⁶، ثم قوله: "ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة، وإنما هو بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية"⁷، وقوله أيضاً: "ما ثم

3 - عبد الله بن الصديق الغماري، الإعلام بأن التصوف من شريعة الإسلام، مراجعة وتخريج وتعليق طارق العلمي، منشورات مركز الإمام الجنيد للدراسات والعلوم الصوفية المتخصصة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 2014، ص. 32.

4 - جلال الدين السيوطي، تأييد الحقيقة العلية وتشيد الطريقة الشاذلية، صححه وعلق عليه محمد بن الصديق الغماري، مكتبة القاهرة، الطبعة الثالثة، 2008، ص. 71.

5 - زين الدين عبد الرؤوف المناوي، الكواكب الذرية في تراجم السادة الصوفية، تقديم وتعليق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، 2008.

6 - عبد الوهاب الشعراني، الطبقات الكبرى، المسماة بلواقع الأنوار في طبقات الأخيار، ضبطه وصححه عبد الغني محمد علمي الفاسي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2006.

7 - عبد الله بن الصديق الغماري، م. س، ص. 33.

كرامة أعظم من كرامة الإيمان ومتابعة السنة، فمن أعطيها وجعل يشاق إلى غيرهما، فهو عبد مفتر كذاب، أو ذو خطأ في العلم والصواب، كمن أكرم بشهادة الملك فاشتاق إلى سياسة الدواب"⁸.

4. أبو نصر السراج الطوسي (ت 378هـ): صاحب كتاب "اللمع"، الذي وضح فيه الحد بين التصوف السني الحقيقي، وبين الادعاءات المنسوبة جهلاً إلى التصوف، لذلك جاء في مقدمة كتابه: "واعلم أن في زماننا هذا قد كثر الخائضون في علوم هذه الطائفة، وقد كثر أيضاً المشتبهون بأهل التصوف، والمشيرون إليها والمجيبون عنها، وعن مسائلها، وكل واحد منهم يضيف إلى نفسه كتاباً قد زخرفه، وكلاماً قد ألفه، وليس بمستحسن منهم ذلك، لأن الأوائل والمشايخ الذين تكلموا في هذه المسائل، وأشاروا إلى هذه الإشارات ونطقوا بهذا الحكم إنما تكلموا بعد قطع العلائق وإماتة النفوس بالمجاهدة، وقاموا بشرط العلم، ثم عملوا به، ثم تحققوا في العمل فجمعوا بين العلم والحقيقة والعمل"⁹.

5. أبو بكر محمد الكلابادي (ت 380هـ): مؤلف كتاب شهير في التصوف يحمل عنوان: "التعرف لمذهب أهل التصوف"، وقد أورد فيه أن "علوم الصوفية علوم الأحوال، والأحوال موارد الأعمال، ولا يرث الأحوال إلا من صحح الأعمال. وأول تصحيح الأعمال: معرفة علومها وهي علم الأحكام الشرعية من أصول الفقه وفروعه (...) إلى علم المعاملات (...)", فأول ما يلزم العبد الاجتهاد في طلب هذا العلم وإحكامه على قدر ما أمكنه ووسعه طبعه وقوي عليه فهمه، بعد إحكام علم التوحيد، والمعرفة على طريق الكتاب والسنة وإجماع السلف الصالح عليه، القدر الذي يتيقن بصحة ما عليه أهل السنة والجماعة"¹⁰.

ونكتفي بهذا القدر من الأمثلة، من الشيوخ والأئمة الذين أسسوا وقعدوا للتصوف السني، وإلا فإن أمثالهم ممن سبقهم وجاء بعدهم، يصعب حصر عددهم لكثرتهم، منهم¹¹:

8 - نفسه.

9 - أبو نصر السراج الطوسي، اللمع، تحقيق عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، 1960، ص. 19-20.

10 - أبو بكر محمد الكلابادي، التعرف لمذهب أهل التصوف، تحقيق محمود أمين النواوي، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، 1980، ص. 104.

11 - لتفاصيل أشمل حول هؤلاء الرجال الصوفية، يمكن الرجوع على سبيل المثال، إلى:

- مبارك أبو معشر، التصوف السني مقاربات في الإصلاح، مطبعة Safi Graphe، المدينة الجديدة، آسفي، سنة 2009، ص. 18 وما بعدها.

- عبد الله بن الصديق، م. س، ص. 27 وما بعدها.

- محمد بن الطيب، فقه التصوف: بحث في المقاربة الأصولية الفقهية عند أبي إسحاق الشاطبي، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2010.

- الحسن البصري (ت 110هـ).
- إبراهيم بن أدهم (ت 161هـ).
- ذو النون المصري (ت 245هـ).
- السري السقطي (ت 251هـ).
- الحارث المحاسبي (ت 243هـ).
- الحكيم الترمذي (ت 285هـ).
- الإمام الهجویری (ت 465هـ).
- سمنون بن حمزة (ت 290هـ).
- أبو طالب المكي (ت 386هـ).
- الإمام عبد الكريم القشيري (ت 465هـ).
- الإمام أبو حامد الغزالي (ت 505هـ).
- مولاي عبد القادر الجيلاني (ت 561هـ).
- محيي الدين بن عربي (ت 638هـ).
- مولاي عبد السلام بن مشيش (ت 626هـ).

وقبل أن نتطرق لرصد بعض مظاهر الخلاف والعداء أحيانا، بين شيوخ التصوف وعدد غير قليل من الفقهاء، أرى من المفيد إعطاء فكرة موجزة عن الأسباب السياسية والاجتماعية التي أفرزت ظاهرة التصوف منذ القرون الإسلامية الأولى.

ذلك أنه عندما تعقدت الحياة الإسلامية وبرزت بعض العوامل الداخلية والخارجية، اختل منهج الشمولية والتوازن لدى المسلمين، فغلب على النسق العام للأمة الجانب المادي في الحياة، والجانب العقلي في الفكر. وتفسير ذلك أنه بعد نجاح الفتوحات الإسلامية، نشطت الحياة الاقتصادية، وتدفقت الأموال بشكل كبير، وعم الترف البلدان، وتم الاقتصار على الإمعان في مصالح الدنيا، ومعطياتها المادية، فانعكس ذلك الوضع على مستوى الفكر الذي شهد بدوره غلوا في جانبه العقلي، وصار الفقه يعنى بظاهر الدين لا بباطنه وبأعمال الجوارح، لا بأعمال القلوب، وبمادة العبادات لا بروحها¹².

12 - يوسف القرضاوي، فتاوى معاصرة، دار القلم، الكويت، 1990، ص. 735.

وقد ساعد على نمو هذا الشرخ المنهجي مؤثرات خارجية تتمثل في الثقافات الأجنبية، خصوصا الإرث اليوناني المبني على الفكر الوثني، الذي يحرص الوجود في مجاله العقلي الخالص في أغلب الأحوال. كما كان للعامل السياسي تأثير بالغ على الواقع الإسلامي، خصوصا في العصر الأموي الذي تضخمت فيه حصيلة الامتيازات للحاكم على حساب الرعية، واحتل فيه ميزان العدل الإسلامي بمحاربة العلماء وآل البيت، إلى أن صار سلوك مؤسسة السلطة الزمنية شاذًا وغامضًا لعموم الأمة التي لازالت ذاكرتها حديثة عهد بنموذج النبوة¹³. هذه الأوضاع مجتمعة هي التي كانت وراء اعتزال بعض المسلمين عن الحياة الاجتماعية، طلبا لحياة الزهد، سواء كان ذلك شعورا منهم بالعجز عن مواجهة القهر والاستبداد، وحث الناس على ذلك، أو تعبيرا عن رفض المؤسسات السياسية ونظامها في الحكم. ومهما اختلفت مبررات الزهد والعزلة التي عاشها بعض العلماء والزهاد في منتصف القرن الأول، فإنها لا تغدو أن تكون بداية للارتقاء من تأملات فردية إلى تكوين مفاهيم نظرية تربوية جماعية، ستؤسسها حركة التصوف فيما بعد لسد الفراغ الروحي الذي أحدثه بعض المتكلمين والفقهاء ورجال الحكم والسياسة¹⁴.

من جهة أخرى لابد من التأكيد على أن اثر الواقع الاقتصادي والفكري والسياسي الذي احتضن بذور التصوف الأولى، لا يعني تركية مقولة التنظير الماركسي التي تفيد أن الفكر ما هو إلا انعكاس للواقع اليومي وترجمة عملية للمعطيات المعيشية المجتمعية، بل هناك من يميل إلى ربط هذا كله بطبيعة مقولات الفكر الإسلامي، وما فيه من روح التجديد وطبيعة تفسيرها للعلاقات الكونية والعلاقات الإنسانية والعلاقات الاجتماعية. ومما يؤكد هذا الطرح، ما نلاحظه من تطور التصوف من زهد إلى بناء مفاهيم نظرية تربوية، ثم إلى حركات إصلاحية وجهادية في العصور المتأخرة يعكس هذه الروح التي تجدد للأمة أمر دينها حسب التقويم الدوري الذي يشهده تاريخ الإسلام على رأس كل مائة سنة¹⁵.

ومن القضايا الشائكة التي كانت سببا في عرقلة تطور نشأة التصوف وانتشاره في المجتمعات الإسلامية لفترة طويلة، تلك الخصومة التي طبعت علاقة الفقهاء بالمتصوفة، لكن ما أن تبددت أسباب الخلاف حتى عاد التصوف لعنفوانه، بسبب تنازلات قدمها الطرفان، إذ بات من المعروف والشائع عند المهتمين بموضوع التصوف الإسلامي أن علاقة الفقيه بالمتصوف هي إلى التنافر أقرب، وقد رشح هذا الرأي حتى أضحى من المسلمات، وإنما أتيح له أن يتمكن في العقول ويرسخ في

13 - مبارك أبو معشر، م. س، ص. 16.

14 - نفسه.

15 - يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد أمر دينها)، رواه أبو داود والحاكم والبيهقي وغيرهم، نقلا عن مبارك أبو معشر، م. س، ص. 17، هامش 2.

الأذهان جراء الخصومات المتجذرة بين الفقهاء والمتصوفة، على مدار التاريخ الإسلامي، ذلك أن فريق الفقهاء كان ينكر على المتصوفة أعمالا تبدو مخالفة للشرع، فينحى عليهم باللوم والعتاب حيناً والتشنيع والتعنيف أحيانا أخرى، وكان فريق المتصوفة يحتقر الفقهاء ويستصغروهم ناعتا إياهم بالجمود على ظاهر النصوص والجهل ببواطنه تارة، أو يعمد إلى مجاملتهم واسترضائهم تقية وخوفا تارة أخرى، فتكون اعتقاد عند الدارسين أن العلاقة بين الطائفتين متوترة في الأغلب الأعم، وأن المصالحة بينهما كان الفصل فيها لعبد الكريم القشيري (ت 465هـ) أولا ولأبي حامد الغزالي (ت 505هـ) أخيراً، فأصبح التصوف مقبولا لدى الفقهاء من أهل السنة، واكتسب شرعية إسلامية سنية نهض الغزالي بأعظم دور في إسباغها عليه¹⁶، مما مكنه من أن يتخلص من أكبر إشكالياته التاريخية، المتمثلة في الصراع الدائم بين رجل الفقه ورجل التصوف¹⁷. فقد أخذ الإمامان المذكوران على عاتقهما وضع حد لاستمرار الخصام والعداء، لأن حاجات الأمة والمجتمع تقتضي مواجهات أعمق وأفيد من ذلك الإشكال¹⁸.

وكانت إشكالية البعد أو القرب من الشرع هي التي دفعت بالقشيري والغزالي إلى جعل أول عملهما تسطير المنهج الشرعي للمريدين من أجل القضاء على البدع، والأمور الدخيلة على التصوف. وقد كانت هذه أولى خطوات التصالح، حيث أبدى الصوفية الاهتمام بالنقد الذاتي لتقويم بنيتهم الداخلية من أجل أن يتسنى لهم إعطاء صورة موافقة للمنهج الشرعي الذي لا يعترض عليه الفقهاء. ورغم أن اشتراط تعلم الفقه والعلوم الشرعية كان متعارفا عليه عند الصوفية قبل القرن الخامس الهجري، إلا أن هذا التعلم زاد الإلحاح في طلبه على يد الصوفية الرواد في هذا القرن، فكتب الإمام القشيري يظهر فيها بشكل جلي عنصر الاشتراط على الصوفية في تعلم الفقه قبل الانضمام إلى سلك الصوفية، كما حصل له قبل أن يكون صوفيا، ثم بعد ذلك أصبح هذا العنصر مستفيضا عند جل أعلام التصوف، ومن هنا قالوا للمريد تفقه في دينك أولا ثم تعال ادخل الطريق، على حد قول الشعراني في "الأنوار القدسية"¹⁹.

لقد كان للإمام القشيري فضل كبير في ربط التصوف بمجال الفقه، ولعل قارئ "الرسالة القشيرية" لا يجد كبير عناء في استخلاص هذا الأمر. وهذا ما جعل بعض رواد الدراسات الاستشراقية أيضا يتنبهون إلى ذلك، فقد اعتبر الباحث آربري، أن الإمام القشيري قام بجهد كبير

16 - محمد بن الطيب، م. س، ص. 5.

17 - مبارك أبو معشر، م. س، ص. 51.

18 - نفسه.

19 - عبد الوهاب الشعراني، الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية، تحقيق طه عبد الباقي سرور ومحمد عيد الشافعي، بيروت، 1992، ج. 1، ص. 41.

من أجل تأسيس تصوف قائم على التوافق والمصالحة مع المنظومة الفقهية²⁰، وأهم ركائز الصلح التي اعتمدها هي اشتراطه أيضا على المتصوفة أن يعرضوا نتائجهم المعرفية المستخلصة من الكشف والفتح والإلهام والموهبة وما شابه ذلك على ميزان الشرع لا ميزان الخوف والوجد، وما خالف ذلك عنده فيضرب به عرض الحائط، وقد كان يهدف بذلك إلى توحيد منهج الأمة مخافة ضياع ثواب الفكر الإسلامي²¹.

وإذا كان الإمام القشيري يرجع إليه الفضل في تقوية أهداف المصالحة، فإن الإمام الغزالي بثقافته الواسعة استنبط ما كان يهدف إليه القشيري، فألف أعظم الكتب في هذا الصلح، هو كتاب "إحياء علوم الدين"، دلالة على عدم التفرقة بين علم وآخر. ويشعر قارئ الكتاب أنه أمام رجلين، أحدهما فقيه، والثاني صوفي انصهر في منهج متكامل بعيدا عن كل دواعي التوتر والخصام، فاستطاع الإمام الغزالي بقدرته الفائقة التعبير أن يوحى إلى زمن التراخي بين الفقهاء والصوفية، فدعا في كتابه "إحياء علوم الدين" إلى ضرورة المحافظة على العلوم الشرعية وعلى الشريعة ذاتها من صلاة وزكاة وصيام وحج، كما نبه على أنه لا وزن لها ما لم تكن بالنية الحسنة، وأنه كما يجب تطهير الظاهر ينبغي تطهير الباطن. وهذا يعني أن الإمام الغزالي كان له من الشجاعة الفقهية، ما أهله لخرق جدار التوتر، ما لم يتيسر لغيره، فكان عمله حافزا للصوفية بعده كي يتحروا المنهج الفقهي، وأن تكون لهم القناعة في امتلاك مقومات العلم الشرعي²².

ومما لا شك فيه أن العلماء الأجلاء التقطوا رسالة الإمامين القشيري والغزالي، وفهموها، فقرروا عدم إبخاس المتصوفة حقهم مهما اختلفت مناهج التحليل، وعلت لغة النقد، لذلك حينما نتمعن في كتب ابن تيمية (ت 728هـ) وتلميذه ابن القيم، نجد أن أكثر الخدمات التي قدمها التاريخ للتصوف كانت على لسانيهما، لأنهما اعترفا بفضل التصوف والصوفية، ثم حاولا بعد ذلك تخليصه وتهذيبه من الشوائب وأهل البدع بالدعوة إلى ربطه بالكتاب والسنة، وفي هذا العمل المهم تحقيق أمرين: الأول له ارتباط بالنقد التقويمي الذي قام به كل من ابن تيمية وابن القيم، فهو يقدم اعترافا واهتماما ومؤسسة فقهية موسوعية بفضل التصوف، بعد أن كان مضطهدا في سابق حاله من طرف بعض العلماء²³. وأما الأمر الثاني، فيتجلى في العملية التي قامت بها هذه المؤسسة العلمية، من تهذيب وتنقيح، كانت في سالف الوقت من مهام الصوفية أنفسهم، كما كان الحال في القرن الخامس

20 - مبارك أبو معشر، م. س، ص. 65.

21 - نفسه.

22 - نفسه.

23 - نفسه، ص. 72.

الهجري، وانقلاب هذه المهمة إلى يد الفقهاء وعلوم الشريعة دليل على أن مشروع المصالحة في القرن ذاته، قد بدت له ملامح إيجابية، حيث صار الهم مشتركا بين الصوفي والفقهي من أجل إعادة ربطه بالأصول الإسلامية²⁴.

وكخلاصة لهذا المبحث الخاص بالمصالحة بين الفقهاء والصوفية، في سياق مناقشة التصوف السني، لا بد من الإقرار أن الإمامين أبا القاسم القشيري وأبا حامد الغزالي، يظان نموذجين للتصوف السني غير المنفصل عن قضايا وهموم واقعهما التاريخي، جمع بينهما أكثر من رابط. فعلاوة على الفترة الزمنية التي جمعت بينهما خلال الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري، هناك روابط أخرى ساهمت في التقارب فكريا بينهما. منها:

- الرابط السني²⁵: بفعل انتهائهما إلى التصوف السني العملي المشيد على تعاليم الكتاب والسنة، مع البعد عن التصوف النظري المتمثل في فلسفة الحلول والاتحاد.

- الرابط الإصلاح²⁶: هدفه الدعوة إلى تأسيس نسق إصلاحي متكامل، وذلك عندما استهل الإمام القشيري هذا العمل بإعادة ربط التصوف بالأصول الإسلامية ووضع حد للمتصوفة أصحاب الذوق المخالف لمنهج الكتاب والسنة، وما شابههم من المشعوذين والدجالين، في حين أنهى الغزالي هذا العمل بخطة المصالحة بين الفقهاء والصوفية.

- الرابط المذهبي²⁷: وذلك بالتقاء الإمامين في المذهب الشافعي على مستوى الفقه، وفي الأشعرية على مستوى الاعتقاد.

- رابط الأستاذية: يظهر ذلك من خلال كتاب "الإحياء" المتأثر بمنهج القشيري، يضاف إلى ذلك اتصال في السند بين الرجلين من طريقين: من طريق الإمام الجويني (ت 478هـ) الذي استفاد من علم القشيري، وصاحبه كثيرا، ثم درّس فيما بعد الغزالي، وكان له أستاذا ومرشدا، وأيضا من طريق أبي علي الفضل بن محمد الفارمدي (ت 477هـ) شيخ الغزالي، وأستاذه الذي كان تلميذا لأبي القاسم القشيري.

بعد استعراض ظروف نشأة التصوف السني الإسلامي في المشرق العربي، ومظاهر تطوره خلال القرون السبعة الأولى للهجرة، مروراً بالخصومة والتصالح بين الفقهاء والمتصوفة، نتقل لمعرفة أسباب وظروف ومظاهر انتشار التصوف السني في المغرب الأقصى.

24 - نفسه.

25 - نفسه، ص. 106.

26 - نفسه.

27 - نفسه، ص. 107.

II - انتشار التصوف السني في المغرب الأقصى:

من المعروف والمسلم به تاريخيا أن التصوف يشكل نسيج المجتمع المغربي عبر تاريخه بمختلف طبقاته الاجتماعية والفكرية والثقافية، حتى أضحي أحد مرتكزات هويتهم الراسخة إلى جانب المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، رغم ما لقيه من معارضة بين الفينة والأخرى نتيجة لأسباب سياسية أو مواقف محددة لمشرب طائفة من أهل التصوف التي غلب عليها جانب الحقائق²⁸، والتي كانت مدخلا للطعن في مشروعية التصوف، رغم أن الخطاب الإشاري عند أهل هذا الشأن يحمل أبعادا تربوية، تنكشف لمن كانت له مشاركة لهم في سلوكهم، مع ملاحظة أن الممارسة الصوفية في المغرب، بما تنبني عليه من أصول شرعية، وما تنشده من مقاصد تربوية أخلاقية تنأى أن تحتضن كيانا غير شرعي، باعتبار أن مدلول التصوف عند رجالاته رهين بالتقيد بهذه الضوابط المؤسسة للعلم التربوي الأخلاقي، وإلا فهي لا تعدّ داخل نطاق التصوف²⁹، سيما وأن الخطاب الصوفي ذا المرجعية الجنيديّة الذي أخذ به أهل المغرب، ظل متفاعلا مع اختياراتهم الفقهية والعقدية، ولم يعرف ذلك الصراع الذي كان محتدما في المشرق، لذلك نجد هذا الجمع متحققا في عدد من أعلام الفقه الذين جمعوا بين البعدين الفقهي والسلوكي كالشيخ أحمد زروق وعبد الواحد بن عاشر وأحمد ميارة وغيرهم، مما مكن التصوف من المساهمة في الوحدة المذهبية التي عرفتها البلاد، مع مرور الزمن، وذلك في إطار الهيمنة التي تحققت للسند الشاذلي الذي عرف انتشارا واسعا بالمغرب، حتى كاد يصبح السند الرسمي للطوائف والزوايا المغربية³⁰.

لكن ما هي البدايات الأولى لانتشار التصوف بالمغرب؟ وما هي أسباب وظروف ومظاهر ذلك؟ كان للتأثير المشرقي أكبر الأثر في ازدهار التصوف وازدياد أعداد المتصوفة في بلاد المغرب الأقصى، وقد صادف التأثير المشرقي أرضا خصبة، إلى جانب توفر عدة عوامل داخلية ساعدت على تحقيق هذا النجاح في المغرب الأقصى.

أ. العامل الخارجي³¹ (التأثير المشرقي):

ظهرت الحركات الدينية في المشرق الإسلامي منذ صدر الإسلام، وقد وجدت لها أصداء في الشمال الإفريقي ممثلة في ظهور مذهب الخوارج الذي انتشر في كل بلاد المغرب، ثم الدولة العلوية

28 - عبد الله بن الصديق الغماري، م. س، ص. 22.

29 - نفسه، ص. 23.

30 - عبد الله نجمي، التصوف والبدعة بالمغرب: طائفة العكاكزة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، سنة 2000، ص. 9.

31 - حسن سيد عبد الله مراد، المتصوف في المغرب في عصر المرابطين والموحدين، المطبعة الإسلامية الحديثة، القاهرة، سنة 2007، ص. 17.

التي قامت على أساسها دولة الأدارسة في فاس، والمذهب الشيعي الذي قامت على أساسه الدولة الفاطمية في بلاد المغرب، وكذلك ظهور النزعة العقلية للمعتزلة والأشاعرة التي تمذهب بها الموحدون، لذلك كان سيبدو غريبا لو لم ينجح التصوف المشرقي في النفاذ إلى بلاد المغرب الأقصى خاصة ويتغلغل فيه³². فالتصوف المغربي، وفد من المشرق³³ إذن، وطبع الحياة الدينية بطابع لا يروم الاختلاط بالآراء الفلسفية البعيدة عن روح الإسلام³⁴، باعتبار أن الموضوع الأساسي للكتاب ينحصر في كيفية رعاية حقوق الله والقيام بها، مع ما يرافق ذلك من إبراز لمعالم الطريق الصوفي وأهم عناصره، وطريقة تأديب المريدين³⁵، وتطهير النفس ووضع قواعد الحياة الأخلاقية الكاملة³⁶، ولذلك كان تأثير المحاسبي على جمهور الصوفية المغاربة، من حيث محاسبتهم لأنفسهم عميقا.

ومن مظاهر هذا التأثير بالمحاسبي، في محاسبة النفس، ما أورده التادلي في "التشوف"، وابن قنفذ في "أنس الفقير وعز الحقيير"، والصومعي في "المعزى"، وغيرهم من أمثلة في الموضوع. فهذا أبو مدين يقول: "بالمحاسبة يصل العبد إلى درجة المراقبة"³⁷، وكذلك أبو شعيب بن سعيد الصنهاجي (ت 561هـ) الذي كان معلما وتصدق بجميع ما اكتسبه عندما كان يزاول مهنة التعليم، خوفا أن لا يكون قد وفى بما عليه من الحقوق³⁸، وبذلك يكون قد حاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله، كما سلك محاسبة النفس أيضا أبو عبد الله محمد البردعي الأسود السجلماسي الذي كان يحاسب نفسه لشدة خوفه من الله³⁹، ومثله فعل أبو زكريا يحيى بن صالح الهسكوري الذي كان محاسبا لنفسه، كثير البكاء والخوف من الله⁴⁰، ونفس الشيء سار عليه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عثمان الصنهاجي المراكشي (ت 599هـ) الذي تاب ودخل في طريق التصوف، نادما على ما فاتته، فصار كثير المحاسبة لنفسه كثير الحزن والبكاء⁴¹. وغير هؤلاء من المتصوفة المغاربة الذين ساروا على هذا النهج في محاسبة أنفسهم، أتى التادلي بالخصوص، في تشوفه على ذكر عدد كبير منهم.

32 - Alfred Bel, La religion musulmane en Berberie, Paris, 1938, T1, p. 334.

33 - جورج مارسى، بلاد المغرب الإسلامي وعلاقتها بالشرق الإسلامي في العصور الوسطى، ترجمة محمود عبد الله هيكمل، مراجعة مصطفى ضيف، الإسكندرية، 1991، ص. 332.

34 - أبو عبد الله المحاسبي، الرعاية لحقوق الله والقيام بها، راجعه وقدم له عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، القاهرة، دون تاريخ، ص. 13 - 14.

35 - نفسه.

36 - محمد جلال شرف، خصائص الحياة الروحية في مدرسة بغداد، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 1977، ص. 224.

37 - أحمد بن قنفذ القسنطيني، أنس الفقير وعز الحقيير، نشر وتحقيق محمد الفاسي وأدولف فور، الرباط، 1965، ص. 19.

38 - يوسف التادلي، التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي، تحقيق أحمد التوفيق، الرباط، 1984، ص. 187.

39 - نفسه، ص. 278.

40 - نفسه، ص. 362.

41 - نفسه، ص. 375.

ومن المؤلفات الأخرى لكبار صوفية المشرق، التي عرفت طريقها إلى أيدي صوفية المغرب الأقصى وأثرت في تصوفهم الوليد، يمكن ذكر مؤلف أبي طالب المكي تحت عنوان "قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد"⁴²، وهو من أمهات كتب التصوف الإسلامي والتعليم الصوفي، التي لا يمكن الاستغناء عنها في تربية المريدين وتثقيفهم ثقافة إسلامية، لذلك كان الشيخ الصوفي أبو إبراهيم إسماعيل بن وجماتن الرجراجي (ت 595هـ)، يقوم بقراءة هذا الكتاب لمريديه⁴³، لما يقدمه من فوائد جمّة في أسس المنهج الصوفي وشروطه، وقواعد تنظيم حياة السالكين والمريدين الذين ينتسبون إلى التصوف، وما يحدده لهم من واجبات وأعمال تعينهم على مجاهدة أهوائهم وتهذيبهم نفوسهم ليكونوا أهلاً لعطاء الله وفضله.

هذه الأسس والقواعد الصوفية التي صاغها المكي في كتابه، كان لها أكبر الأثر في التصوف المغربي، إذ بها تم تربية المريدين، ما يشهد على هذا، أنه عندما نقرأ تراجم متصوفة المغرب الأقصى، يتضح لنا مدى تأثرهم بآراء أبي طالب المكي في التصوف، خصوصاً ما يرتبط بالجوع والسهر والصمت والخلوة. وقد سلك العديد من صوفية المغرب الأقصى هذا الطريق في المجاهدة⁴⁴.

ومن الكتب الصوفية المشرقية الأخرى التي انكب متصوفة المغرب على النهل منها، يذكر التادلي في "التشوف" من جملة ما يذكره، مؤلفات أبي بكر المطوعي، وأبي حامد الغزالي⁴⁵.

لقد كان وراء نقل كتب المطوعي إلى المغرب الأقصى المتصوف أبو عبد الله محمد بن سعدون بن علي بن بلال القيرواني (ت 485هـ)، لما سافر إلى مكة وبها التقى أبا بكر المطوعي، فأخذ تأليفه في التصوف، وغادر بلاد الحجاز عائداً إلى المغرب، فاستقر في أغمات وريكة⁴⁶، مما ساهم في ذبوع تلك المؤلفات، ومنها كتاب "من صبر ظفر" وكتاب "المقالات في المقامات"⁴⁷. كما يعتبر كتاب "إحياء علوم الدين" لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي، من أهم المؤلفات التي شاعت في المغرب الأقصى ولقيت رواجاً لدى المنتسبين للتصوف والصالحين. وتأتي أهمية "إحياء علوم الدين" من كون مؤلفه قدم مساهمة فكرية أساسية، بتمكنه من جعل التصوف جزءاً من الدين، مقبولا لدى العلماء⁴⁸ ليحتل (التصوف) مكانة راسخة لدى أهل السنة.

42 - حقق هذا الكتاب عبد المنعم الحنفي، القاهرة، 1991.

43 - يوسف التادلي، م. س، ص. 354.

44 - نفسه، تراجم رقم 12-22-24-33-57-95، وغيرها من التراجم.

45 - حسين سيد عبد الله مراد، م. س، ص. 23.

46 - يوسف التادلي، م. س، ص. 83.

47 - حسين سيد عبد الله مراد، م. س، ص. 23.

48 - جورج قناتي، التصوف، مقال في كتاب تراث الإسلام، سلسلة عالم المعرفة، عدد 11، القسم الثاني، ص. 246.

وليس أدل على ذبوع كتاب الإحياء من أن فقهاء دولة المرابطين، خصوصاً قاضي قرطبة، أبا عبد الله محمد بن علي بن حمدين، طلبوا من أمير المسلمين علي بن يوسف إحراق هذا الكتاب⁴⁹، لأن الغزالي انتقد أحوالهم وطريقة عملهم وكان يدعو إلى المحافظة على أصول الإسلام الأساسية: القرآن الكريم والسنة النبوية، لأن المرابطين تركوا الأصول في الدين واعتمدوا على دراسة الفروع، واعتبروها غايات علم الدين، بدلاً من أن تكون مجرد فرع ثانوي، ووافقهم علي بن يوسف، لذلك أرسلت الكتب إلى جميع أنحاء الدولة المرابطية بأمر إحراق الكتاب حيثما وجد، فأخذت نسخ الكتاب ممن كانوا يقننونه وأحرقت في كل بلاد المغرب والأندلس عام 503 هـ⁵⁰.

لكن متصوفة المغرب الأقصى، تقديراً للإمام الغزالي ولفكره، الذي قام بدور كبير في التوفيق بين التصوف والإسلام ابتداء من أواخر القرن الخامس الهجري، عارضوا قرار الإحراق. ومما يشهد على هذا القول أن الصوفي يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بابن النحوي الذي استوطن سجلماسة وفاس (ت 513 هـ)، لم يلتزم بما أفتى به فقهاء المرابطين وانتصر لأبي حامد الغزالي، وكتب إلى السلطان في ذلك⁵¹، ونقل عن ابن حرزهم⁵²، أنه قال: "عندما وصل إلى فاس كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بالتجريح على كتاب الإحياء، وأن يحلف الناس بالآيمان أن الإحياء ليس عندهم، ذهب إلى أبي الفضل النحوي أستفتيه في تلك الآيمان، فأفتى بأنها لا تلزم"، بل ذكر ابن حرزهم أيضاً أن ابن النحوي كانت عنده أسفار كتاب "الإحياء" وسمعه يقول: "هذه الأسفار من كتاب الإحياء وددت أني لم أنظر في عمري سواها"⁵³، بل قام بنسخ كتاب الإحياء في ثلاثين جزءاً.

كتاب آخر ذاع بين صوفية المغرب الأقصى، هو كتاب "الرسالة القشيرية في التصوف" لأبي القاسم القشيري، ومما يدل على أهمية هذا الكتاب أن أبا مدين كان يعقد مجالس للوعظ يعلم فيها الناس ويرببهم روحياً، فتخرج على يديه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال، وكان يتناول في مجلسه رسالة القشيري في التصوف⁵⁴، وهو كتاب تم تأليفه عام 437 هـ، حينما لاحظ في صوفية عصره بعض الانحراف عن خط التصوف الصادق، وتحدث فيه عن عقائد الصوفية، مبيناً

49 - علي بن القطان، نظم الجمان، تحقيق محمود علي مكي، الرباط، بدون تاريخ، ص. 14 - 16.

50 - علي بن القطان، م. س، ص. 14 - 16.

51 - أحمد بابا التمبكتي، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة، طرابلس، 1989، ص. 624.

52 - أحمد بن القاضي، جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس، الرباط، 1977، ج 2، ص. 552.

53 - يوسف التادلي، م. س، ص. 96.

54 - أحمد الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق عادل نويهض، بيروت، بدون تاريخ، ص. 26.

أنها موافقة للكتاب والسنة، كما بسط القول في آداب المريد وصفات الشيخ، وقضايا تهم دارس التصوف⁵⁵.

لم يتأثر متصوفة المغرب الأقصى بالتصوف المشرقي عن طريق الكتب فحسب، بل تأثروا كذلك عن طريق رحيل عدد منهم للمشرق للاطلاع على مؤلفات التصوف والالتقاء بصوفيته، خصوصا إلى مدينة مكة مثل⁵⁶:

- أبو محمد عبد الله بن موسى الجوزلي من سلجلماسة (ت 580هـ).

- أبو عمران موسى الصاريوي.

- أبو محمد عبد الجليل بن ويحلان الدكالي نزيل أغمات (ت 541هـ).

ولم يقتصر الأمر على سفر صوفية المغرب إلى المشرق، بل حدث العكس أيضا، إذ يذكر لنا التادلي في "التشوف" أن طائفة من متصوفة المشرق وصلوا إلى بلاد أزمور لزيارة أبي عبد الله بن أبي أمغار وأبي شعيب وأبي عيسى وزجيج بن ولون فوجدهم قد ماتوا⁵⁷.

كانت هذه نظرة مختصرة عن بعض مظاهر انتقال التصوف السني المشرقي إلى المغرب، وأهم العوامل الخارجية التي كانت وراء ذلك، مع ملاحظة أن انتشار التصوف المشرقي في المغرب، تأليفا وسلوكا كانت له أسباب داخلية أيضا، نعرض لبعضها باختصار شديد، على أمل أن نبسط القول بخصوص هذا الموضوع، في مساهمة لاحقة بحول الله.

ب. العوامل الداخلية:

من بين هذه العوامل:

1- الطبيعة الدينية للدولتين المرابطية والموحدية:

لأنهما قامتا على أساس دعوة دينية تركز على إصلاح الإسلام السني وإقامة ما يفرضه الإسلام من الفرائض والسنن والأحكام التي طالها قدر غير قليل من الإهمال⁵⁸، ومن أجل إقرار المذهب السني قامت الدولة المرابطية منذ قيامها بمحاولة القضاء على المذاهب الخارجية والمنحرفة، مثل البرغواطيين والخوارج الصفرية، وبعض الحركات ذات النزعة الشيعية، متتبعة إياها ومطاردة

55 - لاطلاع أوسع حول هذا الموضوع، يمكن الرجوع إلى:

- عبد الكريم القشيري، الرسالة القشيرية في علم التصوف، بيروت، 1957.

56 - حسين سيد عبد الله مراد، م. س، ص. 28-29.

57 - يوسف التادلي، م. س، ص. 185.

58 - أحمد النويري، نهاية الأرب في فنون العرب، تحقيق حسين نصار، القاهرة، 1983، ج 24، ص. 253.

لها في عدة جهات من المغرب مثل غمارة⁵⁹ وتامسنا وتارودانت. وبذلك نجح المرابطون في تحقيق الوحدة الدينية للمغرب الأقصى وإقرار مذهب مالك.

أما الدعوة الموحدية التي قامت على أساسها دولة الموحدين، فقد قامت بسبب الجمود الفكري الذي سيطر على فقهاء المرابطين الذين كان كل همهم ينحصر في دراسة كتب الفروع، وأهملوا الاجتهاد المؤسس على الأصول المحددة في الكتاب والسنة⁶⁰ مع ملاحظة أن المنبع الذي نهل منه الموحدون هو تعاليم الإمام الغزالي التي تدعو إلى المحافظة على أصول الإسلام الأساسية بما فيها التصوف الإسلامي.

وعلى الرغم من التباين بين الدعوتين المرابطية والموحدية، إلا أنها كان لهما أكبر الأثر في تعميق الشعور الديني لدى سكان المغرب الأقصى، وفي بداية ظهور أقطاب التصوف في عصر المرابطين وزيادة أعدادهم في عصر الموحدين⁶¹.

2- صفات الورع والتقوى لحكام الدولتين المرابطية والموحدية:

وهي الصفات التي ساهمت إلى حد كبير في نمو حركة التصوف السني في المجتمع المغربي ودفعها إلى الأمام. فقد كانوا القدوة والنبراس الذي يهتدى به لرعاياهم في الزهد والتقشف وشدة التدين والعكوف على العبادة. فهذا عبد الله بن ياسين (451هـ) إمام دولة المرابطين ومؤسسها الروحي والمنظر لها في طور نشأتها، كان فقيها عالما ورعا دينيا⁶²، ومثله كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فاضلا، خيرا زاهدا، كثير الخوف من الله، مقبلا على أداء الفرائض والعبادات⁶³. أما علي بن يوسف فكان يعد من الزهاد والمتبتلين، أقرب منه إلى أن يعد من الملوك، كما كان كثير الصدقة مداوما على أعمال الخير والإحسان.

وتفيد كتب التاريخ أن المهدي بن تومرت (ت 524هـ) مؤسس الدولة الموحدية وفقهها ومنظرها، كان فقيها فاضلا، محدثا عارفا بأصول الدين والفقه ورعا، ناسكا⁶⁴. كما أن خليفته عبد المؤمن بن علي، كان يعظم أمر الدين ويقويه، وكان الغالب على مجلسه أهل العلم والدين. ومما ميز

59 - حسين سعيد عبد الله مراد، م. س، ص. 32.

60 - عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان وآخرون، القاهرة، 1949، ص. 172-173.

61 - حسين سعيد عبد الله مراد، م. س، ص. 33.

62 - أحمد النويري، م. س، ج 24، ص. 25.

63 - ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، الجزء 4، قطعة من تاريخ المرابطين، تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1967، ج 4، ص. 46.

64 - أحمد النويري، م. س، ج 24، ص. 277.

السلطان الموحي أبا يعقوب يوسف بن عبد المومن، أنه كان حافظا للقرآن، وكان كثير الإلمام بصحيح البخاري ومسلم⁶⁵، واشتهر بزهده وورعه وعدله⁶⁶، بل تفوق على أسلافه في تدينه، بإظهاره الزهد والتقشف وخشونة المأكل والملبس، حتى انتشر في أيامه الصالحون وعظمت مكانتهم، فدأب على دعوتهم للحضور إليه من مختلف أنحاء دولته، يسألهم الدعاء بالصالح والفلاح للبلاد والعباد، مع إحاطتهم بكل مظاهر التبجيل والتكريم⁶⁷.

3- انتشار الربط في كل أنحاء المغرب:

كان لانتشار الربط في كل أنحاء المغرب الأقصى، أكبر الأثر في نمو التصوف، وذلك بما وفرته من أماكن للعكوف على العبادة والمجاهدات، وتلقين تعاليم التصوف، علاوة على ارتباطها بالجهاد وملازمة ثغر العدو، يشهد على ذلك كثرة الرباطات على امتداد الشواطئ المغربية، لكن مع رسوخ الإسلام في بلاد المغرب والقضاء على البدع والمذاهب المحرمة، واختفاء التهديدات الخارجية في ذلك الحين، اختفت الوظيفة الحربية للربط⁶⁸.

ومن الربط التي أقام بها الزهاد والمتصوفة رباط مدينة سلا، وكان يقع على ساحل المحيط الأطلسي، ورباط تينفطر في مدينة أزموور وهو من أقدم الرباطات بالمغرب الأقصى، يرى البعض أن وجوده سابق على العهد المرابطي، يقع قريبا من مدينة الجديدة إلى الجنوب على شاطئ المحيط الأطلسي. كما يوجد بمدينة آسفي رباطات أهمها رباط تامرونت وهو يقع قرب البحر، ورباط آسفي الذي يحمل اسم المدينة التي يوجد بها⁶⁹.

أما الرباطات التي نشأت داخل البلاد، بعيدا عن السواحل، فهي كثيرة أهمها رباط شاعر الذي يقع على ضفة نهر تانسيفت في نواحي مدينة مراكش، كما نشأت رُبط في فاس وزرهون، وغيرها من المدن المغربية، وكان الصوفية يقضون وقتهم فيها ما بين الذكر والصلاة والبكاء من خشية الله، كما كانت منابر الوعظ في الأربطة تعمل على جذب الزائرين لها للدخول في الطريق الصوفي. وقد أدى هذا الأمر إلى إقبال أعداد كبيرة من أفراد المجتمع على الدخول في سلك التصوف، خصوصا مع وجود الأربطة التي هيأت لهم مكانا للانقطاع عن المجتمع ومراجعة النفس ومحاسبتها⁷⁰.

65 - عبد الواحد المراكشي، م. س، ص. 200 - 201.

66 - ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة على المستضعفين، بيروت، 1964، ص. 233 - 238.

67 - عبد الواحد المراكشي، م. س، ص. 238.

68 - حسين سيد عبد الله مراد، م. س، ص. 36.

69 - نفسه، ص. 36 - 37.

70 - يمكن الاستفادة من تفاصيل أوسع لهذه التراجم والأخبار في كتاب: يوسف التادلي، التشوف إلى رجال التصوف، م. س.

4- قيام بعض شيوخ التصوف المغربي بوضع مؤلفات في التصوف، لتكون رهن إشارة إخوانهم في الطريق، توضح لهم المبادئ الجوهرية في السلوك الصوفي، مثلما وضع صوفية المشرق العديد من المؤلفات، ومن بين هذه المؤلفات⁷¹:

◀ كتاب "مجالس المحاسن" لأحمد الصنهاجي (ت 536هـ) المعروف بابن العريف، ويعد هذا الكتاب من المؤلفات الصوفية، وضع فيه صاحبه الأسس والقواعد التي تنظم حياة السالكين والمريدين الذين ينتسبون إلى التصوف.

◀ كتاب "أنس الوحيد ونزهة المريد" للعارف بالله أبي مدين (ت 544هـ). وهو كتاب بالغ الأهمية، موجه إلى المريد السالك لطريق التصوف، ينبهه إلى قواعد السلوك التي ينبغي مراعاتها.

5- انتشار الترف والبذخ في أواخر عهد الدولة المرابطية⁷²:

وقد أثرت هذه المظاهر في مشاعر الناس الدينية، نظرا لكون الفقهاء حظوا بالمناصب الرفيعة، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم وعاشوا في بذخ وترف. ولما أهمل الكبار والعامة على السواء قواعد الدين والسلوك، وتفشى شرب الخمر علنا، لم يتحمل المتدينون الحريصون على تقوى الله، ولم تقتصر مظاهر الإهمال لمبادئ الدين وارتكاب أعمال الفحش علنا، على العاصمة مراكش. ففي مدينة فاس، يتحدث "البيدق" عن انتشار حوانيت أدوات اللهو من الدفوف والمزامير وغيرها⁷³، وهذه الانحرافات ساعدت إلى حد كبير في نفاذ الخطاب الصوفي إلى قلوب المغاربة، خاصتهم وعامتهم، لأنهم رأوا فيه منقذهم من حالة التردى التي وصل إليها المسلمون في المغرب، ووسيلتهم للرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله لضمان سعادة الدنيا والآخرة.

كانت تلکم، باختصار أهم المراحل التاريخية التي نشأ وتطور في ثناياها التصوف السني منذ القرون الأولى للهجرة، انطلاقا من المشرق العربي، عموما، وبلاد الحجاز على وجه الخصوص. ومع مرور العقود والقرون انتقل هذا التصوف إلى المغرب الأقصى مع الحجاج المغاربة، وعبر الرحلات من المغرب إلى المشرق العربي، مثل الرحلات السفرية والعلمية والتجارية علاوة على الحجية. ومما زاد في سرعة وتيرة انتشار التصوف السني بالمغرب الأقصى وشدة انغراسه في نسيج المجتمع المغربي، حب المغاربة للرسول صلى الله عليه وسلم وتعلقهم بشيئله المحمدية الشريفة، وهي غاية لم يكن من الممكن وصولها إلا بفضل وجود شيوخ عارفين بالله، أفنوا أعمارهم في طاعته واتباع سنة نبيه وهم يسلكون مقامات القرب من الله. وقد تتبع هذا العرض أبرز محطات تطور التصوف السني بالمغرب الأقصى، حتى العصر الموحدى.

71 - حسين سيد عبد الله مراد، م. س، ص. 41 وما بعدها.

72 - عبد الواحد المراكشي، م. س، ص. 171.

73 - البيدق، كتاب أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين، نشر ليفي بروفانسال، باريس، 1928، ص. 65.

إسهام علماء الغرب الإفريقي في درس السيرة النبوية: المختار الكنتي وكتابه نزهة الراوي نموذجاً

د. محمد المهدي
المنذوبية الجهوية للشؤون الإسلامية
بالجهة الشرقية

تمهيد:

يأتي اختيار موضوع: "إسهام علماء الغرب الإفريقي في درس السيرة النبوية - المختار الكنتي وكتابه نزهة الراوي نموذجاً" في إطار التعريف بعلم من أعلام الولاية والصلاح البارزين بالغرب الإفريقي وهو الشيخ المختار الكنتي - رحمه الله -، كما سنسعى من خلال هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على أحد مؤلفاته الهامة في درس السيرة النبوية والشائيل المحمدية، ألا وهو "نزهة الراوي وبغية الحاوي".

ويمكن القول بعد قراءة متأنية لهذا الكتاب التليد أنه نص جدير بالدراسة والتحقيق، وذلك لاعتبارات عدة نجملها في الآتي:

- غزارة الفوائد التي اشتمل عليها كتاب "النزهة"، وكثرة التنبيهات التي تتخلله.
- مكانة صاحبه العلمية والأخلاقية.
- قيمته العلمية ومنهجه الرصين بحيث أن صاحبه قد حاذى به كتاب الشفا للقاضي عياض وزاد عليه فوائد جمة.

وقد اقتضت الضرورة المنهجية أن أقسم هذه الدراسة إلى مقدمة ومطلين تناولت في المقدمة دور المدرسة الكنتية في توطيد الروابط والصلات العملية والروحية بين المغرب ودول إفريقيا جنوب الصحراء، أما المطلب الأول فقد خصصته للتعريف بالمؤلف الشيخ المختار الكنتي وآثاره العلمية، أما المطلب الثاني فقد حاولت من خلاله تقريب كتاب: "نزهة الراوي وبغية الحاوي" من القارئ الكريم.

مقدمة

يعد كتاب "نزهة الراوي وبغية الحاوي" لصاحبه المختار الكنتي من التراث العلمي الشاهد على عمق الروابط والصلات بين المغرب ودول إفريقيا جنوب الصحراء، وقد تعززت هذه الروابط بفعل رحلات العلم التي جعلت علماء الصحراء على صلة وثيقة بالخواضر المغربية؛ دون أن ننسى في هذا الصدد دور الطرق الصوفية، فقد كانت بحق مؤسسات روحية تربوية توفر مناخاً صالحاً للتواصل واللقاء¹، وتمنح فرصاً للأخذ والعطاء، كما تعمل في الوقت نفسه على شد الرباط الثقافي والروحي بين مختلف الخواضر الإسلامية يومئذ، وقد كان للطريقة القادرية الكنتية الإسهام الكبير في تقوية هذا التكامل الثقافي، وتمتين التواصل الصوفي بين المغرب ودول إفريقيا جنوب الصحراء، ولا يسع المجال في هذا المقام لسرد أسماء المثقفين المغاربة الذين اجتذبتهم الطريقة القادرية الكنتية².

فضلاً عن مبادرات الطريقة الكنتية في الدعوة إلى إحياء السنة، وإماتة البدعة بإفريقيا والمغرب، فقد كان تأثيرها في التعليم³ والتأليف أكثر بروزاً، بما خلفه أطر المدرسة الكنتية - خاصة الشيخ المختار وابنه محمد - من مؤلفات رصينة تتوزعها: مواد الفقه، والتفسير والسيرة النبوية والشائيل المحمدية، والتصوف، واللغة، والأدب...

هذا، ولم يكتف شيوخ المدرسة الكنتية بما كان يرد عليهم من كتب ومصنفات، وما كانوا يجلبونه من آثار ومدونات، ولكنهم اهتموا بدورهم بالتأليف والتصنيف، فحرروا عدداً من الآثار الفقهية والرسائل التوجيهية، لا تختلف في غناها وتنوعها عما خلفه غيرهم من العلماء.

1 - ورد في رحلة "المنى والمنة"، لأحمد بن طوير الجنة الشنقيطي (ت 1265هـ) قوله: "فتعاملنا معه في زاوية تكون وصلة بيننا وبينه، وبيننا وبين أولاده"، وذلك في رحلة عودته من المشرق، حين مر على السلطان مولاي عبد الرحمن الذي رغب في أن يقيم معه بالمغرب، إلا أنه أقنع السلطان باستحالة مكثه، مؤكداً أنه تنازعه رغبة شديدة إلى أهله، فتولدت من ذلك فكرة تأسيس زاوية تهدف إلى تثبيت الأواصر المعرفية والروحية.

2 - لمن أراد معرفة بعض أسماء المثقفين المغاربة الآخذين عن شيوخ الطريقة الكنتية، فليرجع إلى ما كتبه العلامة المرحوم محمد المنوني في مقال تحت عنوان: "المدرسة الكنتية: نموذج للدعوة والإرشاد بإفريقيا والمغرب في العصر الحديث" مقال في مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني الدار البيضاء، العدد: 4، السنة: 1986م.

3 - من سيرة الشيخ المختار (الكبير) أنه كان يهتم بتثقيف النساء، حيث يذكر عنه ابنه الشيخ محمد أنه ختم المختصر الخليلي تدريساً هو وزوجه في يوم واحد في خيمة واحدة، الشيخ للرجال، وزوجه للنساء، "الطرائف والتلائد"، مخطوط بالخزانة الحسنية بالرباط، رقم: 690، ورقة: 106.

المطلب الأول: التعريف بالشيخ المختار الكنتي

أ - أصله ونسبه

هو المختار بن أحمد بن أبي بكر بن محمد بن حبيب الله بن الوافي بن عمر بن أحمد البكاي بن محمد الكنتي بن علي بن يحيى بن عثمان بن عبد الله الملقب ب: "يهس أو يحسن" بن عمر الملقب "بدومان" بن ورد بن يعقوب بن العاقب بن عقبة بن نافع⁴.

اشتهر المؤلف بلقب "الكنتي" نسبة إلى قبيلة كُنت، ويعرف الكنتيون في الجنوب المغربي باسم: إكتتاون، مفردة أكتتاو، ويرد في بعض كتب التراجم بصيغة الكنتاوي⁵.

ب - نشأته

ولد الشيخ المختار الكنتي في شمال شرق أدرار بكثيب أوغال سنة اثنين وأربعين بعد المائة والألف 1142هـ/1729م، وتوفي في خامس جمادى الأولى سنة ست وعشرين بعد المائتين والألف 1226هـ/1811م، عن أربع وثمانين سنة، ودفن بقرية بولانوار⁶.

تربى الشيخ المختار الكنتي يتيماً في كفالة أخيه لأبيه سيدي محمد، وكان يؤتى به إلى جده لأمه السيد عبد القادر المدعو باد - وهو صغير - فيضع يده على رأسه ويقول: "ماذا من العجب في هذا الرأس؟"، ويردها مراراً، ثم يقول: "السعيد كل السعيد من أدرك أيام هذا، ولا أظنني مدرکہا، فمن أدركها منكم فليمسك بعرزہ، فلعمري هو الإكسیر الأكبر، والكبريت الأحمر"⁷.

ج - تكوينه العلمي

أما ابتداء أمر الشيخ وكيفية طلبه للعلم ورحلته فيه، فإنه كان قد نشأ بين صبيان قومه من كتته نشأة أهل الصحراء، يقرأ القرآن بالكتاب، نقل عنه ولده الشيخ محمد بن المختار قوله: "فألقى الله في نفسي العزيمة على الرحلة في طلب العلم، والتغرب في تحصيله، وتهذيب النفس، فكنت أعمل الفكرة دائماً في الخروج لطلب العلم والجهة التي إليها أتوجه، مع فقد المساعد على جمائل المقاصد، فهياً الله أسباب الخروج إثر ذلك بمدة يسيرة، فتوجهت إلى حي من أحياء السوقين، فأقمت بين

4 - انظر الإرشاد في الهداية إلى السداد وحسن الاعتقاد، للمختار الكنتي، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط، رقم: 935 ك ورقة: 455، وكتبة الشرفيون، ص: 193.

5 - انظر شجرة النور الزكية، لمحمد بن مخلوف، دار الكتاب العربي، بيروت، ص: 170.

6 - الطرائف والتلائد، ص: 5، وكتبة الشرفيون، ص: 39-40.

7 - الطرائف والتلائد، ص: 6.

أظهرهم أتعلم مع فتيانهم، قال: ثم خرجت من بين أولئك إلى أح الكلحرمي⁸، فأقمت عنده زمناً أتعلم الفقه، وكنت مدة إقامتي عنده أكتب سبعة ألواح، كل لوح في فن، فأحفظ تلك الألواح كلها، وأفسر مع أهل كل فن الدرس الموافق لدرسي، ثم أسمع الدروس الخارجة عن درسي، فإذا رجعت أرباب الدروس الموافقة لدرسي، أمليت عليهم جميع ما أملى المقرئ في مجلس الدرس، حتى يأخذ الجميع عني ذلك... قال: ثم قدمت على الشيخ المربي سيدي علي بن النجيب، وكان عارفاً بالله ناسكاً متعبداً، عالماً متفنناً، صاحب أحوال سنية، وأعمال زكية سنية، فصحبته وأخذت عنه الأوراد القادرية وعملت في الرياضة⁹. قال: "وكنيت في تلك المدة أفسر القرآن، وأخذ مرويات الشيخ من الأحاديث، كالصالح الست، وجامع الأصول لابن الأثير، وجامعي السيوطي الكبير والصغير، وشفاء القاضي عياض، وكشف الغمة عن سائر الأمة للشعراني، والترغيب والترهيب للحافظ المنذري...، وعزمت على قراءة علوم اللسان فافتتحت مقدمة ابن أجروم، فلما بلغت النصف منها زاحمت من فات النصف من قراءة الخلاصة، والفريدة، فلما افتتحت الخلاصة كان درسي منها أربعين بيتاً بطورها وشواهدا، حتى فقت جميع من هناك من متعاطي النحو، وبرعت في الفن، ثم اشتغلت بفنون البيان، واتخذت خلوة للرياضة، فكنت لا آوي إلى أحد ولا أخالطه.

أما في مجال الفقه فقرأ رحمه الله مختصر خليل، ومنظومة ابن عاصم على محمد أحمد اليلتماتيحي. وأما جامع الأصول لابن الحاجب، وكتاب ابن عرفة، ورسالة ابن أبي زيد فقرأهما على الشيخ علي بن النجيب.

وأما الأصول فقرأ الورقات لأبي المعالي الجويني، وجمع الجوامع لابن السبكي، وكافية ابن الحاجب وتنقيح الفصول للقراقي، وقواعد المنجوري على الشيخ سيدي علي بن النجيب بالسند المتصل إلى مؤلفيها¹⁰.

وأما التفسير فأخذ تفسير الجلالين، وتفسير البغوي، ولباب التأويل لابن الخازن، وتفسير ابن عطية، وتفسير النسفي، والبيضاوي، عن الشيخ علي بسنده إلى مؤلفيها¹¹.

8 - شيخ من قبيلة كل الحرمة داخل النيجر، انظر كتنة الشريقون، ص: 44.

9 - الطرائف والتلائد، ص: 18-19-20.

10 - كان الشيخ الكنتي يتحرى في هذه التصانيف السند المتصل إلى مؤلفيها، عن طريق شيوخه، وقد بين رحمه الله أهمية السند، حيث كان كثيراً ما يكتب في مفتحات إجازته: "...أما بعد فإن السند هو العروة الوثقى للعلماء، والصلة المتصلة الموصلة بمددها إلى الأولياء اتخذه العلماء مغنماً، والأولياء سلماً"، الطرائف والتلائد، ص: 35.

11 - نفسه، ص: 34-35-36-37.

د- تكوينه الصوفي

ينتسب الشيخ المختار الكنتي إلى الطريقة الصوفية القادرية عن طريق أكبر مشايخها المعاصرين له، وهو الشيخ سيدي علي بن النجيب.

وقد ظهرت ثمرة صحبة الشيخ الكنتي لشيخه علي بن النجيب، إذ لم يلبث أن احتل موقع الصدارة في الطريقة القادرية، فحاز مرتبة المشيخة عن جدارة واستحقاق، حيث صار مؤهلا للتصدي للتربية والتدريس، وتلقيه علم التصوف لتلامذته.

و- تلامذته

أقام الشيخ المختار الكنتي عدة محاضر في عدد من المناطق الصحراوية والسودانية، وغيرها من المناطق التي امتد إليها الإشعاع الكنتي، ووفر لها ما تحتاجه من إمكانات مادية، فقصدها العلماء والطلبة، ونهلوا من علومها ومعارفها، وحظوا بكرم الشيخ الكنتي، فتخرج منها عدد من العلماء والصلحاء، ساهموا بقسط وافر في نشر الثقافة العربية الإسلامية في كثير من بلدان إفريقيا، مثل ابنه الشيخ محمد¹² والشيخ القاضي الأبيجي، والشيخ سيدي الأيبري، والشيخ محمد المامي، والشيخ المختار البوصادي وغيرهم.

ولا تختلف المواد الدراسية المعتمدة في هذه المدارس عما كان متداولاً في القرويين بفاس ومراكش والقيروان وغيرها من المراكز الثقافية في غرب إفريقيا في هذه الفترة من كتب ومتون، ويظهر ذلك فيما قرأه الشيخ المختار الكنتي نفسه من مدونات وأخذه عن شيوخه من علوم ومعارف كما سبق بيان ذلك.

ولم يكن تعليم هذه المحاضر مقصوراً على الرجال فقط أو الصغار وحدهم، بل كان يشمل الكبار والصغار والنساء والرجال معاً، فمما يذكر سيدي محمد بن المختار الكنتي من أخبار والده المختار أنه: "ختم مختصر خليل تدريساً هو وزوجته في يوم واحد في خيمة واحدة، هو للرجال والشيخة للنساء"¹³.

وقد تمكن الشيخ الكنتي بفضل هذه السياسة من توسيع دائرة الثقافة العربية الإسلامية في منطقة غرب إفريقيا وفتح آفاق جديدة لانتشارها.

12 - توفي سنة 1826/1242، ودفن إلى جانب والده في بولانوار، من تأليفه: "إرشاد السالك إلى أقوم المسالك"، "جنة المريد دون المريد"، "السراج النفيس وعلاج الوساويس"، "الطرائف والتلائد".

13 - الطرائف والتلائد، ص: 45.

ز- آثاره الفكرية

يتصدر الشيخ المختار الكنتي شيوخ هذه المرحلة في غزارة الإنتاج وكثرة المؤلفات "فقد اشتغل غاية الشغل بالتصنيف في أواخر عمره بنحو سبعة وعشرين سنة، صنف فيها معظم مصنفاته بوجه خارق للعادة، فإن من مصنفاته ما يمكث المصنف الماهر بالتصنيف في مثله ما ينيف على العشرين سنة تسويدا، وهو لم يستوف عاما في تسويد مصنف من مصنفاته، وفيها ما هو في أربعة أسفار ضخام"¹⁴.

إن المكانة العلمية الرفيعة التي كانت للشيخ المختار الكنتي أهلته لأن يخلف تصانيف شتى تدل على موسوعيته وغزارة علمه، مما أدى إلى تنوع موضوعاتها من فقه، ونحو، وحديث وسيرة نبوية، وتفسير، وتصوف وغيرها، وتنوع أشكالها نظما، ونثرا، استقلالا وشرحا، تقريراً وجدلا...

وقد سعت إلى ضبط لائحة هذه المصنفات بالاعتماد على ما أورده: بول مارتي في كتابه "كتبة الشرقيون"، وما ذكره الخليل النحوي في كتابه "بلاد شنقيط المنارة والرباط"، وما أورده محقق كتاب "بذل الوسع في تفسير الآيات التسع" للشيخ المختار الكنتي في (ملحقه)، وعلى ما هو موجود بالخزانة العامة والخزانة الحسنية بالرباط، وأيضا فهرس مخطوطات مركز أحمد بابا التنبكتي للتوثيق والبحوث التاريخية بتمبكتو¹⁵، وفهرس مخطوطات مكتبة غانا¹⁶، كما رتبت هذه المصنفات على المجالات العلمية، وهي كالتالي:

● التفسير :

- 1- الحجة الباهرة على تقرير معنى البسملة¹⁷.
- 2- كشف النقاب عن أسرار فاتحة الكتاب¹⁸.
- 3- لطائف القدسي في فضل آية الكرسي¹⁹.
- 4- فقه الأعيان في حقائق القرآن²⁰.
- 5- بذل الوسع في تفسير الآيات التسع (مطبوع)²¹.

14 - "الطرائف والتلائد"، ورقة: 115.

15 - منشورات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 1998 م.

16 - منشورات مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، 2000 م.

17 - مخطوط بالخزانة العامة، رقم: 3456 د.

18 - مخطوط بالخزانة العامة، رقم: 343 د.، وتوجد منه نسخة بخزانة علال الفاسي رقم: 828 ع.

19 - مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم: 5493.

20 - مخطوط بخزانة علال الفاسي، رقم: 818 ع.

21 - تحقيق محمد محمود ولد ودادي، مطبعة زيد بن ثابت، دمشق.

• الفقه وأصوله :

- 6- الأجوبة المهمة لمن له بأمر دينه همة²².
 - 7- البرد الموشى في بيان منع بيع الحُكْم والرُّشَى وجميع أنواع الحرام الذي في المخلوقات قد فشا²³.
 - 8- فتح الوهاب في بيان ألفاظ هداية الطلاب المحتوي على معاني الحديث والكتاب²⁴.
 - 9- رسالة في شروط الطهارة والصلاة²⁵.
 - 10- نظم ورقات إمام الحرمين في الأصول²⁶.
- العقيدة:

- 11- الإرشاد في الهداية إلى السداد وحسن الاعتقاد، وهو المسمى أيضاً (المنة في اعتقاد أهل السنة)²⁷.
- 12- نظار الذهب من كل فن منتخب²⁸.
- 13- سلم الرضوان بذوق حلاوة الإيمان²⁹.
- 14- رسالة في الرد على المبتدعة³⁰.
- 15- أجوبة على عدة مسائل في التوحيد³¹.
- 16- الشموس الأحمديّة في العقائد الأحديّة³².

22 - مخطوط بالخزانة العامة، رقم: 1429د، 2541ك.
23 - مخطوط بالخزانة العامة، رقم: 2450 د، وتوجد منه نسخة بالخزانة الحسنية رقم: 824.
24 - مخطوط بالخزانة العامة، رقم: 372د، في ثلاثة أجزاء ضخمة.
25 - فهرس مخطوطات مركز أحمد بابا التنبكتي للتوثيق والبحوث التاريخية بتمبكتو، 534/5.
26 - المرجع نفسه، 103/3.
27 - مخطوط بالخزانة العامة، رقم: 935ك.
28 - مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم: 11799.
29 - فهرس مخطوطات مكتبة غانا، ص: 15، و فهرس مخطوطات مركز أحمد بابا التنبكتي للتوثيق والبحوث التاريخية بتمبكتو، 216/1.
30 - فهرس مخطوطات مركز أحمد بابا التنبكتي للتوثيق والبحوث التاريخية بتمبكتو، 516/5.
31 - نفسه، 487/5.
32 - (ملحق) محقق كتاب "بذل الوسع"، ص: 100.

• التصوف والوعظ والأدعية :

- 20- جذوة الأنوار في الذب عن مناصب أولياء الله الأخيار³³.
- 21- الجرعة الصافية والنفحة الكافية³⁴.
- 22- الكوكب الوقاد في ذكر فضل المشايخ وحقائق الأوراد، ويسمى أيضاً "التذليل الجليل العادم المثل"³⁵.
- 23- شرح القصيدة الفيضية³⁶.
- 24- كتاب في الأدعية³⁷.
- 25- زوال الإلباس في طرد الشيطان الخناس³⁸.
- 26- شرح اسم الله الأعظم³⁹.
- 27- منظومة في ذم الدنيا⁴⁰.
- 28- منظومة في الدعاء والابتهاال⁴¹.
- 29- قصيدة في النصيحة والوعظ⁴².
- 30- رسالة في ذكر فوائد اسم اللطيف⁴³.
- 31- قصيدة في التوسل بأسماء الله الحسنى⁴⁴.

33 - مخطوط بالخزانة العامة، رقم: 2579 ك.

34 - مخطوط بالخزانة العامة، رقم: 2578 ك.

35 - مخطوط بالخزانة العامة، رقم: 3827 د، 3389 د، 2695 د، 1661 د، ويوجد بالخزانة الحسنية، رقم: 1736، 12514، 9942، 6099، 8328.

36 - مخطوط بالخزانة الحسنية رقم: 7357.

37 - مخطوط بالخزانة العامة، رقم: 253 د، ويوجد بالخزانة الحسنية، رقم: 1130، 1053.

38 - فهرس مخطوطات مكتبة غانا، ص: 172، وفهرس مخطوطات مركز أحمد بابا التنبكتي للتوثيق والبحوث التاريخية بتمبكتو، 2/729.

39 - فهرس مخطوطات مركز أحمد بابا التنبكتي للتوثيق والبحوث التاريخية بتمبكتو، 17/5.

40 - نفسه، 4845/.

41 - نفسه، 4855/.

42 - نفسه، 3805/.

43 - نفسه، 380/5.

44 - نفسه، 86/5.

32- كشف اللبس فيما بين الروح والنفس⁴⁵.

33- نزهة الأسماع بأنواع السماع⁴⁶.

• اللغة والأدب :

34- فتح الودود في شرح المقصور والممدود لابن مالك (مطبوع)⁴⁷.

ويمكن القول من خلال استعراض لائحة مؤلفات الشيخ المختار الكنتي، أنها تتميز بغناها وتنوعها واختلاف مجالاتها، وتعدد حقولها المعرفية، فهي تحيط بمختلف فنون العلم من: فقه وتصوف، وتفسير، وأصول، وسيرة نبوية ولغة وغيرها من علوم الظاهر والباطن، إلا أن التصوف غلب عليها، وما كان منها في غيره، يظهر منه معنى الميل إليه وغلبته عليه⁴⁸، ولكن طغيان هذا الميل على كتابات الشيخ لم يسئ إليها، أو يؤثر على قيمتها العلمية، بل زادها عمقا وجلالا، وأضفى عليها سحرا وجمالا، لأن مؤلفها جمع بين العلوم الذوقية والعقلية.

• السيرة النبوية الشريفة :

17- الحصن المنيع في التودد إلى الحبيب⁴⁹.

18- نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب⁵⁰.

19- نزهة الراوي وبغية الحاوي⁵¹، وهو الكتاب الذي سنتناوله بالدرس والتحليل.

45 - (ملحق) محقق كتاب " بذل الوسع "، ص: 101.

46 - " الأجوبة المهمة لمن له بأمر دينه همة "، المختار الكنتي، مخطوط الخزانة العامة، رقم: 429 د، ورقة: 97.

47 - حققه مأمون محمد أحمد، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، 2002م، وتوجد منه نسخ عديدة في الخزانة العامة، رقم: 2940 د، 2572 ك، والخزانة الحسنية تحت رقم: 12192، 11415، 8378، 1957.

48 - " الطرائف والتلائد "، ورقة: 119.

49 - فهرس مخطوطات مركز أحمد بابا التنبكتي للتوثيق والبحوث التاريخية بتمبكتو، 82/3.

50 - مخطوط بالخزانة الحسنية تحت رقم: 8427، 439، ويوجد بالخزانة العامة تحت رقم: 730 د، وقد قام بشرحه ابنه محمد الكنتي (ت 1826م) وسماه "الروض الخصب في شرح نفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب"، مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم: 11796، وشرحه أيضا: عبد السلام بن محمد بن أبي يعزى الفاسي (ت 1848م)، وسماه "نزهة الأبرار، ورياض الأنوار والأزهار، وسر نور الأنوار والأسرار، في أصل ينبوع شرف أطيب الطيب على الصلاة المسماة بنفح الطيب في الصلاة على النبي الحبيب"، مخطوط بالخزانة العامة، رقم: 2220 ك، وبالخزانة الحسنية رقم: 2814-5728.

51 - مخطوط بالخزانة العامة، رقم: 1327 ك، ورقم: 1517 ك، ويوجد بالخزانة الحسنية تحت رقم: 2513، 1429، 412، 92.

المطلب الثاني: التعريف بكتاب "نزهة الراوي وبغية الحاوي"

1- نزهة الراوي مقوماته الشكلية والدلالية.

أ- توثيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه وثناء العلماء عليه

إن كتاب "نزهة الراوي وبغية الحاوي"⁵² ثابت النسبة إلى الشيخ المختار الكنتي، فكل من ترجم له ذكر هذا الكتاب، وعرفه بأنه صاحب "النزهة"، كما ذكره المؤلف في أول الكتاب، حيث قال: "الحمد لله الموصوف بالبقاء والقدم، المخصص بالجود والكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والشكر له على فضله وآلائه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله.

وبعد، فهذا كتاب جليل نسجته على منوال لم أسبق إلى مثله، ورتبته ترتيبا لم يسمح الزمان بإخراج شكله، فجاء بحمد الله وحسن عونه كأنه الشمس في رونق الضحى... وسميته بـ "نزهة الراوي وبغية الحاوي"⁵³.

كما أشار إليه في كتابه: "البرد الموشى في بيان منع بيع الحكم والرشى، وجميع أنواع الحرام الذي في المخلوقات قد فشا"⁵⁴، في سياق حديثه عن كون المجدد للدين متعدد لا واحد.

وأیضا نسب له ابنه سيدي محمد بن المختار الكنتي في كتابه "الطرائف والتلائد"⁵⁵، في معرض حديثه عن شديد محبة والده الشيخ المختار للجناب المحمدي، وأن تأليفه "نزهة الراوي" أكبر شاهد على ذلك.

ونسبه إليه محقق كتاب "بذل الوسع في تفسير الآيات التسع" في ملحقة⁵⁶.

وأیضا بول مارتی في كتابه: "كتنة الشريون"⁵⁷.

وقد أشار الشيخ رفاعة إلى هذا الكتاب ونسبه للشيخ الكنتي في رحلته وهو يتحدث عن كروية الأرض قال: "... وممن قال من علماء المغرب بأن الأرض مستديرة وأنها سائرة، العلامة الشيخ مختار الكنتاوي بأرض أزواد بقرب بلاد تمبوكتو، وقد ألف كتابا سماه "النزهة"، جمع فيه جملة

52 - مخطوط بالخزانة العامة رقم 1327 ك، و1517 ك، ويوجد بالخزانة الحسنية رقم: 2513-1429-412-92.

53 - النزهة، مخطوط بالخزانة الحسنية، رقم: 2513، ورقة: 1.

54 - مخطوط بالخزانة العامة، رقم 2450 د، ورقة 42.

55 - مخطوط بالخزانة العامة، رقم 14 ج، ورقة 217.

56 - ص: 101.

57 - ص: 53.

علوم، فذكر بالمناسبة علم الهيئة فتكلم على كروية الأرض وعلى سيرها ووضح ذلك، فتلخص من كلامه أن الأرض كرة⁵⁸.

هذا، وقد أكد هذه النسبة من ترجم للشيخ المختار الكنتي، فلا أطيل الكلام في ذلك، وفيما ذكر كفاية.

ب- الكلام عن العنوان

سمى المؤلف كتابه بـ "نزهة الراوي وبغية الحاوي"، وهو عنوان مسجوع على عادة القدماء، توخى فيه مؤلفه دقة الألفاظ، وإيجاز العبارة، ومتانة المبنى، فشكل هذا العنوان دعوة مثيرة للقراء للإقبال على قراءته، إذ أن ألفاظه تم انتقاؤها من قبل المؤلف بشكل يحيل على غزارة فوائد الكتاب وتنوع محتوياته.

ج- شكل ومضمون الكتاب

بعد قراءة متأنية لكتاب "نزهة الراوي وبغية الحاوي" وجدته كنزا دفيناً من كنوز التراث الإسلامي، لاحتوائه على ذخائر نادرة من معطيات ثقافية نفيسة، لأجل ذلك عقدت العزم على التعريف به وبمحتواه⁵⁹.

وقد جاء هذا الكتاب مكوناً من مقدمة وإحدى وعشرين باباً، ويظهر من خلال المقدمة مدى علو كعب الشيخ في المنهج والعلم، ومما جاء فيها: "...وبعد، فهذا كتاب جليل نسجته على منوال لم أسبق إلى مثله، ورتبته ترتيباً لم يسمح الزمان بإخراج شكله، فجاء بحمد الله وحسن عونه كأنه الشمس في رونق الضحى..."

وبعد هذه الديباجة، حرص المؤلف على تقديم صورة موجزة عن الكتاب من خلال عرضه لأبوابه قال: "رتبته على أبواب شتى:

- الباب الأول: في توحيد الله تعالى من غير غلو ولا تفريط.

- الباب الثاني: في بدء الدهور بدون قدر محييط.

- الباب الثالث: في علم الهيئة مختصراً من غير تمطيط.

- الباب الرابع: في ولادة الرسول عليه الصلاة والسلام.

58 - تخلص الابريز إلى تلخيص باريز، ص: 33.

59 - اعتمدت على نسخة الخزنة الحسنية التي تحمل رقم: 2513، وتقع في 520 صفحة.

- الباب الخامس: في بدء الوحي والإسراء بجسمه إلى حضرة القدس ومشاهدة ذي الجلال والإكرام.
- الباب السادس: فيما خص به من الإنباء بالمغيبات.
- الباب السابع: فيما شارك فيه جميع الرسل من المعجزات، ثم جاء فيها بما هو أعظم وأتم في البراهين والدلالات.
- الباب الثامن: فيما خص به من جمعية جميع المتفرقات من الأديان والمقامات.
- الباب التاسع: في إخبار الأخبار والرهبان والكهان وطغاة الجان، والتبشير بقرب بعثته وولادته.
- الباب العاشر: في بيان الحلال والحرام والشبهة، وتقسيم الكبائر وما ورد في ذلك من نص صريح وأثر صحيح.
- الباب الحادي عشر: في ذكر الجنة والنار وما يستوجبها من الأعمال والأحوال.
- الباب الثاني عشر: في ذكر نبذ من الحكم الربانية والآثار النبوية.
- الباب الثالث عشر: في عجائب أدويته للقلوب والأبدان من خواص النباتات والمعادن والأحجار.
- الباب الرابع عشر: في ذكر خصائصه وما فضل به من خصائص أمته، وما فضلت به دينا ودنيا وأخرى.
- الباب الخامس عشر: في تحقيق نفي نبوة غير يوسف من بني يعقوب عليهما السلام.
- الباب السادس عشر: في ذكر عبادته عليه الصلاة والسلام.
- الباب السابع عشر: في بدء بناء البيت الحرام، وبيان حرمة وشرفه، والترغيب في زيارة قبره الشريف ومسجده المنيف.
- الباب الثامن عشر: في فضائل أصحاب النبي عليه السلام وآله، وذكر أزواجه وذريته ومواليه وكتابه ومؤذنيه وحراسه وخدمه وأمرائه وشعرائه وخيله وآلات حروبه.
- الباب التاسع عشر: في ذكر أسمائه الشريفة، وألقابه وكناهه المنيفة الدالة على رفعة قدره.
- الباب العشرون: في تواضعه صلى الله عليه وسلم وحيائه وخوفه من ربه وشجاعته وقوته ونجده، وما اشتهر من سخائه وكرمه.

- الباب الحادي والعشرون: في حكم الصلاة عليه والسلام والتسليم، وفضلها والكشف عن حقائقها، وهو خاتمة الأبواب وفي كل باب فصول كثيرة.

2- "نزهة الراوي" بين التلقي المستنير والمنهج المستبصر

أ- الخصائص العامة لمنهج المؤلف في الكتاب

إن الفترة المتأخرة التي ألف فيها الشيخ الكنتي هذا الكتاب هيأته لأن يكون موسوعة لمجموعة من العلوم والمعارف، ونظرا لتشوف صاحبه الاختصار غير المخل، والابتعاد عن الإطناب الممل، فقد اتسم منهجه بسلوك نسق واحد مطرد.

ب- أسلوب الشيخ الكنتي في النزهة:

قدم المؤلف كتابه بأسلوب سهل بسيط، لا يكتنفه التعقيد والغموض، لوضوح لغته وسلامتها، مجتنباً تكرار القضايا التي سبق له بسطها مع إحالة القارئ عليها، إما داخل الكتاب أو كتبه الأخرى، وأحيانا أخرى يحيل على بعض الكتب التي بسطت الكلام في المسألة التي أثارها تنبيهها للقارئ، وذلك للحفاظ على سلامة الكتاب من الاستطراد.

من ذلك قوله رحمه الله في باب التوحيد: "... وأما السليبيات والمعاني وتفصيل التعلقات فمكول إلى كتب العقد ككتابنا "الشموس الأحمدية" و"السنوسية" وغيرهما من مصنفات التوحيد، واقتصرت في هذا الباب على توحيد السلف المقتبس من الكتاب والسنة، فرارا من المحدثات واقتفاء لأثر النبي وأصحابه السادات"⁶⁰.

- حرصه على توضيح وشرح كل لفظ ظن فيه عسر الفهم، ففي معرض حديثه عن أسمائه صلى الله عليه وسلم وكناه وألقابه قال: "...وسأبين من هذه الأسماء الشريفة ما يشكل على القارئ معناه، ويصعب على المستمع فهم حقيقته ومبناه...".

من ذلك "المقفى": "فإنما سمي به لأنه قفا مأثر من سبقه من الرسل، وهو لفظ مشتق من القفو يقال قفاه يقفوه إذا تأخر عنه، ومنه قافية الرأس، فالمقفى هو الذي قفا من كان قلبه من الرسل فكان خاتمهم وآخرهم، والقائم بأمرهم والوارث لهديم"⁶¹.

- وقد سلك الشيخ رحمه الله في عرض محتويات كتابه طريقة واحدة لم يحد عنها، فهو يذكر الباب ويسرد ما ورد فيه من نصوص قرآنية وأحاديث نبوية وأقوال العلماء، مع استشاره إياها في استنباط المسائل الفقهية والآداب الشرعية والفوائد والتنبيهات.

60 - النزهة، ورقة: 11.

61 - النزهة، ورقة: 477.

- كما تميز منهج الشيخ بأسلوب "الفنقلة"، وهو عبارة عن سؤال تعليمي درج المؤلف على طرحه على سبيل الاستطراد، وذلك بهدف إثارة المواضيع الجانبية المرتبطة بما يخوض فيه، أو توضيح الإشكالات وتفصيل المسائل، ثم الإجابة عنها.

من ذلك قوله: "فإن قلت" ما فائدة هذا الأخذ والإشهاد وقد نسي⁶²، قلت: فائدته والله أعلم أن الله تعالى أثبت به الحجة على كل ذي نفس...⁶³.

وعموماً فقد امتاز كتاب "النزهة" بأسلوب علمي واضح، حيث كانت عباراته ميسرة، ومعانيه دقيقة ومحددة، يفهمها القارئ العادي دون غموض أو لبس، كما يجد فيها القارئ المتمكن ما يصبو إليه من التعمق في المعرفة وفهم دقائقها، فكان بذلك منهلاً يرتوي منه كل بحسب فهمه وإدراكه.

ج- منهج المؤلف في استعمال مصادره:

اعتمد الشيخ الكنتي رحمه الله جملة واسعة من المصادر في مختلف العلوم، وقد اختلفت أهميتها بالنسبة له، فقد نقل عن بعضها بإعجاب واضح بأصحابها، كتأليف ابن أبي حمزة الموسوم بـ "بهجة النفوس"، و "الشفاء" للقاضي عياض، و "المواهب اللدنية" لشهاب الدين القسطلاني، "سيرة" ابن اسحاق، "الروض الأنف" للسهيلى، "شفاء الصدور" لأبي الربيع سليمان بن سبع، "شرح البردة" لابن مرزوق الجدد، "إحياء علوم الدين" للغزالي، "بغية السالك" لأبي عبد الله الساحلي، و "شرح الحكم العطائية" للشيخ زروق... ولقد كان رحمه الله في تعامله مع هذه المصادر، يذكر أحياناً المصدر الذي يأخذ عنه مادته، كما أنه أحياناً أخرى ييهم اسم من ينقل عنه فيقول: "قال بعضهم" أو "قال بعض المحققين"، وهذا يدل على كثرة حفظه لنصوص غيره، وهي ميزة تساعد صاحبها على اختزال المعلومات واستحضارها متى شاء، وفي بعض الأحيان يكتفي بالتصريح باسم المؤلف دون المؤلف، كأن يقول: "قال أبو بكر بن العربي، وقال الغزالي..."

د- منهج المؤلف في الاستدلال على المسائل التي يوردها:

لقد عمل الشيخ الكنتي رحمه الله في استدلاله على المسائل التي يوردها على حشد الشواهد والحجج المتمثلة في الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة وأقوال السلف، مراعيًا في ذلك تقديم آي

62 - الوارد في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ سورة الاعراف، الآية: 172.

63 - النزهة، ورقة: 16.

القرآن الكريم والنصوص الحديثية، ولم يقتصر على مجرد جمع النصوص والأقوال والإحاطة بها قيل في الموضوع من آراء، بل كان عالماً متمكناً من المنهج الرصين، وإذا بدت له مسألة علمية أشار إليها دون أن يربك الكتاب، وكان حاضر البديهة في مجمل القضايا التي يعرضها.

من ذلك رده على ابن تيمية رحمه الله في قوله: "...وفي مسلك تقي الدين ابن تيمية أنه لا تنبغي الصلاة إلى الحجرة الشريفة ولا تقبيلها، ولا يلتفت إلى قول البوصيري في بردة المديح حيث يقول:

لا طيب يعدل تراباً ضم أعظمه ❁ طوبى لمن تشق منه وملثم

بل هو عبارة عن تعفير جبهته وأنفه بتربته حالة السجود في مسجده عليه الصلاة والسلام، وليس المراد به تقبيل القبر الشريف "...ولا خفاء - يقول الشيخ الكنتي - على أن من له أدنى تعلق بشريعة الإسلام أن قبره روضة من رياض الجنة بل أفضلها، وإذا كان القبر كما ذكرناه وقد حوى جسمه الشريف الذي هو أطيب الطيب، فلا مزية أنه لا طيب يعدل تراب قبره..."⁶⁴.

هـ - خصوصية كتاب "النزهة"

يتجلى اعتناء الشيخ الكنتي بالتصوف في كثرة نقوله عن أئمتته كالجنيد والتستري وابن عطاء الله والحارث المحاسبي... من ذلك إيراد لقول ابن عطاء الله في قوله صلى الله عليه وسلم: "ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً"⁶⁵، في هذا الحديث إشارة إلى أن القلوب السليمة من أمراض الغفلة والهوى تتنعم بملذوذات المعاني كما تتنعم النفوس بملذوذات الأطعمة، وإنما ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا، لأنه لما رضي بالله ربا استسلم وانقاد لحكمه وألقى قياده إليه، فيجد حينئذ لذة العيش براحة التفويض، ولما رضي بالله ربا كان له الرضى من الله، فأوجده حلاوة ذلك، ليُعلم ما من به عليه وليعرف إحسان الله إليه، ولما سبقت لهذا العبد العناية أجريت له العطايا من خزائن المنن، فلما وصلت إمدادات الله وأنواره، شفي من الأمراض والأسقام، فكان سليم الإدراك فأدرك لذة الإيمان وحلاوته لصحة إدراكه وسلامة ذوقه⁶⁶...

كما يطفح الكتاب أيضاً بقضايا التصوف كحديثه عن جهاد النفس، والفرق بين العلم الرحماني والوسواس الشيطاني قال: "واعلم أنه لا حظ لأحد من مظاهر أنوار الجلال إلا بواسطة مشكاة الرسول عليه السلام وبركة متابعتة، وأما من أعرض عن الكتاب والسنة وادعى علماً لدنيا أُوتِيَهُ

64 - النزهة، ورقة: 452.

65 - سنن الترمذي، كتاب الإيمان، رقم الحديث: 2547.

66 - النزهة، ورقة 173.

استغنى به عنهما فهو لدني شيطاني، وإنما يعرف كون العلم لدنيا بموافقته لما جاء به الرسول من ربه تعالى... فهذا هو العلم اللدني الحقيقي، فاتباع هذا النبي الكريم حياة القلوب ونور البصائر وشفاء الصدور ورياض النفوس ولذة الأرواح وأنس المستوحشين ودليل المتحيرين..."⁶⁷.

وجدير بالذكر أن إسهام الشيخ رحمه الله في الكتابة الصوفية كان ثريا، كما أن سائر كتبه تضمنت إشادة وتمجيذا للمسلك الصوفي، ولعل تأثر الشيخ الكنتي بأدبيات هذا الفكر يرجع بالأساس إلى نشأته داخل أسرة ذات ميولات روحية.

أما اهتمامه بعلم التوحيد فيظهر في تخصيصه بابا كاملا له، وتأليفه كتابا في الموضوع مثل: "الشموس الأحمدية في العقائد الأحدية"، و"الإرشاد في الهداية إلى السداد وحسن الاعتقاد".

خاتمة:

إن هذا الكتاب الذي تشرفت بتقديمه للقارئ الكريم يعتبر وثيقة علمية هامة، ترفع النقاب عن الوجه العلمي البارز لأحد الأعلام الكبار، وتكشف الحجاب عما كان رائجا خلال القرنين الثاني والثالث عشر الهجريين من نشاط علمي رفيع بالغرب الإفريقي.

وهنا أسجل بكل ارتياح ملاحظة هامة وهي أن علماء الغرب الإفريقي أكثروا فأبدعوا من التأليف في موضوع السيرة النبوية والشأنات المحمدية، تحليلدا لما أثره عليه السلام، وتشجيعا لأبناء الأمة على الاقتداء به.

وهذا الوصف ينطبق تماما على كتاب "نزهة الراوي وبغية الحاوي"، إذ له تعلق راسخ بالعمل، بحيث لا يوجهه الغرض المعرفي - ولو كان حاضرا بالقوة - بقدر ما يوجهه الغرض الأخلاقي السلوكي، إذ أن قراءة فضائله عليه الصلاة والسلام ومعجزاته مما تطمئن به القلوب وتشرح له الصدور، وتصلح به الأخلاق.

كما أن الكتاب دعوة صريحة إلى التعلق بالجناب النبوي الشريف وتعظيم قدره المنيف، فالأبواب التي تضمنها قد تفاعلت فيما بينها راسمة بذلك صورة واضحة لحقيقة النبي عليه الصلاة والسلام، وما يجب في حقه من التعظيم والتوقير.

هذا ويمكن الحديث عن تجليات قيمة هذا الكتاب والجدّة فيه في النقاط التالية:

بالرغم من أن المؤلف تناول الحديث عن قضايا في علم السيرة النبوية كانت مطروقة في مصادر أخرى، إلا أنني وجدته أكثر ثراء واستقصاء لجمعه ما تفرق فيها، فقد جمع مؤلفه شتات المادة من مصادر متنوعة أشرت إلى بعضها في موضعه من هذا البحث.

والشيء اللافت للانتباه في هذا الكتاب هو أن فائدته لا تعود على المتخصص في دراسة علم السيرة النبوية الشريفة فحسب، بل تتعدى ذلك لتشمل الفقيه والمفسر والمحدث والصوفي واللغوي...

لهذا جاء الكتاب على الصورة التي أوضحناها أثناء حديثي عن مضمونه، ولم يأت مكرراً لمن سبقه.

ويمكن الكلام عن تجليات أخرى لقيمة هذا الكتاب تتمثل في سلاسة أسلوبه وسهولته، بحيث لا يكتنفه التعقيد والغموض، إضافة إلى حسن تصنيفه وعرضه لمادته.

كما يزخر الكتاب بمناقشة الكثير من المسائل الفقهية والعقدية، والتي أبان من خلالها عن قدرة عالية في الاستنباط والاستدلال.

كما أن تناول موضوع السيرة النبوية عند الشيخ المختار الكنتي له طابع خاص، إذ لم تكن عنده مباحث السيرة النبوية مجرد سرد لوقائع تاريخية، أو لما ورد في ذلك من أمهات الكتب والدواوين، بل كان هاجسه هو استجلاء القيم النبيلة والسلوكات الرفيعة الأصيلة، من خلال تقديم النموذج المحمدي الكامل.

هذا فضلاً عن القيمة الكبيرة للكتاب والمتجلية في كون صاحبه حاول إبراز بعض الملامح الروحية في حياة النبي عليه الصلاة والسلام، مثل حديثه عن يتمه، وشق صدره الشريف وما وقع له في قصة الإسراء والمعراج...

كما أن الكتاب يظهر بشكل واضح شدة وله مؤلفه بحب الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد اقتضى منه ذلك أن خصص باباً لكشف حقائق آيات من كتاب الله لا ينبغي إطلاقها على ظاهرها في حقه عليه السلام، قال: "وهذا باب أقحمته بين السادس والسابع لا يستغنى عن إيراده لمس الحاجة إليه، وهو كشف حقائق آيات من كتاب الله تعالى لا ينبغي إطلاقها على الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد أولها صلحاء السلف بتأويلات تزيل عنها غش الارتباب، وتردها إلى ما ينبغي في حق الرسول من جميع الأبواب وفي جميع الأحقاب"⁶⁸.

- منها قوله تعالى: ﴿ووجدك ضالاً فهدى﴾ (سورة الضحى، الآية: 7)، قال: "أي ضالاً في بحار المحبة فهداك إلى ما ينبغي منها وكيف ينبغي، ودليله قول بني يعقوب ليعقوب عليه السلام: ﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ (سورة يوسف / الآية: 95)، أي إنك لفي محبتك ليوسف

القديمة، ولو أرادو غير ذلك لكفروا بنسبة نبي كريم إلى الضلال الذي هو الانحراف عن سبيل الرشد إلى الغي واتباع الهوى...⁶⁹.

- ومنها قوله تعالى: ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ (سورة يوسف، الآية: 3)، يعني عن قصص الأنبياء وما وقع بينها وبين أممها، وما قالت وما قيل لها، وبيان أولي العزم منها... لا أنه عليه السلام غافلاً عن الله أو عن شيء من معارفه، أو عما يجب في حقه أو يستحيل عليه لانغماسه عليه السلام في أنوار الحقيقة والتحقيق...⁷⁰.

إلى غير ذلك من الآيات التي لا ينبغي إطلاق ظاهرها على الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أولها رحمه الله بما ورد عن السلف الصالح من تأويلات تزيل عنها ما لا يجوز في شخص الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام.

إن خصوصية هذا الكتاب تكمن في استنباطات الشيخ المختار الكنتي الذوقية، إلا أن هذا لا يعني أن هناك تمايزاً بين المستنبطات الذوقية والاستنباطات الفقهية، بل التكامل والتجانس بينهما حاصل، نظراً للوحدة المصدرية لهما. فالاجتهاد الفقهي تعامل مع نصوص القرآن والأخبار على مستوى النظام اللغوي والعلل، كما أن الفقه الصوفي استنبط من ظواهر النصوص القرآنية والأخبار لطائف باطنة، وحكما مستطرفة. وللشيخ سيدي أحمد زروق في هذا المعنى كلام نفيس أحببت إيراده هنا لتمام الفائدة، قال: "نظر الصوفي في المعاملات أخص من نظر الفقيه، إذ الفقيه يعتبر ما يسقط به الحرج، والصوفي ينظر ما يحصل به الكمال.

وأخص أيضاً من نظر الأصولي، لأن الأصولي يعتبر ما يصح به المعتقد، والصوفي ينظر فيما يتقوى به اليقين.

وأخص أيضاً من نظر المفسر وصاحب فقه الحديث، لأن كلا منهما يعتبر الحكم والمعنى ليس إلا، وهو يزيد بطلب الإشارة بعد إثبات ما أثبتوه، وإلا فهو باطني خارج عن الشريعة فضلاً عن الصوفية⁷¹.

وختاماً نسأل الله العلي القدير أن يوفقنا لتحقيق هذا الكتاب وطبعه لتعم فائدته على الدارسين المختصين.

69 - نفسه، ورقة: 58.

70 - نفسه، ورقة: 57.

71 - قواعد التصوف، الشيخ أحمد زروق، المكتبة الأزهرية للتراث، 1998م، رقم القاعدة: 55، ص: 28.

522

موسى وهارون وفال وسلم على عباده، الذين اصحابي وخص محمد صلى الله عليه وسلم بالعبادة
 دون سائر عباده، الذين اصحابي من التميم والريسين والمليكة الغربيين وقد ختمه مصعبه
 بجوار الله وتوقيفه بالصلاة كما بدله بالثقة، والحمد لله على ما اكرمنا به الشكر له على ما ابد
 من اخصرنا بالتقوى والصلاة والسلام على من لا ينقض عهود الله عليه ولا نعم وعلى
 والدة النبوة والسلاوة وعلى نبينا وازواجه الصالحات وعلى اهل بيته واصحابه والجميع الاخرين
 وعلى اهل بيته الشجرة الشجرة، انا باعز، فمعه مولا البيت
 انا الذي من صفة الاشع مشعبا الجميع من عباده ورضاه جعله الله خلاصا للجميع ورفع به
 مصعبه ومجمله وفاربه وامر القبول وبلغ فاربه وسلم معه الشوق والملازم انه الذي
 انشور الرجوع القبول لار غير، ولاخير لاخير، ونعم الله لنا ولوالدنا ولا شيا خفا ومنه
 علمنا وجميع المسلمين والمنسلف والوثنين والموثقة احياء منهم والاموات انما يجب
 الدعاء ولا خذل ولا فوة الا بالله العلي العظيم امضى نعم الله وحسن عونه والصلوات
 والسلام انا ان الله على سائر المسلمين وحسب رب العالمين والحمد لله وسائر القبايعين
 خير الله صرح فلو بنا ونعمي في نوبنا وجعل جميع استعدادنا لاعدادنا وتوهم واعيانا
 نجينا ويغربنا اليه تعالى زعي ويحفظنا منه وكرمده هذا الله الذي التفت اليه
 بنزلة الارواح وبغية الخلق للشيخ الفكرة وهو يستند الى الله في الاختيار من اهل البيت
 اياهم الله علينا من بركته ونعمنا والمسلمين به وبامثاله ايمى على يد امير العجم الى رب
 العالمين محمد النبي صلى الله عليه وسلم من اهل البيت محمد بن احمد المدعي بن محمد بن احمد الكشي دارالافتاء
 غير الله ليعلموا له وبولده شيئا خذ والمنسلف والوثنين والموثقة احياء منهم
 والاموات ايمى والحمد لله رب العالمين وكلاهما في يوم الاثنين لثلاث خلوف
 من شهر الشرف الفجر الرابع ١٢٦٥

الصفحة الأخيرة من " نزهة الراوي و بغية الحاوي "

نسخة الخزانة الحسنية ، رقم : 2513 .

بعض الملامح الفنية في المديح النبوي بالمغرب

د. عبد الله بن عتو
كلية الآداب/ القنيطرة

كثيرة هي الدراسات والأبحاث التي تسلم بطبيعة التعارض الحاصل بين الشعر والنثر، أو بين القصيدة والخطبة منذ التنظيرات الأرسطية لبنائهما، وهو ما نجم عنه تعارض في التصور والتنظير بين الإقناع والتخييل، أو بين الإقناع والإمتاع. واتضح لنا أن الخطابة والشعر أفرزا بلاغتين بارزتين هما عبارة عن فرعين كبيرين للبلاغة بمعناها العام والشامل: بلاغة الحجاج وبلاغة التخييل الشعري: بلاغة الحجاج أي الجدل والإقناع، القائمة على القياس المنطقي لأجل التصديق، وبلاغة تتجه نحو الأسلوب واللغة المجازية والتأثير العاطفي. ومجال البلاغة الأولى الخطابة، ومجال الثانية الشعرية؛ هذه الأخيرة تتجه إلى مخاطبة العاطفة ترهيبا أو ترغيبا، حيث تهتم الجوانب النفسية والمشاعر الحساسة، الشيء الذي قد يعني تغييبا للعقلانية. هذا من حيث الوسائل والأدوات، أما من حيث المرامي والأهداف "فإن الشعر يستهدف التطهير، في حين تستهدف الخطابة الإقناع، الخطابة حمالة إيديولوجيا، والشعر حمال أحلام وأوهام"¹. إلا أن هذه التفرقة الحاسمة لم تكن دائما بالحدة المزعومة، منذ العصر اليوناني لدى الفلاسفة كأفلاطون، أو لدى الخطباء والشعراء أنفسهم. وقد انتبه حازم القرطاجني وحاول تجاوز تلك الفجوة فقال: "ولو وجد هذا الحكيم أرسطو في شعر اليونانيين ما يوجد في شعر العرب من كثرة الحكم والأمثال والاستدلالات واختلاف ضروب الإبداع في فنون الكلام لفظا ومعنى، وتبحرهم في أصناف المعاني؛ ولطف التفاتاتهم وتتميماتهم واستطراداتهم وتلاعبهم بالأقاويل المخيلة كيف شاءوا، لزداد على ما وضع من القوانين الشعرية"². وهكذا نظر مثل بعض الفلاسفة المسلمين، إلى التخييل الشعري والتأثير مقارنة بالتصديق البرهاني، والظن الجدلي والإقناع الخطابي، واعتبروا أن "القياس الشعري وإن كان غير مصدق به، فإنه لا بد أن يجري مجرى القياس المصدق به، بسبب التأثير الذي يحدثه في النفس من قبض أو بسط" وهذا يعني من بعض الوجوه، أن هناك موازنة بين الشعر والبرهان تربطه به، ذلك أنه يقدم نفس الحقائق

1 - محمد العمري، البلاغة الجديدة بين التخييل والتداول، ط1، إفريقيا الشرق، البيضاء، 2005، ص 18.

2 - حازم القرطاجني، منهج البلغاء وسراج الأدباء، ص 69.

والمعارف البرهانية ولكن على نحو تخيلي³. هكذا فقد تضمن الشعر عموما والشعر الديني خصوصا، عددا من الأقيسة البلاغية وهي أقيسة اجتماعية في صلتها بالمنطق؛ أي أنها ليست قطعية، وهي بذلك قريبة من التخييل الشعري، ولكنها من وجهة النفع الجمهوري شبيهة بالحق، والشبيه بالحق قد يدخل في علم الحق الذي هو (علم المنطق). فالمعاني المؤثرة في الناس سواء في الشعر أو في الخطابة، هي المعاني الجمهورية المشتركة. وإذا كان التخييل قوام الشعر، كما أن الإقناع قوام الخطابة، فلا بأس أن يتعاضد القياسان، شريطة ألا يطغى التخييل في الخطابة، فيمكن للشاعر أن يقنع، ويمكن للخطيب أن يشعر أو يخيل، لكن في القليل من خطابته. إن هذا التراوح بين بعض ما يسم الخطابة وما يسم الشعر، يخلق لونا من المراوحة بين المعاني الشعرية والمعاني الخطابية؛ ويكون ذلك - في رأي حازم - أعودَ للنفس وأعوَنَ على تحصيل الغرض المقصود؛ واعتبر أن الشعر المراوح بين معانيه أفضل من الشعر الذي لا مراوحة فيه، ولكن "ينبغي أن تكون الأقاويل المقنعة الواقعة في الشعر تابعة للأقاويل مخيلة مؤكدة لمعانيها، مناسبة لها فيما قصد بها من الأغراض، وأن تكون المخيلة هي العمدة"⁴. وهكذا فقد اطلعنا على مظاهر حجاجية عديدة في الشعر الديني المدروس، تدفع بنا إلى القول "إنه إذا مال التواصل الخطابي نحو التواصل الشعري، فإن الصورة البلاغية تتحول إلى صورة شعرية؛ فالوظيفة الشعرية لا تلغي الوظائف الأخرى، بل تكتفي بالهيمنة عليها، فالواقع أن الشعري يحتوي أيضا على عناصر إقناعية وعناصر حمالة للأخبار، كما أن النص الإقناعي يحتوي عناصر شعرية وعناصر إخبارية"⁵. فما هي إذن أهم آليات الإثبات أو الإقناع في هذه الأشعار؟ وما هي أبعادها ومظاهرها الدلالية؟

1- استقصاء المعنى: إن الروح الديني العام الذي نلمسه لدى شعراء القصيدة الدينية، قصيدة المديح النبوي في هذا المتن، دفعت إلى خلق نوع من النظرة التأملية في الكون والخلق، وفي العديد من القضايا الجوهرية في علاقة الإنسان بالله والوجود والكون. وهذا بحد ذاته يولد رغبة في التحليل والاستقصاء المنظم والسليم، إلى جانب التدرج في المعنى أو في الفكرة، قصد استقصائها وإحاطتها بالشعر من كل جوانبها. فهذا ابن زاكور يستقصي معنى "المؤمنين" بسبب الصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم، يقول (ق 36)⁶:

3 - ألفت كمال الروبي، نظرية الشعر عند الفلاسفة المسلمين، ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984. ص 134.

4 - منهاج البلغاء وسراج الأدباء م.س. ص 361/362.

5 - هنريش بليث: البلاغة والأسلوبية، ص 64/65.

6 - شعر ابن زاكور، جمع وتحقيق محمد الوهابي، رسالة مرقونة بكلية الآداب، الرباط.

وَأَلَّكَ الْفَضْلَا وَصَحَبَكَ الْكُرْمَا	✽	صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهَ يَا نَبِيَّ الْهُدَى
وَالشُّكْرُ لِلَّهِ خَالِقِ الثَّرَى وَالسَّمََا	✽	الْحَمْدُ لِلَّهِ مَبْتَدَأًا وَمَخْتَمًا
لِلْخَلْقِ مَا عَرَبٌ عَرَبًا وَمَنْ عَجَمًا	✽	وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مَسْدِي الْفَضْلِ خَالِقِنَا
وَالشُّكْرُ لِلَّهِ رَبِّي أَكْرَمَ الْكُرْمَا	✽	وَالْحَمْدُ لِلَّهِ جَلَّ اللَّهُ رَازِقِنَا
بِرَا عَطُوفًا حَلِيمًا أَرْحَمَ الرَّحْمَا	✽	سَبْحَانَهُ لَمْ يَزَلْ فِي مَلَكِهِ صَمَدًا
أَسَدِي الْجَزِيلِ لِمَخْلُوقَاتِهِ كَرْمَا	✽	سَبْحَانَهُ اللَّهُ لَا تَحْصِي مَوَاهِبَهُ

فمدلول هذه الأبيات منتزع من آيات من القرآن الكريم، وتلقن بالتسبيح والتحميد بعضا من صفات الله تعالى الواردة فيه، " الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوي العزيز"⁷، كما أن من "أمارات استقصاء المعنى والإحاطة به بشكل شامل، تتبعه لمعنى الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم من طرف كل مخلوقات الله تعالى في هذا الكون حيا وجامدا، إنسانا وحيوانا، ظاهرا وخفيا .." قوله (ق 40):

منه تبدى الهدى في كل مذكر	✽	مولاي صل على طه النبي الذي
وصحبه الغرعد القطر والمطر	✽	وآله أنجم الحق الذين سموا
وعدنور بدا من طلعة القمر	✽	وعدما طلعت شمس وما غربت
هب الصبا بنسيم الورد والزهر	✽	وما تبسم فجر في صباح وما
وعد ملء الفضا والنبت والشجر	✽	وضعف ضعف الحصى والرمل مع نعم
وكل ذي نفس في الورد والصدر	✽	وعد أثقال ما أبديت من جبل

ويستمر هكذا في استقصاء العد مع كل مخلوق سيذكره، إلى آخر القصيدة التي بلغ عدد أبياتها 47 بيتا. ولعل دارسا يقول: إن هذه الأشعار إذ تنحو هذا المنحى الأسلوبى، فهي تقترب إلى الأساليب النثرية؛ وذلك باشتغالها على أكثر خصائصها، كال تكرار والسرر والتفصيل والإلحاح على المعنى... ومن نماذج هذا الاستقصاء في شعر الحلبي من (ق 110) وعدد أبياتها 38 بيتا، نراه يقف عند ذكر كل ما ارتبط بكف رسول الله صلى الله عليه وسلم من معجزات وكرامات. فقال:

تفيد الخلق إحسانا وجودا	✽	أصابع كفه قـضبان در
يسر القلب أو يضحى مفيدا	✽	وفي كفيه ما في الخلد مما
له يبقى المصافح مستفيدا	✽	ففي كفيه طيب ليس يبلى
فروت عند فقد الما جنودا	✽	ومن كف له نبعت عيون
وإغناء لمن أمسى فقودا	✽	وفي كفيه أشفية وبرء

ويستمر في استقصاء كفه صلى الله عليه وسلم إلى آخر بيت حيث يقول:

ومن كفيه للحلي فضل * فلم ير غيره فضلا وجودا

إن التفصيل والتدقيق والإحاطة الشاملة، تقنيات فرعية لهذه التقنية العامة أو الكبرى التي هي الاستقصاء والإلحاح. ويبدو أنه من العبث الإكثار من النماذج الشعرية الدالة عليها، لأنها وحدها تشكل موضوعا من تقنيات الخطاب الشعري التي تتميز بها القصيدة المدحية الدينية عموما. ولكن ما يهمنا هنا أكثر، هو التأكيد على أن صبغة الإلحاح والاستقصاء، تعتمد على لعبة خطائية هامة، هي استحضار سلطة النص الديني وحجيته، والذي يعين الشعراء على تعميق المعنى للوصول به إلى قراره المكين. لنلاحظ ذلك في قول الحلي (ق 19)⁸ وكأننا به يفصل بطريقته الشعرية الخاصة، معجزة الإسراء والمعراج والتي أثبتتها القرآن الكريم في قوله تعالى: "سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا، إنه هو السميع البصير"⁹ يقول:

والحبيب إلى الحبيب بليل * قد سرى ليسره الاختلاء
راح من حرم إلى حرم كي * لا يفوت الحبيب منه احتظاء
وأتى المسجد الحبيب فصلى * ركعتين والسادة الرفقاء
أقبل الرسل والملائك وانسرب * به المرسلون والأنبياء
فتقدم للصلاة فصلى * بالجميع وقد علاه البهاء

بل إن كل ما يتعلق بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم يمكن أن يكون موضوع قصيدة شعرية، وكأن الشعر جو يتنفسه الشعراء مع أجواء حبهم وتفانيهم في الرسول صلى الله عليه وسلم ومدحهم له، قال ابن زاكور (ق 41) مؤكدا على حجية النص القرآني :

يا رب عبد الكريم يرتجي بالذي * قد اصطفيه في العربان والعجم
ونال منك التدلي والتدني الذي * ماناله مرسل في سائر الأمم
أمح ذنوبي وعاملني بمغفرة * واشف عقائبي يا ذا الجود والكرم
ولا تحاسبني بالفعل الرديء الذي * تكون جرأته تفضي إلى عدم

8 - ديوان عرائس الأفكار، أحمد بن عبد الحلي الحلي، تحقيق وتقديم عبد الله بن عتو، ضمن رسالة جامعية لنيل دبلوم الدراسات العليا، الرباط 1989.

9 - سورة الإسراء، الآية 1.

هكذا نلاحظ أن هذه الأبيات التي تبدو واضحة حد الإسفاف، حيث تضمنت الإشارة إلى قوله تعالى: "فاستوى وهو بالأفق الأعلى ثم دنا فتدلى" ¹⁰ إنما هي وسيلة ابن زاكور ليؤكد على قدرته في استقصاء حالته الشعرية، واستقصاء طرق التوسل وتقديم مظاهر التوسل والاستغفار. وقال الحلبي (ق 102):

يا نفس مالك قد عكفت على الهوى	✽	أظننت أنك في لظى لم تورد
يا نفس ضغوطات الخفير شديدة	✽	إذ تقبلين على الظلام الأسود
يا نفس يأتي منكرو نكيره	✽	في اللحد لما يسألك تررددي
يا نفس ما فاز الذين تفرقوا	✽	عن هدي أحمد والطريق الأرشد

حيث نشعر بمعاني قرآنية عديدة كقوله تعالى: "فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها إلا الأشقى" ¹¹ وقوله تعالى: "أحسب الإنسان ألن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنابه" ¹².

لقد أصبح الاستقصاء والإلحاح على المعنى إذن، بالشكل الذي وقفنا على بعض عناصره، آلية حجاجية وجمالية في غاية الأهمية، يستعين بها شعراء المتن الديني أو الشعر النبوي لدعم رأي أو إثبات فكرة أو الدفع إلى تصديق حادثة تاريخية، تتعلق بسيرة الرسول العطرة. من ذلك، معجزات ارتبطت بولادته ومضمونها مجمل التحولات التي طرأت على الكون وعلى الخريطة العالمية آنذاك، من سقوط حكام وتداعي عروش وظهور أماكن بعيدة يصعب رؤيتها بالعين الطبيعية، إلى خوارق فوق طبيعية يصعب على الإنسان أن يصدقها، خارج ضرورة الإيمان بالغيب؛ كانشقاق القمر وخود النار وعودة الشمس بعد الغروب... إلخ؛ قال الحلبي (ق 126):

أنت الذي زفت الأكوان مُذْ وُجدت	✽	أنوار مولده والأرض والقمر
ونار فارس من جراه قد خمدت	✽	كما الشياطين في أفق العلا انكدروا
وقد تصدع إجلالاهيئته	✽	إيوان كسرى وقد مادت له الجدر
كم آية ظهرت في يوم مولده	✽	فيها لأمته الإسعاد والظفر
فالشمس ردت له بعد الغروب كما	✽	إنشق من نصفين في البطحا له القمر

ومن ذلك معجزات جاءت بعد مولده، وتشمل خوارق تكليم الحيوان والنبات والجماد؛ نحو قول ابن زاكور (ق 36):

10 - سورة النجم، الآية 8.

11 - سورة الليل، الآية 15.

12 - سورة القيامة، الآيتان 2 و3.

يارب صل على المختار من مضر * وآله الفضلا وصحبه الكرم
بعَدَ مَا صُلِيَ مَخْلُوقٌ عَلَيْهِ وَزَدَ * بَعْدَ أَلْفَاظٍ مِنْ عَلَيْهِ قَدْ سَلِمَا
وَعَدَّ وَحْشَ الْفَلَا وَالطَّيْرَ مَعَ نَعَمَ * وَعَدَّ وَزْنَ الْجِبَالِ الرَّاسِيَاتِ نَمَا
وَعَدَّ أَزْهَارَ أَغْصَانٍ بِدَوْحَتِهَا * وَمَا النَّسِيمَ سَرَى وَمَا الْهَلَالَ سَمَا

فعند العلماء أن "المعجزات إذا ظهرت إحداهن حجت (من الاحتجاج) ودلت على صحة النبوة، وقد ظهر في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم مع ما تقدمها من إنذار، وظهر بها من آثار، وتحقق من أخبار، فصارت أعلم بالنبوات إعجازا، وأوضحها طريقة وامتيازا.. تقهر شواهدا من باين وعاند، وتجذع دلائلها من ناكر وجاحد..."¹³.

2- الانسجام: الواقع أن مفهوم الوحدة العضوية مضافا إلى مفهوم الانسجام، وإن كان مأخوذا للاشتغال في دراسة النص الأدبي، فهو في الواقع، آت من مجال النقد الثقافي للنص الأدبي بشكل عام. ذلك أن دراسة النسق الثقافي بمفهومه الواسع والشامل توظف مفاهيم كثيرة كالتراتب والتدرج والانفصال والتناظر والقراءة والتشابه والانسجام. وعلى ذلك فقد حصر الباحثون جملة من المبادئ الرائدة لتنسيق الوجود النصي أو التحقق النصي، منها:

* مبدأ أن كل شيء يشبه كل شيء.

* ومبدأ أن كل شيء قابل للتدرج.

* ومبدأ أن كل شيء ينسجم مع كل شيء¹⁴.

ولا يخفى أن تظهير هذه المبادئ في الدرس التحليلي، عرفت عدة محاولات سواء على النص الأدبي أو القرآني¹⁵. إلا أنه إذا كان مبدأ الوحدة والانسجام عنصرا هاما في التحليل النسقي للثقافة وللإبداع الإنساني كملح ثقافي، فإننا نلاحظ أنه كثيرا ما اشتغل بالنصوص المفردة بدل اشتغاله بالنصوص الكبرى، أو بالمتون الضخمة؛ وكأنه فرع نظري يشتغل بتحليل وقراءة فروع نصية وإبداعية، والتي تظل هامة من الناحية الإجرائية في سياق دراستنا، خاصة وأنا سنلجأ إليه لتفسير هذا التراكم الشعري المتشابه شكلا ومضمونا.

وبناء على ذلك، نلاحظ أن نصوص المتن المدروس توفر لنا جملة من المبادئ أو العلامات البارزة والمميزة لكثير من قصائده:

3- طول القصائد: ويتضح ذلك في عدد الأبيات الموجودة في كل قصيدة، ذلك أن للتساوتي قصائد مطولات يتجاوز عدد أبياتها الخمسمائة والثلاثين بيتا منها قصيدته اللامية التي مطلعها:

13 - محمد عبد المنعم خفاجي، الرد على الملحد. ط. دار الكرنك. القاهرة 1961. ص 73.

14 - محمد مفتاح، التشابه والاختلاف (نحو منهجية شمولية)، ط 1 المركز الثقافي العربي البيضاء 1996. ص 29/24.

15 - محمد مفتاح، دينامية النص (تنظير وإنجاز) ط 1 المركز الثقافي العربي، البيضاء 1987. ص 189. وما يليها.

قف ساعة بين الغوير فإربل ❁ واعطف بمنعطف الرسوم المهمل
وهي في الحنين والشوق لأهل الزاوية الناصرية وكبار شيوخها المعروفين، ويتخللها وعظ
وإرشاد وحكم، إضافة إلى عبارات الندم عما يرتكب في الدنيا من شطط وزلل، مع الحث على
الاهتمام بالمصير والآخرة.
ومنها كذلك قصيدته الدالية التي فاق عدد أبياتها الأربعمئة والخمسة والتسعين بيتا، والتي
مطلعها:

عرج بأطلال الأحبة واقصِدَنَّ ❁ آثارهم يوما لعلك تهتدي
وهي في مدح شيوخ الزاوية الناصرية والتشوق والحنين إليهم، وتتضمن القصيدة إلى ذلك
العديد من الأغراض، يعتبرها بعض الباحثين مرتعا للبركات والعلوم والفنون، كالنسيب والأمثال
والحكم والوصايا والوقائع والمديح والاستعطاف والتهنئة... وفيها غير ذلك كالأوصاف والافتخار
وسير المطايا وغير ذلك من فنون التصوف، كالوعظ وشرح المملكة الإنسانية وآداب السلوك
ومنازل السالكين. ومعلوم أنه كان يعارض في هذه القصيدة مطولة شيخه وأستاذه الإمام أبي علي
الحسن اليوسي في مدح شيخه أبي عبد الله محمد ابن ناصر الدرعي، وواكبها بكل ما فيها من أغراض
وفنون وعلوم.. إلخ¹⁶.

إن أهم ملاحظة يمكن إدراجها هنا، هي أن طول النفس لدى التستاوتي لا يتحقق في أمداحه
النبوية، وإنما في أمداحه "الطرقية" الناصرية، أما نبوياته القليلة - قياسا مع كثرتها لدى أحمد الحلبي
- فإن معدل عدد الأبيات فيها لا يتجاوز الأربعين بيتا، وإن كنا نستطيع أن نتمحل بعض الطول في
قصائد توسلية تتجاوز عدد أبياتها السبعين¹⁷ بيتا أو في بعض إخوانياته وقد تجاوزت التسعين بيتا¹⁸؛

16 - انظر شرحها مفصلا في كتاب (نيل الأمان في شرح التهاني) لأبي علي الحسن بن مسعود اليوسي، ط. دار الرشاد الحديثة،
البيضاء. 2004.

17 - الإحالة هنا إلى قصيدته الرائية التي مطلعها :

سلام الله ما لمعت بروق ❁ على شيخ العناية والفخار

وهي في المعاتبة الإخوانية موجهة للشيخ ابن المبارك الزعري دفين تاساوت. انظر الديوان محققا، عبد اللطيف شهبون، (ق 38)
ص 197.

18 - الإشارة هنا إلى قصيدته الدالية التي مطلعها:

ألا هل لأيام الصبابة والصبأ ❁ رجوع؟ ومن لي أن أبشر بالرد؟

ليالي لا أخشى من الدهر نكسة ❁ فما سرني وصل ولا رعت من حد

وهي وعظمية إرشادية تنتهي بمدح نبوي خفيف. انظر م.س. ص 176.

وذلك نظرا لأنه يعرج فيها على مدح نبوي خفيف جدا وغير صريح . علاوة على أن موضوعات التوسل بالله والاستشفاع برسوله صلى الله عليه وسلم، وموضوعات الوعظ والإرشاد وإصدار المواعظ والحكم؛ تتقاطع بشكل كبير مع الموضوع المركزي عندنا الذي هو "الشعر الديني". ومعنى هذا، أن نصيب النبويات من طول نفس التستاوتي الشعري كان ضعيفا.

أما عبد الكريم بن عبد السلام بن زاكور فإن ديوانه لا يعرف مطولات كثيرة لافتة للنظر، وبالتالي فإن أطول قصائده التي يغلب عليها التوسل لا يتجاوز - إن وصل - الخمسين بيتا. ففي النصوص التي اخترناها لدعم متن هذه الدراسة نلاحظ ارتباطا وثيقا بالموضوع الواحد الذي هو التوسل وما في معناه، رغم أن الانطباع الأولي المتسرع قد يذهب إلى أن قصائد ابن زاكور هاته يغلب عليها طابع التفكيك بين الأبيات؛ نظرا لاستقلال كل بيت عن لاحقه وسابقه في النظم، وربما في المحتوى. إلا أن ذلك يسقط حين نتأمل في النسيج العميق لطبيعة الموضوع الشعري الذي يطرقه الرجل في هذه القصائد. صحيح أن البيت يبدو هو وحدة النظم، ولكن الرغبة النفسية في استقصاء المعاني والاسترسال فيها، تجعل البيت جزءا فاعلا في الكل أو في القصيدة، وتجعل القصيدة كذلك ذات نسق واحد، قد يطرد فيه المعنى إلى عدة أبيات، وقل أن يتوالى فيه النسق تواليا يستعصي على التقديم والتأخير والتبديل والتحوير... ففي القصيدة الواحدة مثلا كالتی تحمل رقم 37 بلغ عدد أبياتها (57) سبعا وخمسين بيتا شعريا، نلاحظ أنها في موضوع التوسل إلى الله بالنجدة والعق والسعادة في الدارين، والتوسل إليه تعالى بجاه نبيه الكريم بالحفظ والصون والمعونة وانتظام المملكة البشرية كافة، هكذا قال في البيتين الأولين:

إلهي على المختار صل وَسَلِّمْ ❁ صلاة مدى الأزمان طيبة النشر
على من سما قدرا وجل سماحة ❁ ونال مقام العز والمجد والفخر

وبعد ذلك يمتد نفس القصيدة في تواشج وتناسق وانتظام في الموضوعات الناصجة لأصلا ب هذا الموضوع، فيذكر موضوع الصلاة على النبي المختار ثم يعرج على استقصاء ما تيسر من الصفات الإلهية، ثم يتغنّى في مقاطع هامة من القصيدة بالآيات الربانية في الكون، فيتتبع العديد من مظاهرها الدقيقة، ثم يعرج على موضوع نبوءة محمد صلى الله عليه وسلم، فيستقصي معانيها وخصالها ومظاهر عظمتها في الكون كله. ثم ينتهي إلى توسلات طيبة بالرسول وآله الكرام الأطهار مقدما إياهم لله عز وجل رجاء نيل المطالب وبلوغ المقاصد، فيقول أخيرا:

فأنت مجيب السائلين إذا دعوا * وأنت منيل القصد للعبد والحر
تشفعت بالمختار طه إمامنا * محمد المخصوص بالنصر في بدر
عليه من الرحمان أذكى تحية * تفوق شذا النسرين في دوحة الزهر

أما في نبويات ومدحيات أحمد بن عبد الحي الحلبي، فإننا نعثر على العديد من القصائد المطولة، التي يفوق بعضها خمسمائة بيت من الشعر، كلها في المديح النبوي، ولعله يتميز بهذه الخاصية دون سائر شعراء المتن المذكورين، علاوة على كون أكثر شعره في المديح النبوي. وإذا وقفنا على واحد من نماذجه الكثيرة نرصد معطيات ومظاهر طول النفس، مثل قصيدته الهمزية التي بلغ عدد أبياتها 286 بيتا شعريا، والتي قال في مطلعها: (ق 19):

الصلاة عليك يا خير خلق * ما استنارت بضوءك الظلماء
بدء مجدك في المعالي انتهاء * للنبيين والورى شهداء

وهي قصيدة متوسطة النفس بالقياس مع المطولات المعروفة في شعر المديح النبوي في المشرق والمغرب. ومع ذلك يمكن اعتبارها طويلة النفس بالنظر إلى الموضوعات الفرعية أو الجزئية التي استقصى معانيها، فخلق بذلك نوعا من التماسك الداخلي للقصيدة، رغم طابع استقلالية النظم في بعض الأبيات. وبالتالي، نستطيع القول إن الصناعة الشعرية والأساليب البيانية هي المتحكمة في بناء القصيدة موضوعاتيا، وليس سرد الوقائع وفق ناظم زمني معين.

ولعل مما يزيد في القيمة الأدبية لهذه الهمزية، ما يتخلل الأحداث والوقائع المذكورة، من ذكر للمعجزات التي ناصبتها أو رافقتها، سواء ضمن ما جاء الإخبار عنه في الأسانيد الصحاح، أو ضمن ما أورده كتب السيرة.

ولأن هذه القصيدة مثل العديد من المطولات السابقة عليها لدى شعراء آخرين، تعرج على مكون آخر هو الكلام على فتح مكة، وانهايار مقاومة المشركين له، وما أعقب ذلك من عفو الرسول الكريم على قريش إثر انتصار الإسلام.

هذا ولا تنتهي القصيدة المدحية عند الحلبي - وكل قصائده بشكل عام - دون أن يحيط الرحال في قسم هام منها هو قسم المناجاة، وفيه يخاطب الشاعر النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، متوسلا ببعض صفاته ومعجزاته، التي لم يسبق له ذكرها، ومستشفعا بأصحابه الكرام، الخلفاء الراشدين وبقية العشرة المبشرين بالجنة، وبعمية حمزة والعباس وسبطيه الكريمين وأمهها الزهراء، سائلا منه الشفاعة والأمن يوم الفزع الأكبر والنجاة من العذاب في الآخرة، مما لا يسأل عموما لدى الفقهاء، إلا من الله عز وجل، قال:

يا محمد لم يفتك كريم	✽	بجميل كلا ولا أثرياء
يا محمد من لعبد ضعيف	✽	قصمت متن ظهره الحوباء
يا محمد ما يكون احتيالي	✽	أقبل الشيب واضمحل الفتاء
يا محمد عاقني الذنب عن نبل	✽	المعالي وحق لي الإرجاء
يا محمد كن لنا فرطافي	✽	يوم حشر إذا يعم البلاء

إلى أن يقول:

وسرى للعباس عمالطه	✽	وبه مر بعده استسقاء
ولحمزة سيد الشهداء الفضل	✽	مالا تنال له الأصفياء
وعلي ما مثله من علي	✽	لا يضاهي اقترابه والولاء
بالبتول الزهراء أدلى ولم	✽	يوجد لمثل إدلائه إدلاء
هوؤلاء وآلهم آل طه	✽	سعدت برضاهم السعداء

وقد فسر المرحوم عبد الله كنون هذه المسألة، فاعتبرها أدبية صرفة ولا تعني بالضرورة زيغا عن جادة الإيمان بصواب الرأي لدى الفقهاء والعلماء في حدود الدين والإيمان والعقيدة. فقال في سياق الدفاع عن البوصيري وما لاحظته من أشياء في شعره النبوي: "ولكننا نقول مرة أخرى أن الرجل وإن هفا هذه الهفوة، فسييله في ذلك سبيل الأدباء الذين تحملهم المبالغة في المدح على الوقوع في بعض المخالفات"¹⁹.

وعموما، يمكن القول إنه من الصائب أن "في الشعر العربي قديما وحديثا أمثلة كثيرة على اتصال الفكر في قطع تطول أو تقصر بالنسبة إلى الأحوال" ولكن ليس معنى ذلك أن قصائد الحلبي هي تكرار لقصائد البوصيري، ولا قصائد التستاوتي تشبه قصائد اليوسي تشابها حرفيا؛ وإنما لكل شاعر، ولكل قصيدة أسلوب خاصة، و"تفنن" مميز لها، ضمن سياقها الشعري أو داخل ديوانها، وما استطاع هذا الديوان أن يوفره لنفسه - أمام القراء / المتلقين - من خصائص ومميزات. هكذا نعتبر أن القصيدة الدينية ومنها القصيدة النبوية، رغم طابع الاختلاف والتعدد الذي يظهر على موضوعاتها المكونة لصلبها، فإن هناك - على الأقل - وحدة فنية ونفسية ومنطقية تجعل منها هيكلة موضوعية وعضوية واحدة؛ إذ أننا نشعر بأن ما كان يشغل شاعر القصيدة الدينية، ليس هو البيت ولا هو المعنى أو الخاطر، وإنما كان شاغله هو المشهد والصورة والرؤية الكلية. وفي هذا السياق تبدو

19 - عبد الله كنون، أدب الفقهاء، ضمن مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب عدد 3، 1967، ص 75.

كثير من قصائد المتن المدروس صيغا لخطب شعرية حجاجية مترابطة الأفكار والصور، وتجمعها وحدة شعورية واحدة، يصبغها الشعراء بأحاسيسهم الخاصة، وفق مقامات شعرية خاصة. وهكذا "فالصورة الكلية مهما يكن جمالها، لا تكون معيارا للعبقرية إلا حينما تشكلها عاطفة سائدة أو مجموعة من الأفكار والصور المترابطة التي أثارها عاطفة سائدة، وحينما تتحول فيها الكثرة إلى الوحدة"²⁰. وبالتالي نفهم بأن الوحدة العضوية هي ذلك اللون من الإحساس الواحد الذي يصبغ جميع القصيدة، ويربط عناصرها، بحيث تسير كلها في اتجاه واحد، وتؤدي إلى غاية واحدة، هي الأثر الكلي الذي تولده القصيدة في نفس القارئ.

20 - إبراهيم عبد المنعم إبراهيم، بلاغة الحجاج في الشعر العربي. ط1. مكتبة الآداب، القاهرة 2007. ص 58.

موقف بعض عظماء الصين من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

د. ناصر بن فلاح الشهراني
عميد كلية العلوم والآداب في بيشة
جامعة الملك خالد - المملكة العربية السعودية

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد: فإن الله عز وجل بعث نبيه محمداً ﷺ بشريعة الإسلام التي جاءت خاتمة للرسالات السماوية كلها، وقد وصفه الله تعالى في كتابه العزيز بقوله: ﴿ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾¹. وقد أوجب الله تعالى على جميع الأنبياء الإيمان بهذا النبي ﷺ كما أوجب عليهم نصره أيضاً إن هم أدركوه، وليس هذا فحسب، بل أخذ منهم الميثاق على ذلك فقال تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيناكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين﴾².

وأنزل معه القرآن الكريم بالحق مصدقاً ومهيماً على جميع الكتب السماوية السابقة، قال تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق﴾³. فمحمد صلى الله عليه وسلم جاء برسالة عالمية، غير منحصرة في بقعة من بقاع الأرض ولا محدودة لقوم دون قوم، تأخذ بأيدي العالمين أبيضهم وأسودهم، عربهم وعجمهم إلى الصراط المستقيم الذي يضمن السعادة الدنيوية والأخروية معاً، وإلى النجاة الأبدية، وإلى الرحمة الإلهية.

1 - سورة الأحزاب، الآية 40.

2 - سورة آل عمران، الآية 81.

3 - سورة المائدة، الآية 48.

قال تعالى مخاطباً خاتم الأنبياء محمد ﷺ: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾⁴. وقال تعالى في وصف هذا الدين الحنيف: ﴿إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾⁵.

انطلاقاً من هذا الموقف الحاسم، فإن الإسلام خاتم الأديان بأسرها، وهو يملك جميع ما يحتاج إليه البشر من حلول إلهية مناسبة لكل مشاكلهم، المادية والروحية، الدنيوية والأخروية، الأخلاقية والسلوكية، العلمية والمعرفية، الفكرية والفلسفية، الفردية والاجتماعية، الاقتصادية والسياسية. والإسلام دين الكمال والشمول والاعتدال، فلم يترك أي جانب من الجوانب الإنسانية إلا وقد اعتنى به، وهياً للإنسان هدياً إلهياً ملائماً يتناسق مع كيانه الكلي. ولا نجد هذه السمة العظيمة في أي دين من الأديان الأخرى، سواء أكان ديناً سماوياً مثل النصرانية واليهودية، أو ديناً وضعياً مثل البوذية والكونفوشيوسية وغيرهما.

ومن بين الأمم والحضارات التي كان للإسلام تأثيره البالغ في حضارتها على مر العصور، الأمة الصينية.. بل وظهر تأثير كثير من عظماء الصين بسيرة رسولنا محمد ﷺ على مر العصور، في مواقف متعددة...

فأحببت أن تتدارس بعض هذه المواقف، ونقف عندها وقفة تأمل نستشعر من خلالها المنهج النبوي في التأثير على أمم الأرض لدعوتهم إلى الخير وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

وقد جاء البحث في مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة.

المبحث الأول/ الموقف من شخصه صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثاني/ الموقف من رسالته صلى الله عليه وسلم.

المبحث الثالث/ الموقف من أمته صلى الله عليه وسلم.

الخاتمة وفيها أهم النتائج التي توصلت إليها.

سائلاً الله أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به إنه سميع مجيب، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

4 - سورة الأنبياء، الآية 107.

5 - سورة سبأ، الآية 28.

6 - سورة آل عمران، 19.

تمهيد:

مضى على دخول الإسلام إلى الصين أكثر من (1400) سنة، حيث أجمع المؤرخون الصينيون⁷ على أن أول بعثة إسلامية جاءت إلى الصين كانت في زمن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه عام 651م، وهذه السنة توافق (سنة 30) من الهجرة النبوية، في عصر الإمبراطور (يون هون)⁸، حيث أرسل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بعثته الرسمية إلى عاصمة الصين "تشانغ آن" لزيارة الإمبراطور وتبليغه رسالة الإسلام، وليفتح المجال للدعوة الإسلامية في الصين.

وقد كان لهذه البعثة أثر كبير على أهل الصين، إذ أسهمت في تطور العلاقات بين الصين والعالم الإسلامي. ثم توالى تسع وثلاثون بعثة رسمية، منذ بداية البعثة الأولى (651م) حتى عام (798م).

وقد سجل المؤرخون في كتاب (تاريخ أسرة "تانغ" القديمة)، أن الفترة من عام 651 حتى أواخر الأسرة الملكية شون الجنوبية (خلال ستمائة عام تقريباً)، تعد فترة تطور وازدهار في تاريخ الصين، ومما لاشك فيه أن البعثات الإسلامية كان لها بالغ الأثر في هذا التطور. ومنذ ذلك العهد بدأ تاريخ الإسلام في الصين، وبدأ معه التعرف على سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبزت مواقف بعض عظماء الصينيين من رسول الله صلى الله عليه وسلم ورسالاته وأمته... ومنها:

المبحث الأول: الموقف من شخصه صلى الله عليه وسلم

حظي نبينا محمد صلى الله عليه وسلم بتقدير واحترام وثناء كثير من أمم الأرض غير المسلمة، لما عرفوا بعض ما وهبه ربه من الكمال البشري في أرقى صورته وحالاته.. وفي الحقيقة أننا لسنا في حاجة لأقوال ومواقف بعض عظماء الصين للاستدلال على مكانة النبي - صلى الله عليه وسلم - فمكانته سامية عندنا - نحن المسلمين - ولكننا أردنا أن نبين أن الحقيقة الناصعة تأسر العقول الراجحة عندما تتجرد عن هواها، وترتفع عن الأغراض الدنيئة، وأن سيرته العطرة تستهوي القلوب والأفئدة، وتستنطق من يتأملها فيعبر عن ذلك بأجمل عبارات الإعجاب والتقدير.

ومن ذلك ما ورد في ثنايا التاريخ الصيني من مواقف بعض عظماء الصين من رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم. وقطعاً ليست كل المواقف، بل ما استطعت الوقوف عليه من خلال البحث والدراسة، ومنها:

1- في عام 742م بني بأمر الملك الجامع الأعظم في "سيغانفو" عاصمة الصين القديمة، ووضع في فناء الجامع نصب تذكاري حجري حفر عليه مذكرة لمراقب البلاط الملكي "وانغ هوانغ"، جاء

7 - المساجد في الصين، محمد يوسف لي هو اين، دار النشر باللغات الأجنبية، بكين، الصين، ط 1، 1989م، ص (11-12).

8 - الملك الثالث للأسرة الملكية "تانغ" (618-907م).

فيها: "إن حكيم العرب محمد صلى الله عليه وسلم ولد بعد حكيم الصين "كونفوشيوس"، ونشأ في جزيرة العرب، فكانت الفترة بينهما طويلة والمسافة بين القطرين بعيدة، فما اتفقت سنتاهما مع اختلاف لغتيهما إلا لأن قلوبهما متحدان، فاتحدت سنتاهما. وقد مضى الحكيم ولكن آثاره ما زالت باقية، علمنا منها أنه ولد عبقرياً يعلم أسرار السماوات والأرض وأخبار الدنيا والآخرة، وعلم أتباعه أن يطهروا أبدانهم بالوضوء والغسل، ويربوا أرواحهم بكسر الشهوات، ويروضوا نفوسهم بالصيام، ويجتهدوا في الخير ويتعدوا عن المنكر، ويعاملون الناس بصدق النية والوفاء، ويتعاونوا على عقد الزواج وتشجيع الجنائز. وبالجمل، ما من أصل من أصول المجتمع الإنساني إلا وقد أثبتته، وما من قاعدة من قواعد الصحة والأخلاق إلا وقد شيدها"⁹.

2- أمر الملك الأول من ملوك أسرة "مينغ" الملقب بلقب "تايتسو" سنة 1328م ببناء جامع في "نانكينغ"، ونظم هو قصيدة مكونة من مائة كلمة في مدح الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ومعناها الحرفي: "ولد في جزيرة العرب النبي الأعظم الذي كتب اسمه في اللوح المحفوظ، وتلقى من الملك العلي كتاباً منقسماً إلى ثلاثين جزءاً، وبعث رحمة للعالمين. فكان ملكاً مربياً للخلق كافة، وسيدا كريماً للرسول والأنبياء أجمعين، وكاشفاً للفيض الأقدس حامياً للبيعة، يصلي كل يوم خمس مرات داعياً للعالم بالأمن والسلام، ويخاف من الملك الحق، ويشفق على الفقراء والمساكين، ويعين على الشدائد، ويعلم أسرار الدنيا والآخرة، ويشفع للأرواح وينقذها من النار. فقد غمر العالمين بفضله، وبهر المتقدمين والمتأخرين بسنته، وجمع الأديان فهدبها حتى صار ديناً طاهراً؛ حقاً وإن محمداً لأفضل الأنبياء"¹⁰.

3- صورة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في الثقافة الصينية

تبدأ قصة النبي محمد صلى الله عليه وسلم في الثقافة الصينية بإحدى الروايات الشعبية التي تتعلق بالإمبراطور الصيني "لي شه مينغ" (599-649م)، أحد أباطرة أسرة "تانغ" الملكية (618-907م)، والذي يعد أحد أشهر الأباطرة الذين حكموا الصين، حيث بلغت الصين تحت حكمه أوج قوتها. وتقول هذه الرواية، أن الإمبراطور "لي شه مينغ" رأى ذات ليلة في المنام نجماً يلعب في السماء، وفي الصباح طلب من أحد وزرائه أن يفسر له هذه الرؤيا، فقال له بأن النجم الذي رآه هو النبي الذي أرسل إلى بلاد العرب، فأرسل الإمبراطور "لي شه مينغ" رسولا إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم يدعوه للمجيء إلى الصين لنشر الدين. وتقول هذه الرواية، بأن النبي محمد تعذر عليه المجيء

9 - نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين، محمد مكين، المكتبة السلفية ومطبعها، 1353هـ، ص 20.

10 - نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين، محمد مكين، ص 21-22.

وأرسل ثلاثة رسل إلى الإمبراطور، وقد توفي اثنان منهما بسبب مشقة السفر، ووصل الثالث بعد عناء سفر طويل، فالتقى الإمبراطور "لي شه مينغ" فسأله عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن الإسلام، ثم أكرمه وأمر له ببناء مسجد للصلاة ونشر الإسلام.

أما الرواية الثانية لهذه الحادثة، فقد أوردتها العالم الصيني المسلم "ما جيان" (محمد مكين) في كتابه (ملاحم الدين الإسلامي في الصين). وتقول تفاصيلها، إن الإمبراطور الصيني "لي شه مينغ" رأى في المنام وحشا مخيفاً يريد أن يفتسه، وعند اقتراب الوحش منه ظهر رجل يلبس رداء أخضر وعمامة بيضاء وفي يده مسبحة، وقام بطرد الوحش بعيداً. وفي الصباح حدث الإمبراطور وزرائه بما رأى في المنام واستفتاهم في هذه الرؤية، فقال أحدهم: "إن الوحش هو خطر ما يهدد دولتنا، وأما الرجل فهو النبي الذي ظهر في بلاد العرب، وإن بلادنا لفي حاجة له لتحقيق الأمن والاستقرار". فأرسل الإمبراطور "لي شه مينغ" رسولا إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يطلب منه أن يبعث رسولا إليه لنشر الإسلام.

هذه الرواية رغم أنها لا تكتسي قيمة تاريخية كبرى عند المؤرخين المهتمين بدراسة تاريخ الإسلام في الصين، إلا أنها تحتوي على بعد ثقافي هام، حيث تبين موقف الثقافة الصينية التقليدية من نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته¹¹.

المبحث الثاني: الموقف من رسالته صلى الله عليه وسلم

1- إقرار إمبراطور الصين بأن الإسلام هو دين الله الحق

ذكر (توماس أرنولد) أن السيد (الأجل) المسلم الذي اسمه (عمر شمس الدين) كان حاكماً في الصين في القرن الثالث عشر الميلادي، حكم بالعدل واستقامت البلاد في عهده، وتوارث أبناؤه وأحفاده الملك ونشروا الإسلام هناك. وقد حصل أحدهم على ثبوت رسمي من إمبراطور الصين عام 1335م، هذا نصه: "الإسلام هو دين الله الحق الخالص"¹².

2- بلوغ تأثير الإسلام على أهل الصين قمته في عهد حكم أسرة "مينغ" الإمبراطورية

ويتضح ذلك من خلال أحداث متعددة منها:

أ- إعلان الإمبراطور الأول المؤسس لحكومة أسرة "مينغ" "جويران جاشنغ" (حكم ما بين سنة 1368م وسنة 1398م) إحلال التقويم الإسلامي محل التقويم القمري الصيني القديم، وذلك في

11 - النبي محمد في الثقافة الصينية، وليد عبد الله، مقال نُشر بصحيفة الشعب اليومية أونلاين، بتاريخ 3 فبراير 2012.

12 - الصين ويأجوج ومأجوج، عبد العزيز المسند، الرياض، المؤلف، 1410هـ/1989م، ص 54-55.

العام السابع عشر من حكمه الموافق لسنة 786هـ. ولم يتغير هذا القرار إلا بعد سقوط هذه الحكومة بعد قرنين ونصف.

ب- أمر هذا الإمبراطور ببناء مسجد في مدينة "نانكين" عاصمة الدولة في ذلك العصر، وأصدر العديد من القرارات في صالح المسلمين، مثل تحريم شرب الخمر وأكل لحم الخنزير، والحث على التزاوج بين المسلمين والصينيين، وغيرها من الأمور التي جعلت بعض المؤرخين يقولون أنه كان مسلماً لم يظهر إسلامه بسبب الضغوط السياسية¹³.

ج- كتابة هذا الإمبراطور أبياتا من الشعر في مدح النبي صلى الله عليه وسلم - كما ذكرت سابقاً - وكثيراً ما نجد شعره منقوشاً أو منحوتاً أو مكتوباً على جدران المساجد في الصين.

د- الإمبراطور الحادي عشر من هذه الأسرة "مينغ ووتشونغ" (حكم من 1506م إلى 1521م) كان مولعاً بدراسة الأديان، فدرس الإسلام وامتدحه أمام وزرائه، وانتقد ذات يوم أديان الصين قائلاً لخدمه وحشمه: "إن الكونفوشيوسية تكفي لمعالجة المصالح في عالم الشهادة، وتقصر عن كشف الأسرار في عالم الغيب. وأما البوذية والطاوية، فكأنهما تكشفان حجب الغيب، ولكن لا تفيدان الرجوع إلى الفطرة. فإن كل واحد من هذه الأديان منحرف إلى جانب واحد، بخلاف الإسلام فإنه دين يعرف به الخالق ويبني على القواعد المعقولة، فلا جرم أن يبقى ما دامت السماوات والأرض"¹⁴.

هـ- اهتمام حكومة "مينغ" بإقامة العلاقات الودية بينها وبين البلدان الإسلامية، حيث أرسل الإمبراطور الثاني عشر من هذه الأسرة "يولي" (حكم من 1403م إلى 1424م) وفداً تحت قيادة الرحال البحري المسلم "جينغ هاي" (1371م - 1435م) إلى البلدان الإسلامية في سنة 1405م. وقد سافر هذا الرحالة سبع مرات خلال ثمانية وعشرين عاماً. ويذكر المؤرخون أن الوفد المرافق له في إحدى رحلاته كان سبعة وعشرين ألفاً، منهم الرحالة والجنود والموظفون والعمال والأطباء والتجار والمترجمون. وقد اشتهرت قصص هذا الرحال البحري المسلم، فأصبح رمزاً للشجاعة في أعين الصينيين¹⁵.

13 - جهود العلماء المسلمين في الصين في مجال علم مقارنة الأديان، زهرة الدين طيب، رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية العالمية، باكستان، 1416هـ/1996م، ص 21.

14 - نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين، محمد مكين، ص 23.

15 - جهود العلماء المسلمين في الصين في مجال علم مقارنة الأديان، زهرة الدين طيب، ص 21 (بتصرف).

المبحث الثالث: الموقف من أتباعه صلى الله عليه وسلم

1- قول أحد ملوك الصين في الصحابة رضوان الله عليهم

ذكر ابن جرير - رحمه الله - في تاريخه، أن يزدجرد كتب إلى ملك الصين يستمده، فقال للرسول: قد عرفت أن حقاً على الملوك إنجاد الملوك على من غلبهم، فصفت لي صفة هؤلاء القوم الذين أخرجوكم من بلادكم، فإني أراك تذكر قلة منهم وكثرة منكم، ولا يبلغ أمثال هؤلاء القليل الذين تصف منكم فيما أسمع من كثرتكم إلا بخير عندهم وشر فيكم، فقلت: سلني عما أحببت. فقال: أيوفون بالعهد؟ قلت: نعم. قال: وما يقولون لكم قبل أن يقاتلوكم. قلت: يدعوننا إلى واحدة من ثلاث: إما دينهم، فإن أجبناهم أجرونا مجراهم؛ أو الجزية والمنعة، أو المنابذة. قال: فكيف طاعتهم أمراءهم؟ قلت: أطوع قوم لمرشدتهم. قال: فما يملكون وما يجرمون؟ فأخبرته، فقال: أيجرمون ما حلل لهم، أو يملكون ما حرم عليهم؟ قلت: لا. قال: فإن هؤلاء القوم لا يهلكون أبداً، حتى يملو حرامهم ويجرموا حلالهم. ثم قال: أخبرني عن لباسهم، فأخبرته؛ وعن مطاياهم، فقلت: الخيل العرب ووصفتها. فقال: نعمت الحصون هذه. ووصفت له الإبل وبروكها وانبعاثها بحملها، فقال: هذه صفة دواب طوال الأعناق. ثم كتب إلى يزدجرد: إنه لم يمنعي أن أبعث إليك بجيش أوله بمرور وآخره بالصين، الجهالة بما يحق علي، ولكن هؤلاء القوم الذين وصف لي رسولك صفتهم، لو يحاولون الجبال لهدوها. ولو خلى سربهم أزالوني، ما داموا على ما وصف، فسالمهم وارض منهم بالمساكنة، ولا تهجم ما لم يهيجوك¹⁶.

2- مكانة المسلمين عند بعض الأسر الملكية الصينية

كانت أحسن أحوال المسلمين في الصين عند بداية دخول الإسلام إلى الصين، أي في عام (651-907م)، وأوائل أيام الأسرة الملكية "سونغ" (960-1279م) ثم من أواسط الأسرة الملكية "يوآن" إلى أوائل الأسرة الملكية "مين".

كانوا يتمتعون بالحرية الكاملة في الإقامة والعمل والتجارة والدعوة في الصين، وبلا استقرار في الحياة في أيام الإمبراطور (قوجون) من أسرة "تانغ"، حيث أكرم المسلمين إكراماً بالغاً، وجعل إقامتهم بجوار قصره في وسط العاصمة - مدينة تشانغ آن - (تشي آن) الآن. وحتى الآن، يسكن فيها أحفادهم المسلمون، وسميت هذه المنطقة باسم (المنطقة المسلمة). وكانوا يديرون اقتصاد الأسرة الملكية "تانغ"، وبينون المساجد داخل العاصمة وخارجها، مما ساهم في تطور الدعوة الإسلامية آنذاك.

16 - تاريخ الرسل والملوك، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، دار التراث، بيروت، ط 2، 1387هـ، (249/3).

وقد أورد الشيخ بيرم التونسي المتوفى عام 1889م في مؤلفه (صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار) ما يلي: "إن أصل المسلمين في الصين، وهم ينيفون على الستين مليوناً من السكان، من العساكر المسلمين الذين جلبهم ملك الصين في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور؛ حيث ثارت عليه رعاياه، فاستنجد بالخليفة على أن يؤدي معلوماً إذا أنجده. فأرسل إليه أربعة آلاف من صناديد المسلمين وقهر بهم رعاياه، وجازاهم على ذلك بجواز الإقامة في مملكته..."¹⁷.

3- بيان الإمبراطور "يوانج تشين" 1731م

حيث أثار نذر الظلم والتضييق على المسلمين - التي هبت ريجها مع قدوم أسرة مانشو - شعوراً عاماً بالاضطراب والتوتر في صفوف المسلمين، حاول الإمبراطور "يوانج تشين" في سنة 1731م أن يهدئ من روعهم، فأصدر بياناً هاماً يحدد فيه سياسة حكومته تجاه المسلمين. وهذا نص البيان الذي نشره توماس أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام): "في كل ولاية من ولايات الإمبراطورية، يوجد منذ قرون كثيرة مضت، عدد كبير من المسلمين، يؤلفون جانباً من الشعب، اعتبرهم كأبنائي، وأنظر إليهم كما أنظر إلى بقية رعيتي تماماً، ولا أفرق بينهم وبين الذين لا يدينون بالإسلام. وقد تسلمت من بعض الموظفين ظلمات سرية ضد المسلمين، سببها أن ديانتهم تختلف عن ديانة غيرهم من أهل الصين، وأنهم لا يتكلمون بلغة الصين، ويلبسون لباساً يختلف عما يلبسه سائر الأهالي، وهم متهمون بالعصيان والخطورة والميول الثورية. وقد طلب مني أن أتخذ ضدهم تدابير صارمة، فلما بحثت هذه الظلمات والالتمات لم أجد لها أساساً من الصحة. والواقع أن الدين الذي اتبعه المسلمون إنما هو دين أجدادهم، والحق أن لغتهم ليست كلغة بقية الصينيين، ولكن ما أكثر اللغات في الصين. أما فيما يتعلق بدور عبادتهم ولباسهم وطريقتهم في الكتابة - وكلها مختلفة عما عند غيرهم من أهل الصين - فهذه مسائل لا أهمية لها مطلقاً، وما هي إلا عادة من عادات المسلمين. إنهم يتحلون بالأخلاق الفاضلة كغيرهم من الرعية، وليس هناك ما يدل على ميلهم إلى الثورة. من أجل ذلك، كانت رغبتني أن تطلق لهم الحرية في إقامة شعائر دينهم، الذي يهدف إلى تعليم الناس التمسك بالحياة الفاضلة، وتأدية واجباتهم الاجتماعية والمدنية. إن هذا الدين يحترم النظم الأساسية للحكومة، فإذا نستطيع أن نطلب منهم أكثر من هذا؟ فإذا ظل المسلمون بعد ذلك يتصرفون بما يتصف به الرعايا الأخيار المخلصون، فسأبسط لهم رعايتي بقدر ما أبسطها لأبنائي الآخرين. لقد ظهر منهم مدنيون وعسكريون ارتقوا إلى أعلى المناصب، وهذا أقوى دليل على أنهم تطبعوا بطباعنا وتعودوا عادتنا، وتعلموا كيف يلائمون بين أنفسهم وبين شرائع كتبنا المقدسة. إنهم

17 - العلاقات بين العرب والصين، بدر الدين حسن الصيني، مكتبة النهضة المصرية، 1950م، ص 40 (بتصرف).

يجتازون امتحاناتهم في الآداب كما يجتازها أي إنسان آخر، ويقومون بما يفرضه عليهم القانون من تضحية. وقصارى القول، إنهم أعضاء خلص في الأسرة الصينية العظيمة، وإنهم يجدون دائماً في أداء واجباتهم الدينية والمدنية والسياسية. وعندما ينظر القضاة قضية مدنية، لا تعنيهم ديانة المتخاصمين، فليس هناك إلا قانون واحد لرعيتي. فمن عمل صالحاً كوفئ عليه، ومن عمل سيئاً حق عليه العقاب"¹⁸.

4- وصية أبي الجمهورية الصينية بشأن المسلمين

وصى الدكتور "صن يات صن" أتباعه بالتعاون مع أبناء وطنه المسلمين وإخوانهم في الخارج، في كتابه المشهور بـ (المبادئ القومية الثلاثة)، المقدس عند أتباعه أعضاء الحزب الحاكم، وترجمتها كالتالي: "الغرض الأول من المبادئ القومية الثلاثة: فك رقاب شعوب الصين من الاستبداد والاضطهاد، وتحقيق المساواة في الحقوق المدنية بينها. وما أصاب المسلمين في الصين فيما مضى من الظلم والاضطهاد، كان أشد مما أصاب مواطنيهم، والحمية عندهم أقوى منهم عند مواطنيهم أيضاً. فيجب علينا أن نشتغل بتبنيه المسلمين، ليشتركوا في الحركة الوطنية. وقد اشتهر المسلمون في العالم بالشجاعة والتضحية. فإذا تنبه المسلمون في الصين، كانوا حصناً حصيناً للحركة الوطنية. والأمة الصينية لن تنسى في صفحات تاريخ المساواة والحرية، ما يقدم إليها إخوانها المسلمون من الإعانة والمساعدة. وأول عمل من أعمال الحركة الوطنية مقاومة الاستعمار، ولكن هذا العمل لن يتم على أيدي الأمة الصينية وحدها، فلا بد لإتمامه من اتحاد الأمم المستضعفة في آسيا.

ويذكر "صن يات صن" الأمم المستضعفة في عصره، حين يواصل قائلاً: الأمم المستضعفة هي الإيرانية والتركية والهندية والأفغانية والعربية. وهذه الأمم كلها إسلامية، تكون منها الممالك الإسلامية التي تحرز قوة هائلة في المطالبة بالحرية والاستقلال. وقد أصابتها ضغطة شديدة، فلا بد لنا من القيام في صف واحد لمقاومة السياسة الاستعمارية وتخريبها. وبالجمل، لن تنجح الحركة الوطنية الصينية بدون اشتراك الشعب الإسلامي، ولن يتم عملنا في مقاومة السياسة الاستعمارية بدون الاتحاد مع الأمم الإسلامية"¹⁹.

هذه بعض مواقف وقناعات بعض عظماء الصين من النبي محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته وأمتة، وغيرها كثير مما لا يتسع المقام لذكره. ومما لا نعلمه بسبب انقطاع التواصل بيننا وبين أهل

18 - الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة وتعليق حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، ط 3، 1971م، ص 337؛ وانظر: الإسلام في الصين، فهمي هويدي، ص 92-93.

19 - نظرة جامعة إلى تاريخ الإسلام في الصين، محمد مكين، ص 51-53.

الصين، لبعد المسافة ولقلة ترجمات المصادر الصينية العتيقة إلى اللغة العربية، ولقلة المتخصصين في الترجمة من الصينية إلى العربية.

خاتمة

وبعد إتمام هذا البحث، يمكن أن نلخص أبرز النتائج في النقاط التالية:

- 1- تأثر عدد من عظماء الصين بسيرة رسولنا صلى الله عليه وسلم وثناؤهم عليه.
- 2- اهتمام الثقافة التقليدية الصينية بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم.
- 3- إقرار إمبراطور الصين عام 1335م بأن الإسلام هو دين الله الحق.
- 4- إحلال التقويم الهجري محل التقويم القمري الصيني في العام السابع من حكم الإمبراطور (جويران جاشنغ) عام 786هـ.
- 5- الثناء على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل بعض عظماء الصين.
- 6- المكانة العظيمة لأتباع سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم عند بعض الأسر الملكية في الصين.
- 7- اهتمام بعض عظماء الصين بالمسلمين والثناء عليهم، والإشادة بشجاعتهم في الدفاع عن الصين وأهلها.

حيوان الهند

رسول الهدى

سيدي محمد بنحاجد الصقلي

يُنبئه هَذَا الْكَوْنُ أَنْ جَاءَ رَائِيَهُ
 فَعَالَمٌ سَامِي الْأَمْرِ تَبْدُو مَشَاهِدُهُ
 هَيْئَةً مُرِيدُ الْحَقِّ يَشْتَدُّ سَاعِيَهُ
 فَتَهْدِي الْحَيَارَى وَالْجُحُودَ تَبَاعِدُهُ
 تَهْدِيهِ أَخْطَارُهُ وَمَفَاسِيْدُهُ
 لِأَنَّ شُرُورَ الظُّلْمِ كَانَتْ تُطَارِدُهُ
 فَكَمْ مِنْ حُرُوبٍ أَشْعَلَتْهَا مَكَائِدُهُ
 فَفَطَرَتْهُ ضَاعَتْ وَسَاءَتْ عَقَائِدُهُ
 بِمَوْلِدِهِ الْأُسْنَى مَجَلَّتْ شَوَاهِدُهُ
 وَزَالَتْ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ مَعَالِمُهُ
 شَقِيًّا تَمَادَى هَوْلُهُ وَشَدَائِدُهُ
 وَصَارَ بِهِدِي الدِّينِ يُنْصَرُّ عَاضِدُهُ
 سَيَبْقَى بَقَاءَ الدَّهْرِ يَكْثُرُ حَامِدُهُ
 وَأَسَسَتْ حِصْنِ الْعِلْمِ تَرْسُوقَ عَائِدُهُ
 فَلَا اللَّوْنُ أَوْ جِنْسُ الْمَفَاخِرِ نَاجِدُهُ
 قُبُودٌ وَفَيْضُ الْفِكْرِ يَنْهَلُ وَارِدُهُ
 بَدَتْ قِيَمَةُ الْإِنْسَانِ وَأَنْضَمَّ شَارِدُهُ
 وَنُورُكَ قَبْلَ الْكَوْنِ رَبُّكَ وَاجِدُهُ
 لِإِبْرَازِ مَغْزَى مَوْلِدِ أَنْتَ شَاهِدُهُ
 وَفَضْلُكَ أَسْمَى أَنْ تُوفَى مُحَامِدُهُ

صَدَى جَلَّةِ الْأَمْلاكِ فَهِيَ تُوَاكِبُهُ
 تَحْطَى حِجَابَ الْغَيْبِ يَنْزِلُ بِالْهُدَى
 هَوَاتِفُ بِالْبُشْرَى تَوَالَتْ فَرَدَدَتْ
 فَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ تُشْرِقُ شَمْسُهُ
 أَتَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ وَالْوَضْعُ حَالِكُ
 فَلَمْ يَكْ لِلْإِنْصَافِ قَدْرٌ وَقِيَمَةٌ
 تَكَالَبَ مِنْ أَجْلِ الْمَطَامِعِ مَنْ طَغَى
 تَغْلَبَ مَنْ يُلْقِي الْعِنَانَ لِحُسْنِهِ
 وَفِي هَذِهِ الظُّلُمَاءِ نُورٌ مُحَمَّدُ
 فَكُلُّ دَعَامَاتِ الضَّلَالِ تَقَوَّضَتْ
 رَسُولُ الْهُدَى أَنْقَذَتْ إِذْ جِئْتَ عَالِمًا
 وَتَمَّتْ بِكَ الْأَخْلَاقُ وَالْحَقُّ قَدْ بَدَا
 وَشَيَّدَتْ صَرْحًا لِلْعَدَالَةِ شَاخِحًا
 وَضَعْتَ لِطُلَابِ الْحَقَائِقِ مِنْهَجًا
 جَعَلْتَ الْمَرَايَا بِالْعُلُومِ وَبِالتَّقَى
 تَكَسَّرَتِ الْأَغْلَالُ لَيْسَ لِعَقْلِنَا
 بِدِينِكَ يَا خَيْرِ الْعَوَالِمِ كُلِّهَا
 فَلَا عَجَبُ إِنْ كُنْتَ لِلْخَلْقِ نُورَهُ
 رَسُولُ الْهُدَى مَهْمَا أَحَاوَلَ جَاهِدًا
 فَإِنِّي أَمَامَ الْفَضْلِ أَكْبَرُ عَاجِزُ

أنشودة الإيمان

الشاعر: محمد البلغمي

ويا رحمة عمت العالمين !
 بأعظم بشرى، وأكرم دين
 على الكون، وافتر صبح مبين
 وأزهر بالورد والياسمين !
 ومرحى لنا بالرسول الأمين
 يهيمون في الأرض كالتائبين !
 وخروا إلى صنم ساجدين
 وكانوا الشيطانها خاضعين !
 مخافة فقر، وعار يشين
 بأن الجهالة ما يفعلون !
 وأنقذهم من ظلام السنين
 وأجلى الشكوك بنور اليقين
 وضم الصفوف بحبل متين !
 وليس لسلطانه من قرين
 وأقوم نهج، إلى المؤمنين !
 ولا فضل إلا لمن يتقون
 وظلوا بكفرانهم ساديين !
 وساروا على نهجه ثابتين !
 وكانوا الحماة وأسود العرين !
 وبالحق دكوا قوى المشركين
 وكانوا من القادة المخلصين

محمد يا سيد المرسلين
 ويا خير هاد أتى للورى
 بيوم ولادك، هل الربيع
 وأشرق عالمنا بالضياء
 فمرحى لآمنة بالحبيب
 لقد جاء .. والناس في فرقة
 فكم عبدوا الصخر جهلا وغيا
 وكم عاقروا بنت كرم ضللا
 وكم وأدوا طفلة كالصباح
 وما علموا .. وهم الغافلون
 فمرحى بمن قد أتى بالخلاص
 وأخرجهم من دروب الضلال
 وأحى النفوس بهدي السماء
 هو الله ليس له من شريك
 ودين الحنيفة دين الرشاد
 ولا فرق بينهم في الحياة
 فسحقا لمن أوغلوا في الجحود
 وطوبى لمن آمنوا بالرسول
 أولئك من صدقوا في الجهاد
 بإيمانهم دحروا كل جيش
 وبالعدل صانوا حقوق البرايا

تنير الدروب إلى السالكين !
 ولم يقتفوا منهج الأولين ؟
 وأمسوا على ذلة صابرين ؟
 تنوء، وتشقى بوغد لعين ؟
 وحق الكتاب الكريم المصون
 وأنزل عقابك بالظالمين !
 وطهر ثراها من الغاصبين
 وعجل بنصرك للمسلمين
 ونعم النصير، ونعم المعين !

وبالفكر شادوا منارات علم
 فكيف تغير من خلفوهم
 وكيف انتهت حالهم للشتات
 وباتت مواطن أجدادهم
 فيارب، باسم رسول الهدى
 أعد للعروبة وحدثها
 وأنقذ فلسطين من قيدها
 وأرجع إلى الضاد عزتها
 فإنك يارب، نعم المجير

مولدكم رسول الله ذكرى

الشاعر: عبد الكريم الوزاني

تَدُومُ، نُقِيمُهُ بِاللَّهِ شُكْرًا
مَحَبَّتُكُمْ تَفُوقُ الْعَدَّ حَضْرًا
وَوَقْتُ فِي الْمَحَبَّةِ فِاقَ عَشْرًا
وَفِي الْقُرْآنِ ذِكْرُكَ جَاءَ بُشْرًا
وَحِينَ الْمُغْرَمِينَ يَطِيبُ أَسْرًا
وَأَهْلُ الْأَرْضِ يَكْتَنِزُونَ طَهْرًا
بِذِكْرِ مُحَمَّدٍ سِرًّا وَجَهْرًا
إِلَيْهِ فَدِينُ أَحْمَدَ كَانَ يُسْرًا
وَمَدَّ اللَّهُ لِلْإِسْلَامِ جِسْرًا
تُبَارَكُ لَهُ الْمَلَأْتُكَ حِينَ أُسْرًا
وَمَكَّةُ هَاجَرَتْهُ فَعَادَ قَسْرًا
وَأَخْلَقَ الرَّسُولَ تَعَمُّ خَيْرًا
وَمَا شَاءَ إِلَهُهُ يَكُونُ أَمْرًا
وَأَلِ الْبَيْتِ وَالْأَسْبَاطِ طَرًّا
وَعَضْرُ الْبَاعِثِينَ يَضُوعُ عَطْرًا
فَرُبُّكَ لِلْسَّرَائِرِ هُوَ أَذْرًا
تَسَامَى إِنَّ بَعْدَ الْعُسْرِ يُسْرًا
دُعَاءُ الْمُؤْمِنِينَ يُقَاسُ أَجْرًا
وَمَنْ قَدَرَ إِلَهُهُ أَزْدَادَ قَدْرًا
وَمَنْ خَلَصَتْ مَحَبَّتُهُ فَأَخْرَى

لَمَوْلِدِكُمْ رَسُولَ اللَّهِ ذِكْرَى
نَبِيِّ اللَّهِ يَا أَمَلَ الْعِبَادِ
بِذِكْرِكُمْ يُكَرِّمُ كُلُّ وَقْتٍ
وَهَلْ تَكْفِي صَلَاةٌ أَوْ أَلُوفُ
عَلَيْكَ صَلَاةُ رَبِّكَ كُلِّ حِينٍ
نُوفٍ وَالْوَفَاءُ لَهُ سِمَاتُ
وَجَنَّاتُ الْخُلُودِ لَهَا مَسَارُ
هَوَانَا أَنْ نُصَدِّقَ مَا دَعَانَا
بِهِ الْبَشَرِيَّةُ اكْتَمَلَتْ بِهِاءُ
وَرُوحُ الْقُدُسِ طَهَّرَهُ وَجَاءَتْ
وَيُثْرِبُ نَاصِرَتُهُ وَمَا نَخَلَّتْ
لَا خِلَاقَ الرَّجَالِ تَطِيبُ نَفْسُ
وَنَزِدُّهُ لَأَنَّ اللَّهَ شَاءَ
صَلَاةً وَالْإِسْلَامَ عَلَى مُحَمَّدٍ
وَمَنْ تَبَعَ النَّبِيَّ لِكُلِّ عَصْرِ
وَجَاهِزٌ بِالصَّلَاةِ إِلَى السَّمَاءِ
وَلَا تَقْنَطُ وَتَسْقِي النَّفْسَ هَمًّا
عِبَادُ اللَّهِ لَوْ سَأَلُوا أَبْرُوا
وَعِنْدَ اللَّهِ يُقَدَّرُ كُلُّ أَمْرِ
وَاللَّهُ الْمَارِبُ حَيْثُ تُقْضَى

ربيع الربيع

الشاعر: محمد الإدريسي

وغمر الندى ما استنبتته الخمائل
وسفر الرجا يتلو سطوره أمل
وقد أزهرت في راحتيه المشاعل
وذاك الذي تحيي ثراه السنابل
بنتها بأصداق الكمال فضائل
وماله دون الخالدات بدائل
إلى حيث ترقى بالرجاء المسائل
وآيات قرب قد تلاها التقابل
فأخبر ذاك العهد أنه نائل
لغير الذي حجت إليه المنازل
فكانت لهم في العالمين دلائل
سطور وآيات دعتها النوازل
تجمعت الآيات، تم التكامل
به حكم وأحكام، وقوله فاصل
وقد زار مالا تستطيع الرواحل
به حدثت بالمعجزات الحوامل
وعرف جمال لا يضاهيه ذابل
وصالت بأغلى الأمنيات الرسائل
فنوره في جفن بلحظك مائل
سناها تحاكيه الضحى والأصائل
فكيف إذا ما عانقته الشمائل؟

مناهل نبع للسحائب شاهد
وحلم الليالي أنسها واحتطابها
وخير الورى راع بمتززه الهدى
فذاك الذي بالساريات مناره
وذاك الذي تنشي عليه منازل
لذاك مقيم الخالدات محمد
رسول الإله، قد سعت به رحلة
هناك حروف السعد أجرت مدادها
تسلم عهدا فوق سبع من العلا
وهل ركن ذاك المنتهى نزل زائر
نبي، من الآل الذين تقدموا
وكل دعاة للسلام، كتابهم
فلما بدا بالأفق نجم لأحمد
فكان لذا المبعوث خير منزل
ومال رسول مثل ذاك في الورى
فريد، إذا قابلت دهرا بمولد
ربيع ربيع، نحتمي به دهرنا
تناهت ربيع السعد فيك النوائل
لغرة خير الورى فيك علامة
كأن لنور الفجر منه تحية
رعته سماء العز وهو بمهده

وَبَلَّغَ ذَكَرًا لَا يَشُوبُهُ بَاطِلٌ
فَأَوْقَدَ مِنْهَا رَهْطَ رَكْبٍ وَرَاجِلٍ
بِأَيَّاتٍ شَكَرَ حَبْرَتَهَا النُّوَافِلُ
فَخَلَّتْ بِأَنْبِيٍّ فِي رِكَابِهِ رَاحِلُ
وَخَاطِرُ أُرَادِي لِبَحْرِهِ سَاحِلُ
فَصَرَتْ لَهُ رَدْفًا، وَخَطُوهُ عَاجِلُ
إِلَهُ الْبِرَايَا وَهُوَ عِنْدَهُ وَاصِلُ
هَنِيئًا لَنَا إِذْ عَزُّنَا بِهِ حَاصِلُ

وَأَسَدِي بِثُوبِ الْجَدِّ مَا مَسَّهُ الْبَلِي
قَنَادِيلُهُ مِنْ نُورِ ذِكْرٍ تَوَقَّدَتْ
لِسَانِي بِذِكْرِي مَوْلَدٍ قَدْ تَرَنَّا
حَبِيبَ، دَعَانِي الشُّوقُ لَمَّا ذَكَرْتَهُ
فَسَمِعِي تَنَحَّيَ عَنْ سَوَاهِ وَنَاطِرِي
نَهَلْتُ مِنَ الْكَأْسِ الَّتِي مِنْهَا رِيهِ
نَزِيلُ الْمَعَالِي، مَنْ دَعَاهُ إِلَى الْعَلَا
هَنِيئًا لَهُ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَدَ ذَكَرَهُ

فهرس العدد

افتتاحية العدد.....7

ملف العدد

المولد النبوي الشريف بالمغرب

الاحتفال بالمولد النبوي الشريف: إضاءات حول فرح المغاربة بالمصطفى صلى الله عليه وسلم

د. محمد التهامي الحراق11

من نوادر المخطوطات في المولد النبوي في العصر العلوي

د. أحمد إيشرخان25

محبة النبي صلى الله عليه وسلم والاحتفال بمولده عند الموريسكيين

د. عبد الرزاق وورقية39

المولد النبوي فرصة لتجديد التعلق بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم

د. عبد الله شريف وزاني49

ملامح من الأدبية الموحدية

د. الحسن الطاهري57

مقالات داعمة

في

السيرة النبوية والتصوف السني

إمارة المؤمنين في التراث الصوفي السني المغربي

ذ. محمد طابخ85

تعريف موجز بالسيرة النبوية في الكتابات الصينية

سعيد جمال الدين ماينغ جغ 马妍哲101

التواصل بين القيم النقدية والمفاهيم الإسلامية: المدحة النبوية بالغرب الإسلامي نموذجاً

117..... د. عبد الله بنصر العلوي

جوانب من نشأة التصوف السني وتطوره

127..... د. أحمد الأزمي

إسهام علماء الغرب الإفريقي في درس السيرة النبوية: المختار الكنتي وكتابه نزهة الراوي نموذجاً

143..... د. محمد المهدي

بعض الملامح الفنية في المديح النبوي بالمغرب

163..... د. عبد الله بن عتو

موقف بعض عظماء الصين من الرسول محمد صلى الله عليه وسلم

175..... د. ناصر بن فلاح الشهراني

ديوان العدد

رسول الهدى

187..... سيدي محمد بنحماد الصقلي

أنشودة الإيمان

189..... الشاعر محمد البلغمي

لمولدكم رسول الله ذكرى

191..... الشاعر عبد الكريم الوزاني

ربيع الربيع

193..... الشاعر محمد الإدريسي

شروط النشر بالمجلة

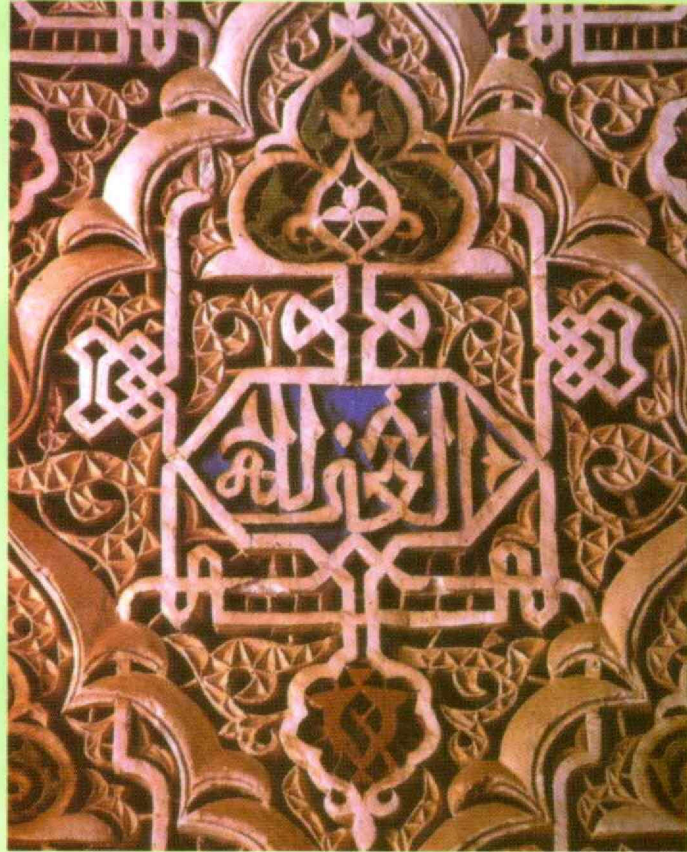
- تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:
- أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلاً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.
 - أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.
 - ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم: A4.
 - في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.
 - في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.
 - تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.
 - ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.
 - ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.
 - الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.
 - ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

محاوَر الأعداد المقبلة:

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاور الآتية:

1. الخطاب القرآني بين التصورات الشرعية والتصديقات الحقوقية
2. إمارة المؤمنين والبعث الإفريقي
3. أصول الفتوى في المغرب الأقصى
4. السيرة النبوية في الكتابات المعاصرة
5. العقيدة الأشعرية ومنظومة القيم الحضارية المغربية
6. جهود المغرب في تكوين القيميين الدينيين
7. العمران المغربي: فقه وفن وتنمية
8. الرحلة والرحالة المغاربة
9. الأدب المغربي: تاريخ وأعلام...





دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والعكر
تُصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية